

شيخ الإسلام

محمد بن العربي العلوي

السلفية المستنيرة

أعمال

الندوة التكرمية

المنعقدة بالمكتبة

الوطنية

بالرباط

(4 يونيو 2013)



إعداد وتنسيق

أحمد السليمانى

عثمان المنصوري

عبد الرحمن زكري

شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي
السلفية المستنيرة

منشورات مركز محمد بن سعيد آيت إيدر للأبحاث والدراسات
سلسلة "ندوات ومحاضرات"



شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي السلفية المستنيرة (ندوة)

إعداد وتنسيق

أحمد السليمان
عثمان المنصوري
عبد الرحمن زكري

الكتاب:

شيخ الإسلام
محمد بن العربي العلوي
السلفية المتنورة

إعداد وتنسيق:

أحمد السليمان
عثمان المنصوري
عبد الرحمن زكري

سلسلة: ندوات ومحاضرات، رقم 1.

الناشر: مركز محمد بن سعيد آيت إيدر للأبحاث
والدراسات.

9، إقامة المارشال امزيان، زنقة بغداد.
الدار البيضاء.

cermbensaid@gmail.com

الطبع: أوميكا كرافيك

67، زنقة 35 مجموعة 2

حي السدري.الدار البيضاء

رقم الإيداع القانوني: 2015 MO 2193
الرقم الدولي: 9. 743. 35. 9954-978

الطبعة: الأولى، 2015

شهادات

- 13 عائشة بلعربي العلوي
25 مولاي هاشم العلوي
31 محمد بنسعيد أيت يدر
43 محمد علال سينا

جوانب من سيرة الشيخ ومواقفه

- 55 أحمد السليماني، شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي السلفية والمواطنة
61 محمد العمري، المصلحون منارات في الطريق
65 حسن أوريد، سيرة مصلح
75 الموساوي العجلوي، الشيخ محمد بن العربي العلوي زمن الاستقلال

علاقات الشيخ برموز السلفية في المغرب العربي

- 85 عبد اللطيف الحناشي، الشيخ عبد العزيز الثعالبي رائد السلفية
في المغرب العربي
103 أحمد مولود اعويمر، محمد بن العربي العلوي وصلته بجمعية العلماء المسلمين
الجزائريين
113 محمد فلاح العلوي، السلفية المغربية بين محمد بن العربي العلوي وعلال
الفاسي

السلفية: مقاربات متنوعة

- 133 إدريس حمادي، الاسلام من منظور السلفية في ثلاث محطات
155 محمد المصباحي، بين السلفية المستنيرة والسلفية المتزمتة
169 محمد المعروف الدفالي، السلفية الجديدة والوطنية
181 عبد العالي العمراني جمال، تصوف محمد بلعربي العلوي بشهادة محمد المختار
السوسي



شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي (من أرشيف العائلة الخاص)

تقديم

يمثل الشيخ محمد بن العربي العلوي نموذجاً متميزاً لعالم بصم عصره وأثر فيه بأفكاره ومواقفه، وساهم من مواقع متباينة، وظرفيات مختلفة في نشر سلفية مستنيرة، واقعية، قادرة على التفاعل مع التطورات، ومواكبة المستجدات التي عاشها وعاينها خلال حياته، قبيل وقوع المغرب تحت سلطة الحماية الفرنسية وخلال عهد الحماية وما تلاه في العقد الأول الذي أعقب الاستقلال.

تلقى الشيخ محمد بن العربي العلوي تعليمه الأولي في تافيلالت ثم انتقل إلى فاس حيث تابع دراسته بجامعة القرويين، فخرج منها عالماً متمكناً من العلوم التي كانت تدرس فيها. إلا أنه نهل بالإضافة إلى ذلك من معين الفكر السلفي الوافد من المشرق، والذي كان يمثله محمد عبده والأفغاني وغيرهما، ومن تأثر بهما من المغاربة أمثال الشيخ المهدي الوزاني وأبي شعيب الدكالي.

عاصر الشيخ الحركة الأدبية والفكرية التي واكبت عصر النهضة بالمشرق، التي عرفت بعثاً وإحياء للأدب والفكر، ومساجلات بين رواده من المحافظين ودعاة التجديد، ونشاط التأليف في القصة والرواية والمسرح والفلسفة وغيرها مما عكسته ثمرات دور النشر المشرقية، من كتب ومجلات وجرائد، كان المثقفون المغاربة ومن بينهم شيخنا يتلقفونها بنهم، ويتشبعون بها، ويتفاعلون معها. وقد انعكس كل ذلك على دروسه، التي كانت تتسم بالجدّة والعمق، فلقيت إقبالا كبيراً من الشباب طلبة وصناعاً وتجاراً وغيرهم. ومن جملة هؤلاء الطلبة محمد علال الفاسي ومحمد المختار السوسي.

عاش الشيخ مراحل دقيقة وهامة من تاريخ المغرب، بدءاً بنهاية القرن التاسع عشر الذي عرف تكالب الدول الأوروبية على المغرب، وممارستها لضغوط قوية للاستئثار به، والسيطرة عليه، كما عاين وقوع البلاد تحت الحماية الفرنسية، وما واكبه من صراع ومقاومة، وردود فعل. وتباينت مواقفه من الفرنسيين حسب الأحداث التي مرت بالبلاد، فقد بارك حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، وعمل في دروسه على التوعية بخطر الاستعمار ومساوئه، ولكنه أيضاً دعا المغاربة إلى المشاركة إلى جانب فرنسا في الحرب العالمية الثانية. وكان جريئاً في العديد من مواقفه، ومنها على سبيل المثال معارضته للظهير "البربري"

وما تلتها من أحداث، ورفضه إيقاف المحاضرات التي كان علال الفاسي يلقيها في القرويين. وعندما تعرض الوطنيون للقمع على إثر تقديمهم لعريضة الاستقلال، قدم استقالته من وزارة العدل، وتعرض بذلك للنفي إلى القصاي ثم مدغرة. وبعد عودته إلى فاس سنة 1946 لم يتوقف عن التدريس بالقرويين، وساند الحركة الوطنية صراحة، فتضايقت الحماية الفرنسية منه ووضعت تحت الإقامة الجبرية باموزار كندر، ثم في بيته بفاس. وكان من المؤيدين لمحمد الخامس في صراعه مع المقيم جوان، ورفض بيعه ابن عرفة، فتعرض من جديد للنفي إلى تيزنيت.

بعد الاستقلال نجده مرة أخرى وزيرا للتاج، ولكنه استقال من منصبه في سنة 1960 بسبب ميوله لحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية المنفصل عن حزب الاستقلال، وكان له موقف واضح من دستور سنة 1962، حيث دعا إلى مقاطعة التصويت على الدستور في عدة مهرجانات خطابية.

كان الشيخ في حياته الخاصة مشهورا بالاستقامة والنزاهة، وبثورته على الظلم والجمود والتقاليد البالية، فقد تحدى العادة التي كانت تقتضي أن لا يتزوج الشريف إلا من شريفة، وتزوج امرأة لا تنتمي إلى فئة الشرفاء، ورفض تلقيه بمولاي، والتقليد الذي يقتضي لبس الكسا والسلهام من الأعيان وخدم المخزن، وسمح لابنته الصغرى بارتداء الزي العصري ونبد اللثام، وكان يحث طلبته في القرويين على تعلم اللغات، وخاصة الفرنسية، ولم يكن له موقف سلبي من ارتداء اللباس الأوربي والتدخين ولعب الورق.

هذه السيرة المقتضية¹، تدل على شخصية فريدة ومتميزة، كان لها تأثير عميق على الحياة السياسية والثقافية لبلدنا خلال عقود من الزمن، وعلى زعماء الحركة الوطنية في خضم صراعهم مع المستعمر الفرنسي، وبعد أن حصل المغرب على استقلاله.

وقد وقع اختيار مركز محمد بن سعيد آيت إيدر على شيخ الإسلام سيدي محمد بن العربي العلوي، ليكون موضوع هذه الندوة العلمية للأسباب السالفة الذكر، ولأنه لم يحظ بدراسات وعناية تليق بمكانته التاريخية والعلمية، وأيضا لأنه يمثل صورة عالم متنور، أعطى لمفهوم السلفية مفهوما متحررا ومنفتحا

¹ - اقتبسنا معظم هذه السيرة المقتضية من معلمة المغرب، العدد 18، الصفحة 6164، من إعداد الأستاذة ثريا برادة.

على مستجدات الحياة، ودعا للتيسير وتعلم العلوم العصرية والانخراط في روح العصر بدون تشدد ولا انغلاق، وحرص في عمله وحياته الخاصة وعلاقاته بالناس على أن يدعو إلى التيسير والتسامح ونبذ التشدد والمغالاة، وهي صفات ومزايا تفتقر إليها في الوقت الحالي الكثير من الجماعات التي تسمي نفسها بالتيارات السلفية.

ولئن كان الشيخ محمد بن العربي العلوي لم يخلف آثارا مكتوبة، فإن تراثه العلمي مشتمل في ثنايا الكتب من خلال تعليقاته وتفسيره على أمهات الكتب ومراسلاته وأقواله المأثورة والمحفوظة، وخطبه وسيرته وأخباره التي تداولها تلامذته ومعاصروه وأسرته، وكذلك اجتهاداته في مجال القضاء، وغيرها من الآثار التي يجب أن ينصرف إليها اهتمام الباحثين، لنفض الغبار عنها، ووضعها في مكانها الصحيح، خدمة للعلم ولمكانة هذا الرجل الاستثنائي، المتميز. وما هذه الندوة إلا غيض من فيض، ومحاولة متواضعة ضمن العديد من المحاولات التي سعت إلى تسليط الأضواء على جوانب من سيرة هذا الشيخ وتراثه، والأدوار التي قام بها في مراحل عصيبة من تاريخ المغرب.

تهدف هذه الندوة إذن إلى تسليط الضوء على الجوانب التي ميزت حياة هذا العالم، وأفكاره وسلوكه ودوره في التأثير على معاصريه، والتفاعل مع ما عاشه من أحداث وتقلبات سياسية واجتماعية وفكرية.

وقد ساهمت فيها نخبة من الباحثين الذين توزعت مداخلاتهم على أربع محاور، مسطرة في البرنامج وهي كما يلي:

- شهادات عن الشيخ محمد بلعربي العلوي من بعض معاصريه ومعارفه.

- جوانب من سيرة الشيخ ومواقفه

- علاقات الشيخ برموز السلفية في المغرب العربي

- مقاربات متنوعة للسلفية.

ويسرنا في ختام هذا التقديم أن نعبر عن شكرنا وتقديرنا لجميع من شارك في جمع مادة هذا الكلاب أو شارك فيه بإسهاماته القيمة، والشكر موصول لمن ساهم في دعم هذه الندوة وعلى رأسهم عائلة الشيخ محمد بلعربي العلوي

وفي مقدمتها ابنته السيدة الجليلة عائشة العلوي، وأحفاده محمد الطراب
وإدريس العلوي، الذين زودونا بالصور وقصاصات الجرائد من ألبوم العائلة، التي
وضعناها في الملحق وفي ثنايا هذا الكتاب، والزملاء في المركز الذين ساهموا في
تصوير شريط خاص عن الشيخ، وتلقي الشهادات الشفوية، وتخريجها، مما
ساعدنا كثيرا على إخراج هذا الكتاب في حلة لائقة.

المنسقون

شهادات

عائشة بن العربي العلوي

مولاي هاشم العلوي

محمد بن سعيد آيت يدر

محمد الحبيب سينا



شيخ الإسلام...المربي

شهادة ابنة شيخ الإسلام الفاضلة السيدة عائشة بلعربي العلوي

إعداد: عبد اللطيف اليوسفي
وأحمد حبشي

مدخل

طلب مني أن أقدم شهادة في حق والدي شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي فتدخلت عندي المشاعر التي تحسها بنت إزاء والدها وما تدين به له من تربية وثقافة ومكانة (وكل فتاة بأبيها معجبة)، نعم تدخلت لدي هذه المشاعر مع مشاعر المواطنة إزاء رمز نير من رموزنا العلمية والتاريخية والوطنية. بما لعبه الشيخ من أدوار رائدة وما اتسم به من شجاعة في كل محطة من محطات التحول الذي عرفه المغرب منذ الثلاثينات إلى أواسط الستينات من القرن الماضي، والمواقف الجريئة التي كانت لهذا الرمز الديني الكبير في العديد من القضايا، والانفتاح الملفت الذي كان يميزه وهو أحد الوجوه البارزة للفكر السلفي المستنير الذي أخذه وتعلمه عن أستاذه أبي شعيب الدكالي وأعطاه بدوره وبسخاء لرموز كثيرة من الحركة الوطنية المغربية. وسأشير في هذه الشهادة المقتضبة إلى بعض من مميزات شيخ الإسلام.

أولاً: الشيخ في مقدمة مناصري تعليم المرأة المغربية

من المميزات الأساسية التي لا بد من ذكرها عند استعراض خصائص الشيخ محمد بلعربي العلوي أنه يُعتبر أول مدافع -وبقوة لا تليّن- عن تعليم المرأة المغربية منذ نهاية الثلاثينات إلى حين وفاته سنة 1964. ومن الدلائل

الكثيرة على ذلك أنه في 1940 -والاستعمار مايزال جاثما على مغربنا- كان له فضل المبادرة الأولى في فتح باب التعليم أمام الفتاة المغربية، عندما طرح على الملك الشاب آنذاك محمد بن يوسف أن يولي تعليم المرأة العناية القصوى. وذلك عندما تساءل معه الملك: "كيف يمكن أن نعجل بخروج المستعمر الفرنسي وأن نستعجل استقلال المغرب؟" فقال الشيخ: "إن استقلال المغرب أمر حتمي، وهو آت لا ريب فيه. لأنه لا يمكن أن يدوم الاستعمار في أي بلد حر يتوق إلى الاستقلال. ولكن سيكون هذا الاستقلال ناقصا وعليلًا بجهل المرأة التي هي عماد تربية الأجيال. والحل يكمن في ضرورة تعليم المرأة وهو أمر مستعجل." فاقترح الملك على الشيخ أن نبداً ببناته وأن أدخل القصر لألتحق سنة 1940 بالقسم الذي كانت تدرس فيه الأميرتان عائشة ومليكة وكانت معنا لبابة العلوي (زوجة المعطي بوعبيد لاحقا) . وبدأنا التدريس المنظم نحن الأربعة داخل جناح من القصر الملكي ثم توسعت الدائرة والتحقت أخريات. علما أن الفرنسيين كانوا قد اعتمدوا مدارس أبناء الأعيان.

وعندما سأل الملك محمد بن يوسف شيخ الإسلام "كيف نعمل لتعليم الفتاة في ربوع المغرب؟" اقترح الشيخ أن يُطلب من الأحزاب السياسية أن تُنظم لقاءات نسائية وأن تنتقل الأميرة عائشة وهي في سن 14 أو 15 سنة إلى مدن مختلفة وتخطب في التجمعات النسائية داعية إلى ضرورة تعليم الفتاة وضرورة دخولها المدرسة كبوابة للعلم وللتطور. وفعلًا بدأت الأحزاب تفتح المدارس الحرة في وجه الفتاة. وأول مدرسة احتضنت الفتاة المغربية هي مدرسة بنعبد الله بفاس وستليها مدارس أخرى في مراكش وتطوان والرباط وغيرها. واقترح الشيخ أن تُدشن الأميرة عائشة هذه المدرسة وأن تقدم خطابا خلال الافتتاح وسيكون هو مرافقا لها ليجيب عن أي سؤال ديني في الموضوع. وفعلًا جاءت الأميرة مرفوقة بمربيته الفرنسية ودخل معهما الشيخ محمد بلعربي العلوي. وهو ما يبرز تفتحه على ثقافة الآخر وحضارته (رغم معارضته لوجود المستعمر)، وفي نفس الآن استعداده الكامل للدفاع عن تعليم المرأة في وجه كل متحجر أو متعصب باسم الدين. ومن أمثلة هذه المميزات أن الفقيه كان وزير التاج بعد الاستقلال يسكن الرباط وحدث أن زارني في بيتي بمكناس وسألني بتلقائية: "ماذا تفعلين في الحياة؟" قلت "أهتم ببيتي وزوجي وأسرتي". فقال لي: "هل تعلمين يا ابنتي أن بلادك في حاجة إليك؟ فمن العيب أن تتعلمي وأن تتثقي وأن تتكوني

وتبقي في بيتك دون أن يستفيد منك وطنك. " وهذه دعوة صريحة من شيخ الإسلام لعمل المرأة إذ كان يقول: "إن المغرب في حاجة إلى نسائه ورجاله على السواء". وقد سألته وماذا أفعل؟ قال الشيخ: "اذهبي إلى أقرب دوار من سكانك وإلى أقرب قرية وقومي بواجبك في محاربة الأمية وتدريس الناس وستقدمين بذلك لوطنك أحسن خدمة". ثم التفت إلى زوجي وقال له: "في دولة أخرى متقدمة حسمت كل مشاكلها كنت سأقول لعائشة لا بأس إذا اخترت أن تبقي في بيتك، ولكن في وطن كوطننا خارج من الاستعمار وشرع بيني أسسه الجديدة لا يمكن للمرأة أن تبقى بعيدة عن المساهمة في البناء لابد لها أن تسهم في هذا البناء بالتدريس والتعليم والمهن الملائمة لها". وكان هذا هو السبب في أن أدخل العمل كمدربة بالشبيبة والرياضة وأن أساهم بقوة ونشاط في بناء الأندية النسوية الأولى في المغرب المستقل. وأذكر أنني وأنا موظفة في الشبيبة والرياضة قمت بحملات في عدة مناطق. وكان من أهمها حملة في تافيلالت حيث استقبلت فيها استقبالا جيدا وكان الإقبال على محاربة الأمية قويا باعتباري ابنة الفقيه، وقد مرت هذه الحملة في شروط جيدة وكانت لها نتائج مشجعة وبشكل ملفت. ونفس الشيء عندما ذهبت إلى منطقة الريف حيث كان الإقبال قويا، لأن الناس يعرفون جيدا مكانة الفقيه بلعربي العلوي عند الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي. وقد كان العمل في المغرب الجديد قويا لعبت فيه الحركة الوطنية دورا مهما كما لعبت الإدارات دورا أساسيا، إيماننا من الجميع بالأمل في بناء مغرب جديد وحديث ومتعلم وقادر على رفع التحديات. ولو استمر عملنا بتلك الوتيرة وبذلك الحماس لكانت مسألة الأمية محسومة ومحاربة بشكل كلي عندنا، ولكانت المرأة في قرانا بعيدة كل البعد عن أوضاعها الحالية.

وهكذا كان والدي مستعدا منذ البداية للدفاع المستميت عن تعليم الفتاة المغربية معتبرا إياه مخرجا من الجهل ومدخلا إلى التحديث والتقدم والعلم، بل إنه اعتبر العلم هو عماد الاستقلال الحق معتمدا في ذلك على سلوك الرسول وأقواله وما عُرِف عن نسائه. ومن ذلك أن الرسول كان يقول (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء "أي زوجته عائشة"). ولم يكن والدي يقف في هذا الموضوع وغيره عند التصريح برأيه والدفاع عنه وإنما كان يشفع الرأي بالعمل ويربط النظرية بالممارسة العملية. ويجب التأكيد أن الشيخ لم يكن

يدافع عن تعليم المرأة لتبقى في بيتها بقدر ما كان يراه سبيلا ضروريا لمساهمتها في بناء مغرب الاستقلال: المغرب المفتوح على العصر.

ثانيا: الشيخ السلفي المستنير المفتوح

من المميزات الأساسية للشيخ محمد بلعربي العلوي أنه كان متفتحا في قناعاته وسلوكه وتصرفاته، بعيدا كل البعد عن التعصب والتشنج والتكفير باسم الدين. لقد كان والدي هادئا في نقاشاته متفتحا مستنيرا في آرائه لأنه كان واثقا أن الحق معه، وأنه يدافع عن الفكر الوسطي الذي يميز السلفية المتنورة التي لها خصوصيات مميزة في المغرب، وهي المدرسة التي قعدها وطورها شيوخ أفذاذ - لا يذكرهم الناس كثيرا - وفي مقدمتهم العالم المربي الكبير أبو شعيب الدكالي، العالم الفذ الذي كان له الفضل الكبير في تعليم ورعاية العديد من الرموز الوطنية وخاصة في مجال التعليم الديني. وهو صاحب السمعة الواسعة في المغرب وغيره من بلاد المشرق العربي. وقد كان هذا العالم أستاذا والدي ومعلمه وقدوته بدون منازع. إذ كان يراعاه بشكل دقيق بعدما فطن له. وعندما كان الطالب محمد بلعربي العلوي يدلي برأي قوي كان أبو شعيب الدكالي يقول له: "اسكت يا بلعربي" فيسأله الطالب ولماذا أسكت؟ فيجيب أبو شعيب: "لأن رأيك فات وقته أو جاء سابقا لزمانه لم يحن وقته بعد". ومعلوم أن هذه المجموعة من العلماء أرسلت دعائم سلفية مغربية مستنيرة ومتفتحة بالقياس لما كانت عليه سلفية المشرق العربي. إضافة إلى انفتاح المغاربة الواسع والكبير على ما كان يجري في محيطهم المغاربي حيث نسجوا علاقات قوية مع علماء الزيتونة في تونس وجمعية العلماء المسلمين بالجزائر كابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي، وما ينشر على صفحات البصائر، كما انفتحوا على رموز الإصلاح في المشرق وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ورفاعة الطهطاوي وقاسم أمين وشكيب أرسلان. غير أن المغاربة تميز أغلبهم بالانفتاح والتفتح ومنهم الشيخ بلعربي الذي كان سلفيا متنورا بقدر عال وقوي يقتنع بذلك ويمارسه بالفعل. والأمثلة على هذه الخصوصية كثيرة، أذكر منها أن الملك محمد بن يوسف كان قد اعتمد مربية فرنسية لبناته، وهو أمر كان معروفا داخل القصر، غير أن الشيخ-وهو الرمز الديني- لم يكن يرى في ذلك غضاظة، ولم

يكن يرى فيه مخافة من تشويه السمعة أو تشويه تربية الأميرات. بل إنه كان يرى في ذلك نهجا للتفتح وطريقا للعلم وسيلا إلى الانفتاح على ثقافة الآخر دون التخلي عن الأصول وعن القناعة الدينية الإسلامية السمحة. ومن أمثلة هذا التفتح أيضا أنه كان حين يُسأل عن الحجاب أي اللثام والنقاب فإنه كان يجيب بقولته المشهورة "حجاب المرأة تعليمها وعفتها" علما أنه لم يكن هناك نقاش إطلاقا في مسألة تغطية شعر الرأس بخرقه "أو شال". ولكن النقاب أو اللثام كان حولهما رأي ورأي مخالف. والشيخ كان صريحا في معارضة النقاب معتبرا أن التعليم والعفة هما الحجاب الحقيقي الواقعي لعرض المرأة. ففي حفل افتتاح مدرسة بنعبد الله للفتيات في فاس، دخل شيخ الإسلام مع الأميرة عائشة ومربيتها الفرنسية وهي تغطي رأسها بشكل خفيف وأنيق، ووجوده معها إنما هو لتعزيدها ودعمها باعتباره كان ميزان العلم الرصين وحضوره إنما كان ليقول "أنا متفق مع ما تقوله هذه الأميرة الشابة ولست معترضا على مضمون الخطاب وشكل اللباس"، فهو إذن كان مع تغطية الرأس لأنه لم يكن سؤال تعرية الشعر مطروحا أبدا. وإذا كان الفقيه يعتبر العلم أكبر حجاب، والعفة أهم حجاب يقي المرأة ويصونها فإن بعض الناس أولوا قوله بشكل غير صحيح لأن تغطية الرأس لم تكن محل جدال بل كانت عادية ولا بد منها . والمقصود بالحجاب هنا اللثام المعروف الذي تركز حوله النقاش واختلف الناس حوله، وهو ما قصد بقوله "حجاب المرأة تعليمها وعفتها". إذن فالشيخ كان ضد التزمت وضد تحريف الدين وضد التعصب. بل إن من أمثلة هذا الانفتاح أنني دخلت مرة عليه وأنا ألبس لباسا عصريا (صاية فرنسية) فعلق والدي "انظروا ابنتي بدأت تقلد الفرنسيين ولكن دابا ترجع"، كما أنني قمت ذات مرة بإنقاذ رجل كان يغرق وسبحت وأنقذته، فاحتج زوجي على هذا السلوك لدى والدتي التي أخبرت الفقيه واحتجت بقوة لديه وطلبت منه أن ينهاني عن مثل هذا الفعل فسألها الشيخ ببرودة "أتريدينها أن تتركه يموت؟"، وهنا لابد من الانتباه إلى أنه لم يستنكر العوم والاستحمام، ولم يستنكر لوازم العوم ، وإنما ذهب إلى العمق الذي هو إنقاذ النفس البشرية من الهلاك، وتشجيع المرأة لتكون متفتحة وقوية طبعا بالعفة والعلم.

إن عقل الشيخ وسلوكه وتربيته كلها كانت متفتحة وكلها كانت مستنيرة بقواعد الإسلام الرحيم، الإسلام الوسطي، الإسلام المعتدل، الإسلام المنفتح

والمتفتح على الآخر المؤمن بالتراحم بين بني البشر. إنه الإسلام السمح الذي كان يتبناه الشيخ ويدعو إليه وكان يمارسه في حياته وعلاقاته بتفتح كبير دون أن يكون في ذلك تسامح مع المستعمر ومع الظلم ومع الاعتداء على الحق والحقوق. وكان مثاله في ذلك الرسول الكريم الذي كان يحاور المختلفين معه بل كان يحاور المشركين أنفسهم ويقنع الكفار ليدخلوا الدين آمنين. وقد مارس الشيخ هذه القناعة بقوة في العديد من محطات حياته وفي العديد من المواقف.

ثالثا: الشيخ المدافع عن الانفتاح الثقافي والتعدد اللغوي

إن الذين عاشوا شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي أو عرفوه عن قرب يدركون بدون عناء أنه كان مع تعزيز اللغة العربية لغة القرآن، وتمكينها من الانتشار بالشكل الجيد والمتطور. ولكنه في نفس الآن كان يدعو -بدون هوادة وبدون أدنى تردد- إلى الانفتاح على اللغات الأجنبية. لأنها أدوات الانفتاح وطرق الغنى الثقافي، ولأنها السبيل الوحيد للاطلاع على العلوم المتطورة، ولأنها النهج الذي يمكننا من التواصل مع الآخرين، بل إن معرفة اللغة الأجنبية هي التي تمكننا من معرفة حتى عدونا. لذلك كان الشيخ يقول إن الذي لا يعرف إلا لغة واحدة يعتبر بمثابة الجاهل، وهو ما أعاده المرحوم الحسن الثاني في إحدى أقواله. ومن أمثلة ذلك أننا في المدرسة المولوية منذ الأربعينيات لم نكن ندخل الدرس الفرنسي إلا بعد قضاء ساعة كل صباح في دراسة اللغة العربية منطلقين من القرآن الكريم على يد الفقيه أقصبي والفقيه الركراكي ودروس اللغة مع باحيني، ثم ننطلق في الدرس الفرنسي ودروس أخرى. ولمزيد من التفتح فكر محمد الخامس في تعليمنا اللغة الإنجليزية منذ "سنة 1940" في وقت لم يكن فيه أحد يدرسها. وعلمنا أن ننتبه إلى أن الفقيه بلعربي العلوي لم يكن أبدا ضد هذا الانفتاح الثقافي بل كان حفيا به يدعو له بقوله: "تعلموا ثقافة مفكري النهضة الأوروبية: فولتير، وديدرو و مونتيسكيو و روسو فإنها ستغني ثقافتكم العربية، نعم تعلموا من فولتير كيف تحررون وطنكم وبلادكم." إذن فالتفتح اللغوي كان هما أساسيا وبشكل مبكر عند محمد الخامس من جهة وعند الفقيه من جهة ثانية. والسيادة كانت أولا للغة العربية. وقد عشت هذا شخصا ما بين سنتي 1940 و1952.

ومن رسائل الشيخ بلعربي في ضرورة الانفتاح على الثقافة الفرنسية - خصوصا - أنه كان يقول "نأخذ من فرنسا ما يلائمنا ويغني ثقافتنا ونعارض استعمارها، فنحن نحارب سياسة فرنسا الاستعمارية ونحارب وجودها الاستعماري والعسكري ونريد خروجها وجلاءها، أما ثقافتها فمرحبا بها. لأنها طريق من طرق التقدم إلى جانب الثقافة العربية الإسلامية".

وقد كان دفاعه عن اللغة العربية واضحا، بل إنه دفاع مستميت. بحيث إنه لما سمع وهو قاض بفاس الجديد أن الجنرال ليوطي سيقم مؤسسات لتعليم أبناء المغاربة اللغة الفرنسية خصوصا. وأن العملية ستنتقل من مؤسسة مولاي إدريس بفاس، على أن يدرس فيه هؤلاء التلاميذ اللغة العربية في مدارسها العتيقة مثل القرويين. وذلك حتى يفصلوا العربية عن التعليم الحديث وتكون الهيمنة فيه للفرنسية فقط. فاقترح الشيخ أن يقوم بنفسه بتدريس اللغة العربية في المدرسة الجديدة كوليج مولاي إدريس بفاس، شريطة أن يكون ذلك بدون مقابل. إذ تطوع لهذه المهمة بالمجان وهو قاض بفاس. وكانت له في ذلك أهداف أساسية تتمثل في: إدخال اللغة العربية إلى مجال التعليم الحديث ندا للند مع الفرنسية، وأن يقدم بنفسه النموذج في التضحية من أجل لغة الوطن ولغة القرآن، واستطاع من جهة أخرى أن يجمع عليه بهذه المهمة ثلة بارزة من الوطنيين الذين كانوا من تلاميذه.

وهكذا فنحن لم نكن نربي من طرف الشيخ أبدا على الانكفاء على أنفسنا وعلى التعصب وعلى الانغلاق. بل كنا نربي على الإسلام والثقافة العربية وأيضا على الثقافة المفتوحة في اتجاه الفرنسية بل وحتى دروس الإنجليزية في وقت مبكر، ويرجع الفضل في هذا التوجيه لاستعداد الملك محمد بن يوسف وتفتح ولده الشيخ وتشجيعه.

خلاصته الأساسية إقرأوا اللغات واعتزوا بلغتكم ودينكم. لقد كان الشيخ واعيا تمام الوعي بسلاح الثقافة المتعددة الروافد وبقوة الانفتاح اللغوي. وأعتقد أن إحدى مميزات المغرب الحديث هو هذا التفتح على ثقافات الآخرين ولغاتهم وحضاراتهم مع التشبث بالنافع والمشرق من حضارتنا وثقافتنا.

رابعاً: الشيخ المدافع عن الحق المنحاز للحقيقة

لقد كان معروفاً عن الشيخ أنه كان منحازاً دوماً إلى الحق وأصحابه ولو أدى به ذلك إلى مجابهة ذوي الأمر، فاستقالته مرتين من موقع وزير العدل في الحكومة السلطانية أيام فرنسا ووزير التاج بعد الاستقلال بسبب ما اعتبره شططا من السلطة في حق الوطنيين. وأذكر هنا أنه عارض بقوة نفي الملك الشرعي محمد بن يوسف ورفض رفضاً باتاً أن يوقع أية وثيقة تبرر ذاك النفي، ومنه أنه رفض بشكل قاطع التوقيع على وثيقة مبايعة ابن عرفة، بل إن المستعمر طالب الشيخ بفتوى دينية وقانونية لتولية بنعرفة بشكل شرعي، فأفتى بعدم شرعيته وعدم جواز القبول به. مما دفع بنعرفة إلى إصدار قرار بنفيه إلى تافيلالت التي كانت لحظتها تشكو من وباء التفوييد. وأنا أذكر أن الجند دقوا باب بيتنا ليلاً لاعتقال الوالد، وكنت أنا وأخي مولاي مصطفى، فأخبرناه بالأمر فتقبله بصدر رحب وكان قد أعد حقيبتيه من قبل (شائطة) وعندما طلبت منه أن أرافقه ولو إلى باب المنزل، اشترط علي عدم البكاء أمامهم. وقد رافقهم بصدر رحب وهو يقول: " واش أنا شمعة غادي نذوب ليهم".

وهكذا تحمل الشيخ مرارا التضييق بل والسجن والإقصاء والإبعاد في سبيل الحق. والدفاع عما يراه صواباً، مما اكسبه احترام الجميع، وهو ما يتضح جلياً من رسالة محمد بنعبد الكريم الخطابي حيث اعتبره رمزا وطنياً من رموز قيادة التحرر والاعتناق. كما يظهر ذلك في موقفه المنحاز إلى الحركة الاتحادية الوطنية، ورئاسته الشرفية للمؤتمر الوطني الثاني للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، الذي لم يكن ينتمي إليه عضواً ولكنه تعهده ودعّمه في الكثير من المحطات مما أثار عليه حنق السلطة وحنق بعض رموز حزب الاستقلال. وقد كان دعمه القوي للإتحاد مساندة لا مشروطة للوطنيين النزهاء المظلومين. لأنه رأى معه الحق سواء في مرحلة التأسيس وكلمته في هذا المؤتمر التي دعا فيها إلى الاتحاد، ولا شك أنه كان يقصد اتحاد القوة وتجميعها، إذ في الاتحاد قوة للنيات الحسنة ضد معسكر التجاوزات مهما كان. ولذلك نجده ينخرط في حملة مقاطعة الدستور الذي اعتبره ممنوحاً. وقد كان هذا الموقف واضحاً وصريحاً في زمن لم يكن الوضع سهلاً وعلى بعد سنتين من وفاة الشيخ.

لقد كان الشيخ محمد بلعربي العلوي يستمد تجاربه ومواقفه من الأمثلة التاريخية الرائدة في مجال الوقوف إلى جانب الحق واللائحة طويلة لهذه الرموز، وقد كان يحترم في هذا المجال غاندي كثيرا ولكنه لم يكن متفقا معه في برودته المبالغ فيها في التعامل مع الاستعمار الإنجليزي، خاصة عندما كان يقول غاندي: "إذا صفحك العدو على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر" وبعكس هذا الموقف كان الشيخ يرى أن المستعمر لا يطول أبدا خدي ولا يستطيع أن يصله، فإذا حدث أن وصل العدو المستعمر خدي الأيمن فسيقع الكثير وسيكون رد الفعل قويا.

لقد كان الشيخ منحاذا على الدوام إلى الشعوب والفئات المظلومة ولذلك ساند مطالب الحركة الوطنية الجزائرية وربط علاقات متينة مع جمعية علماء المسلمين وعلى رأسها ابن باديس والبشير الإبراهيمي، كما ساند بقوة المقاومة الفلسطينية بل إنه راسل الزعيم عز الدين القسام في شأن انضمامه إلى المقاومة الفلسطينية.

والأمثلة كثيرة ومتنوعة ومتعددة في حياة شيخ الإسلام عن انحيازه الكامل للمظلومين وأصحاب الحقوق ومساندته لهم حتى ولو أدى ذلك إلى سجنه وإبعاده أو نفيه أو التضييق عليه

خامسا: الشيخ بلعربي العلوي الأب الحنون والمربي العطوف

أما عن الزاوية الأسرية فإن ما يمكن أن أقوله كثير، لأن كل لحظة من اللحظات عشناها مع الوالد كانت درسا عميقا، ذلك أنه كان الأب العطوف لثلاثة بنات وثلاثة أولاد لم يفرق بينهم أبدا، إذ كان عطفه شجرة وارفة تشمل بظلها الوطن وضمه الأسرة. وكان في مجال علاقاته الخاصة ثوريا حقيقيا، إذ أنه تجرأ على أن يتزوج والدتي من خارج الأسرة العلوية وهي مطلقة، وهي مسألة في غاية الغرابة بالنسبة لعلوي مرتبط بالأصول، واستنكرت كل العائلة عمله، لكنه تشبث باختياره واحتضن زوجته بالرعاية والحب الشامل كما احتضن أبناءها بالعطف والحنان رغم كل مسؤولياته إذ كان يسهر شخصا على تربيته في جو لا مكان فيه للترهيب والعنف، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة، فأنا أذكر أنه كلما بلغ إلى علمه من بعض الواشين أمر، لا يثور لهذا الأمر ولا ينفع،

بل يعالج الوضع بحكمة عالية وتبصر وروية وذكاء خارق، وغالبا ما كان يترك لنا بهذا السلوك هامش الاختيار، أي أنه يدعنا للحسم في أمورنا من غير أن يتجاوز الإشارة إلى ذلك في أمر وصله ولم يتأكد منه بنفسه. وقد كانت هذه عاداته عندما يسعى إلى تنبيهنا إلى أمر يريد منا أن نعيد النظر فيه. متجنباً دائماً الأسلوب المباشر المحرج. وقد كان في كل ذلك ذكياً جداً يكتفي بالإشارة.

كان الوالد يظهر ما يخفيه الناس، فتصوروا أن شيخنا كان يحتفي بزوجه ويرفع من شأنها أمام الناس، وهو رمز الدين والتقاليد. كما أنه لم يكن يجد حرجاً في أن يلعب لعبة الورق مع أصدقائه أماماً في أوقات راحته القليلة، لأنه لم يكن يرى في ذلك ما يضر بالناس أو المجتمع كما كان متفتحا على الأطفال يلاطفهم ويرتاح بينهم ويسأل عنهم بل ويعلمهم تقاليد الحياة، ومن ذلك أنني احتفظ بصورة لوالدي وهو يعلم ابني مصطفى التراب كيف يشرب الشاي وهو طفل بين يديه. كما أنني أسجل أن والدي كان متتبعا لأحوالنا، فقد وصله يوما أنني أصبت بمرض التيفويد، وقد وصلته برقية بهذا الشأن، ولم يكن أخي مولاي مصطفى قريبا منه، فأخذ معجم اللغة الفرنسية ليفك رموز التلغراف متلهفا لمعرفة وضعيتي الصحية ويطمئن على أحوالي، ولم يكن هذا المثال معزولا عن حنانه وعطفه الكبير الذي كان يحظى به كل أخوتي وإخوتي بدون تمييز بين كبير أو صغير ذكر أو أنثى .

ويمكنني من هذه الزاوية أن أسجل هذا النوع من التوازن في شخصية شيخ الإسلام، الذي استطاع من خلاله أن يربط بين المسؤولية في الدولة والرمزية الدينية، التي كان من خلالها يقدم للناس النصح والتربية والشرح والتأويل، وفي نفس الآن يعتني بأسرته وزوجته عناية دقيقة، ويتتبع الأحوال يتتبعنا في كل تفاصيل حياتنا.

إن درس التوازن هو الدرس الأساسي في هذه الشخصية، وإن كنت فخورة في حياتي بشيء، فإني لجد فخورة بأن كنت ابنة هذا الرجل وسليلته، حيث ترعرعت وشربت من منابع تربيته القائمة على الاعتدال والسلوك القويم .

خاتمة

لقد حاولت في هذه الشهادة أن أكثف ما لا يقبل الإختزال والتكثيف، فشخصية هذا الرجل كانت وستبقى شخصية فذة قوية وبارزة في تاريخ المغرب الحديث من مختلف المواقع التي تحمل فيها المسؤولية. حيث اختار لنفسه أن

يعمل من داخل مراكز القرار ومن خارجها ولم يقطع صلاته بما كان يهور في مجتمعه وما كان يتفاعل في محيطه المغاربي والعربي والإسلامي. منفتحا على المستجدات مبادرا بقوة في اتجاه التأويل المتفتح للدين الوسطي، الدين الذي بني على التآخي بين بني البشر، فكانت سلفيته المستنيرة تحاور وتجادل بالتي هي أحسن. وما أحوجنا اليوم إلى أمثال هذا الرجل العالم المتفتح، الذي لا يخاف في الحق لومة لائم. يناصر المظلوم مهما كلفه ذلك من ثمن، ويبادر بذكاء نافذ إلى اقتراح وتبني ومساندة الحلول البعيدة النتائج. رابطا بشكل قوي ودائم بين النظرية والممارسة. هدفه الأسمى درء المخاطر وجلب المنافع العامة.

والخلاصة أن هذا غيض من فيض حاولت من خلاله أن اختار لكم بعضا من مميزات هذه الشخصية الوطنية الفذة التي تركت بصمات بارزة في مجالات عدة قرن فيها الشيخ النظرية بالممارسة والقول بالفعل. لم يقف أبدا عند أضعف الإيمان. وإنما كان واضح المواقف والسلوك إذا اقتنع بأمر سار فيه إلى مداه.

رحم الله شيخ الاسلام وجازاه عما قدمه لوطنه ومجتمعه.

العلامة الشريف محمد بن العربي العلوي المدغري

شيخ التنوير (1884-1964م).

مولاي هاشم العلوي

عاش الفقيه محمد بن العربي العلوي المدغري في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين، وقد اهتم به رجال الإعلام على مستوى الصحافة، ولكن لم ينصفوه تحليلاً وتحقيقاً وبحثاً علمياً بحيث درسوه دراسة سطحية من الناحية الإعلامية، ولم يتناولوه في أعماله وحقيقة شأنه تأثيراً وتأثيراً.

وإننا نشكر مركز الدراسات والأبحاث للمجاهد محمد بن سعيد آيت يدر والباحثين الساهرين على الجهود العلمية بهذا المركز، فهم الذين طالبوني بتقديم هذه المداخل المتواضعة إلى إخواني الباحثين والأساتذة في المكتبة الوطنية العامة في الرباط. وقد بنيت آرائي الواردة هنا على ما أمكنني الاتصال به من وثائق داخلية ومعرفة خاصة متصلة بالأقارب وبأهل بيته رحمه الله وأكرم مثواه.

كان محمد بن العربي العلوي شيخاً لعلماء المغرب من حيث دعمه للحركة الوطنية السياسية وتشجيعه لرجال الدولة في أعمالهم الإصلاحية، بالإضافة إلى ضبط قنوات العمل السياسي الذي يُنتج دولة إسلامية متنورة تتبنى الوسطية والاعتدال والإصلاح الاجتماعي والمعرفي، فكان رمزا للشيوخ العلماء المتنورين المصلحين البنائين لدولة المغرب العصري الحديث.

ولد الشيخ محمد بن العربي العلوي على ما هو معتمد عند الأهالي الذين يعرفون الأسرة ويتصلون بها ويخدمونها في 7 ذي الحجة من سنة 1301 أو 1302 هـ / 1884م، على ضفاف الحوض الأوسط لوائي زيز، وقد تربى تربية دينية متفتحة داخل مدغرة حيث قضى فيها طفولته وحفظ القرآن الكريم في جامع القصر الجديد¹ وباقي القصور التي كانت منارات للعلم والتعليم وحفظ القرآن وتدرّس العلوم الدينية والروحية في بداية الطريق المفضية إلى واحة تافيلالت-سجلماسة التي لا تبعد عنها بأكثر من 90 كلم جنوبا.

وقد ارتوى الفقيه محمد بن العربي العلوي ومثله من فقهاء وأشراف مدغرة، وكان من بين العلماء رجالاً من أسرته انتقلوا إلى فاس وسكنوها والتحقوا بكراسي العلم بجامع القرويين، ومنهم قاضي فاس مولاي محمد أحد أقارب الفقيه محمد بن العربي، فهو الذي احتضنه وقربه إلى القصر الملكي بفاس أيام الفترة الأولى من بداية القرن العشرين.

استقر محمد بن العربي العلوي بمدرسة الصفارين لينهل من المعارف التي كانت تدرس بجامع القرويين؛ ومن الشيوخ الذين تعلم على أيديهم: الفقيه عبد السلام بناني، ومحمد بناني، والتهامي كنون، ومن الشهادات الواردة في حقه ما دونته مقيدات العلماء ثناء شيخه سيدي أحمد بن الخياط على نبوغه العلمي وتفوقه الدراسي. ونذكر كذلك من الشيوخ الذين أخذ عنهم: العلامة أبو شعيب الدكالي بعد عودته من المشرق.

لازم الشيخ محمد بن العربي أبا شعيب الدكالي ووصلته عن طريقه منابع النهضة المشرقية كمجلة "العروة الوثقى" التي كانت تتضمن آراء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وأخذ ينشر مبادئ الفكر الديني النهضوي الجديد

1- ظل القصر الجديد مركزا علميا يعيش فيه الأشراف بعض من أقارب وعائلة مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي المتوفى سنة 1042 هـ / 1632م والمدفون بمقبرة قصر أولاد الحاج قريبا من القصر الجديد. انظر في شأن التعريف بمدغرة ومولاي عبد الله بن علي بن طاهر ما كتبه مولاي هاشم العلوي القاسمي، في تحقيقه لكتاب التقاط الدرر لمحمد بن الطيب القادري، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982، الترجمة رقم 166، ص 97-102.

ويصر على نشره بين علماء المغرب والمجتمع الذي كان آنذاك يصارع الاستعمار الأوروبي في المغرب.

وروي أن أباه مولاي العربي الذي كان يراقبه ويرعاه في فاس ليطمئن على مساره المعرفي والعلمي، قد وجد فيه عزما وتوسم فيه الانكباب على القراءة والتحصيل، فودعه مطمئنا عليه، حيث تركه وعاد هو إلى مدغرة، فبدأ بذلك نهوض محمد بن العربي، ولازمه الحظ في الاتصال برجال العلم والسياسة والقصر الملكي، وبذلك بدأ تطلعه إلى المستقبل ومرافقة رجال الأمة عالما ومربيا ومجاهدا.

وبعد وفاة الشيخ أبي شعيب الدكالي ورث الشيخ محمد بن العربي مكانته، فسار أحد أعلام النهضة المغربية الحديثة ناشرا الفكر السني المعتدل حيث كان يدعو إلى تعميم التعليم، وتعليم المرأة والتفتح على الآراء التنويرية في الغرب. وهكذا سار الفقيه محمد بن العربي من كبار رجال التحديث والتنوير في المغرب الحديث، ويكفي أن نذكر من تلامذته علال الفاسي ومحمد ابن الحسن الوزاني والشيخ محمد المختار السوسي حيث عاصره عندما كانا يعيشان في فاس بعد عقد الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912م.

وبغض النظر عن الجوانب السياسية في حياة الفقيه محمد بن العربي العلوي الحافلة، فإن شخصية العالم العامل قد طغت على إسهامه في نهضة الوطن، وإذا كنا اليوم نفتقد آثارا مكتوبة تدل على سعة علمه واطلاعه، فإن أصدقاء أحاديثه الإذاعية ومجالسه العلمية التي كان يعقدها داخل القصر الملكي وبمدين فاس وسلا والرباط والدار البيضاء ومدغرة والقصاي، حين كان منفيًا بها زمن الاستعمار، تعد خير شاهد على تبحره العلمي وحمله لمشروع تنويري حضاري ساهم في تنقية عقيدة المغاربة وإقامة الدين على أسس سليمة بعيدة عن التنطع والتصوف البدعي.

ومع ذلك، فإننا لا نعدم شواهد تشير إلى التوجه الذي كان يتبناه الشيخ في تعاطيه مع الواقع الاجتماعي المغربي، ويظهر ذلك من الرسائل التي كان قد وجهها لقاضي مدغرة مولاي المهدي بن هاشم العلوي، ومنها رسالة يسرني أن

أقدمها في هذه الشهادة لتضمنها صورة واضحة عن فكره وطريقة عمله. نص الرسالة:

" الحمد لله

الأخ الأمجد الفقيه العلامة الأوحد القاضي الأنزه الأعدل مولاي المهدي بن هاشم بن قاسم وعلى أخوتكم أتم سلام وأكملة وبعد فقد توصلت بكتابكم الأعز مع ما صلبه أصحابكم الله السلامة وكان لكم في الظعن والإقامة هذا وإنه ليسرني وأيم الله ما يبلغني عنكم من حسن السيرة والاستقامة مع إتقان العمل وخصوصا سيركم على مقتضى ضعف تلكم الناحية وعدم ارتكابكم التشديد والتنفير وقد قال عليه السلام يسروا وسددوا وقاربوا هذا وأحسن ما يهتدى به كتاب الله يقول تعالى إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى الخ وسلم منا على جميع الأهل والأولاد وسائر أبناء العم وكذا من جميع أنجالنا والمرجو منه تعالى حفظ الجميع بمنه وكرمه وعلى صادق الأخوة والسلام في 5 شوال عام 1353 هـ أخوكم محمد بن العربي العلوي وفقه الله".¹

حسن السيرة والاستقامة والتيسير والابتعاد عن التشديد؛ مفاتيح من خلالها يمكن النفاذ لفهم شخصية محمد بن العربي العلوي الذي استمر وفيا في الدفاع عنها إلى أن لقي ربه بنفس مطمئنة في 22 محرم سنة 1384 هـ / 4 يونيو 1964م.²

1- رسالة موجهة من محمد بن العربي إلى والدنا القاضي مولاي المهدي بن هاشم العلوي القاسمي بتاريخ 5 شوال 1353 هـ / 11 يناير 1935م، نسخة خاصة.

2- توفي الشيخ محمد بن العربي العلوي بفاس حيث كان يسكن بدرب الورد بطريق إيموزار، ونقل إلى مدغرة مسقط رأسه ليدفن بها بناء على وصيته، وووري بمقبرة سيدي محمد السيد بين القصيبة وزاوية تاويرت، وبهذه المقبرة التي صانتها ابنته الشريفة الفاضلة لاء عائشة العلوي المدغري، مما حمل أهل أسرته على دفن أقاربه إلى جانبه حيث دفنت بجانبه زوجته وولده المرحوم مولاي مصطفى العلوي المدغري وزير العدل سابقا وزوجته، فكان بذلك هذا المكان مدفنا لأسرة الفقيه الذي يسمى بالقصر الجديد.



الشيخ في حديث مع سيدة أجنبية

الشيخ يتبادل الحديث مع سيدة أوروبية

شهادة الأستاذ محمد بن سعيد آيت إيدر

إعداد: عبد الرحمن زكري

تطلبون مني شهادة في حق شيخ الإسلام، أستاذنا وأستاذ الأجيال محمد بلعربي العلوي. حسنا، ولكن دعوني أولا أقول بأنه في هذا المجال كما تعرفون، ثمة صعوبات جمة تعترض كل مسعى لإعطاء شهادة وافية سيما وأن الموضوع يتعلق بشخصية فذة واستثنائية مثل شيخ الإسلام. فهذه شخصية بدون ضفاف، غنية ومتعددة: فهو العالم والفقيه، وهو المربي والمعلم، وهو القاضي، وهو الداعية السلفي، وهو المناضل السياسي، وهو قبل هذا وبعد ذاك الإنسان. وهذه الكيمياءات المختلفة كلها قلما تجتمع وتتعايش تعايشا سلميّا، متوازنا ومثريا في الشخص الواحد. فهل هو شيء بديهي وبسيط مثلا أن يجتمع ويتعايش في الشيخ جنبا إلى جنب العالم مع الفقيه، أو القاضي مع المناضل السياسي، مع كل التوترات التي يفرضها منطق الأشياء بين أطراف هذه العلاقات، وعلمنا بأن الواحد منا في العادة قد لا ينجح في التوفيق أحيانا حتى بين واجبه الأسري وواجبه المهني، فما بالك إذا تعددت الأسر، كما كانت حال شيخ الإسلام، وامتدت من الأسرة الصغيرة البيولوجية إلى الأسرة الكبيرة الوطنية، فالأكبر، الإسلامية، وصولا إلى الأسرة الإنسانية، وما بالك إذا تعددت بدورها الواجبات، والتي كانت كلها عنده مهنية؟

جانب آخر من الصعوبة: عندما نحاول إعادة بناء بعدية لصورة موضوع تاريخي ما، سواء كان هذا الموضوع واقعة من الوقائع أو شخصية من الشخصيات، وسواء سواء كانت أدواتنا في ذلك شهادة شاهد مبنية على معرفته وذاكرته الشخصيتين، أو تحريا تاريخيا علميا لباحث مسنود بالعدة الكافية من

الوقائع والوثائق، فنحن نعرف الثغرات والحدود الموضوعية والذاتية التي تفرض علينا نفسها، وهي ثغرات وحدود لن يكفي ملء ثغراتها حتى اعتماد أدوات أخرى كالسيرة الذاتية، علما بأنه في حالتنا هذه لم يترك الشيخ سيرة ذاتية، وهذا في حد ذاته له دلالة يجب الكشف عنها، ويعطي لوحده في نظري أوضح عنوان عن حقيقة وقيمة معدن هذا الرجل.

إلى ذلك يمكن أن نضيف صعوبة ثالثة تتعلق بالكثير من تلك الروايات والشهادات ذات الصلة بتاريخ المغرب المعاصر، التي يُروج لها هنا وهناك، والتي تقدم أحيانا صورا مضخمة ومبالغا فيها عن الوقائع والأشخاص تصل حد نشر فبركات وادعاءات وشهادات زور، أو على العكس، تختزل وتقمز وتمسخ أو تسكت في سردها عن عدد من الحقائق الأخرى حيثما لا تجد سبيلا ولا تسعفها حيلة لمحوها أو إنكارها ببساطة.

كما يمكن أن نضيف أخيرا أنه حتى عندما تتوفر للسارد كل حسن النية وإرادة الحقيقة اللازمين، فإن "شيئا من حتى" سيبقى في نفسه دائما. شيء من عدم رضى كامل لجهة الإحاطة في التغطية والتي لن تكون أبدا شاملة بسبب ما ستركه حتما من فراغات وبياضات أو لجهة درجة العمق في نظرتنا للأشياء والتي لا تنجح دائما في النفاذ إلى ما هو جوهري وعميق فيما وراء المظاهر والكليشيهات والقوالب الجاهزة السطحية والاختزالية التي تتكرس بالتقليد والعادة والتكرار.

بناء على هذه الاحتياطات إذن، سأحاول في هذه الشهادة، أن أعيد رسم بعض معالم صورة شيخنا كما عرفته شخصيا معرفة مباشرة، وأيضا بالتوسط، من خلال ما تجمع لي من أخبار ومعلومات عبر العلاقات بأشخاص وبأوساط عديدة عرفها الشيخ وعرفته في إطار من الإطار، ومن تلك الأوساط وسط المقاومة وجيش التحرير ووسط حزب الاستقلال، ووسط الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. ما يلفت الانتباه أولا هو أن الشيخ الذي ازداد سنة 1880 عاش عهودا تعاقب فيها ستة ملوك، من الحسن الأول مروراً بعبد العزيز وعبد الحفيظ ويوسف ومحمد بن يوسف وانتهاء بالحسن الثاني. وهي عهود عاش فيها المغرب أوضاعا وتقلبات تماما كما عاش فيها الشيخ أوضاعا وتقلبات.

إبان ولادة الشيخ في أواخر القرن التاسع عشر، كان المغرب، بسبب موقعه الاستراتيجي المتميز كهمزة وصل بين إفريقيا وأوروبا وكممر بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، قد أصبح هدفا وموضوعا لأطماع ومنافسات القوى الاستعمارية: فاحتلال فرنسا للجزائر في 1830، وفرضها للحماية على تونس في 1881، كانت كلها علامات تشير إلى أن المغرب بات في دائرة التهديد.

كان المغرب في ذلك الإبان يعيش تأخرا كبيرا على الأصعدة كافة، فعلى المستوى الفكري مثلا، كانت ترسبات جهود وقرون من الانحطاط والظلامية قد طمست طمسا ما هو أصلي وجوهري في الرسالة الدينية وحولتها من رحمة للعالمين-وليس فقط للمسلمين-إلى أمضى سلاح في يد قوى التخلف والاستبداد التي جردت الدين، الشكل الأساسي لولوج العامة إلى الثقافة، من نواته التقدمية الأصلية ومن كل عنصر عقلائي وقابل للحياة والتطور فيه، محولة إياه إلى أداة قمع وتبرير للاستبداد وإلى تخلف وخرافة وانغلاق وتعصب.

في هذا السياق، فإن شيخ الإسلام الذي حباه الله بأب شديد الحرص عليه، سيشرف على تعليمه ومراقبته وإحاطته بكل عنايته إلى حدود التفرغ، حتى إنه لازمه وسكن معه في القرويين مدة تسع سنوات، ولم يتركه حتى أيقن أن عوده اشتد، وأن اختياره للعلم ثابت ولا رجعة فيه.

لم يظهر الشيخ كثيرا في عهد الحسن الأول. ولكن في عهد حفيظ، وخاصة بعد توقيع وثيقة الحماية في 1912، سيرز الشيخ عالما، وسيعين قاضيا في 1915. ورغم أن تعيينه كان من طرف المخزن، إلا أنه سيمارس باستقلالية منقطعة النظير، وسيطبع القضاء وممارسة القضاء بطابع واضح من الحق والعدل. وسيمتد هذا الاشتغال من موقع المخزن، والذي كان لافتا واستثنائيا، إلى حدود 1940.

في هذا الموقع، كان صاحب رأي وكانت له مواقف سياسية شديدة الوضوح والحزم: فهو مثلا لم يكتف فقط بأن يعلن تأييده ودعمه السياسي لمقاومة الشعب المغربي للاحتلال، بل تخطى ذلك إلى مستوى محاولة الانخراط العملي المباشر فيها؛ فالمصادر تُجمع هنا مثلا على ما بذله من جهود واستعدادات مادية ولوجيستكية للالتحاق بموحي وحمو الزياني عندما فجر المقاومة في جبال الأطلس الشامخة، وبثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي في الريف.

وهو سيدعو جهارا سلطات الحماية عبر مقيميها العام ليوطي إلى تنفيذ التزاماتها المنصوص عليها في وثيقة الحماية، ومنها تحديث بنيات وهياكل البلاد في مختلف المجالات وذلك قبل أن تبادر الكتلة الوطنية سنة 1934 إلى تقديم مطالب الإصلاحات بفترة من الزمان.

وفي 1944، في يناير، كان شيخ الإسلام الوحيد الذي قدم استقالته من وزارة العدل في حكومة المخزن في احتجاج مزدوج: احتجاج على رفض المقيم العام لوثيقة الاستقلال من جهة، واحتجاج من جهة أخرى على تخاذل وإذعان عديد من وزراء حكومة المخزن آنذاك أمام ذلك الرفض. وسيفتح منذئذ جبهة للصراع مع أدوات الاستعمار، خاصة الجنرالين جوان وكيوم. ومن هذا الموقع أيضا، كان من عظماء الشجعان الذين رفضوا وواجهوا بعناد وحزم ضغوط الدوائر الاستعمارية من أجل تمريرها لمؤامرة التوقيع على نفي الملك محمد بن يوسف، ولقراراتها التي كانت تستهدف الحركة الوطنية. وخلال تلك الفترة سيتعرض لصنوف من المضايقات كالإبعاد والنفي وقطع مصدر العيش إلى أن تم اعتقاله في قضية نفي محمد الخامس، ولم يطلق سراحه إلا في 1954 فيما أذكر.

في عهد الاستقلال، فتح منزله حاضنا للمقاومين بفاس والرباط الذين كانوا يستشيرون معه في عدد من القضايا المختلفة السياسية والدينية. كان الشيخ متعاوناً مع المقاومة وجيش التحرير وهو ما يزال في وزارة التاج، كان يتعامل معنا بألفة وحميمية وبحرارة خاصة كما لو كنا أبناءه. كانت العلاقات بيننا عائلية تقريبا، كنا نلتقي ونتناقش جميعا مع الشيخ وابنه مصطفى وبنته عائشة كشركاء. وخارج هذه اللقاءات المباشرة، كان ابنه مصطفى بلعربي العلوي يلعب دورا مركزيا في تنظيم العلاقات وفي متابعتها سواء عندما كان الشيخ ما يزال وزيرا في مجلس التاج أو بعد مغادرته للوزارة. وأذكر أن الشيخ الذي كان يملك شقة في القنيطرة، كان قد عرض في وقت ما على صفي الدين أن يبيع تلك الشقة ويقدم ما سيحصله من مال لقاء ذلك لمساندة ودعم المقاومة.

سأقتصر على ذكر بعض المواقف السياسية القوية التي وقفها الشيخ بشموخ بطولي عز نظيره في فترات عصيبة من تاريخ الصراع السياسي في البلاد.

نحن الآن في بداية 1960، إحدى الفترات المفصلية في النضال التحرري للشعب المغربي وقواه الحية، وللشعوب المغاربية كافة. كان استقلال المغرب غير ناجز بعد، والجيش الفرنسي ما يزال على أرض المغرب المستقل، وكان الصراع السياسي قد بدأ قبل ذلك في التحول والتبلور في أفكار وعناوين جديدة تتصل بمسألة السلطة السياسية وبالمضمون الاقتصادي الاجتماعي للاستقلال. وكانت المقاومة وجيش التحرير، طليعة الحركة السياسية التقدمية التي تشكلت في 1959، قد أصبحت قوة سياسية يحسب لها حساب.

وفي المعسكر الآخر، كانت أدوار ولي العهد آنذاك، وقواعد اللعب الجديدة التي كان يحاول أن يرسبها، وخاصة أسلوبه، قد بدأت في فرض نفسها في ما وراء التحالف والتفاهم بين الحركة الوطنية والملك محمد الخامس. وهي الحقيقة التي ستكشفها بوضوح واقعة 14 نونبر 1960.

واقعة 14 نونبر هي واقعة اعتقال ثلاثين من قادة المقاومة وجيش التحرير كنت ضمنهم إلى جانب عبد الرحمن اليوسفي ومحمد البصري وسعيد بونعيلات ومنصور والهاشمي المتوكل. في إطار ما سمي حينها "مؤامرة اغتيال ولي العهد"... وذلك في إحدى أقوى لحظات احتداد الصراع بين المقاومة وجيش التحرير وولي العهد وحتى الملك نفسه، والتي كانت مناسبة سيتخذ فيها الشيخ أحد أقوى مواقفه وأثقلها بالدلالات، موقف سيتفاجأ به الملك، وسيكون له وقع كبير عليه وعلى المقربين منه، ألا وهو استقالته من الوزارة احتجاجا على مؤامرة اعتقال قادة المقاومة وتعذيبهم.

طبعاً، سيعرف محمد الخامس لاحقاً أنه كانت ثمة بالفعل مؤامرة ما لكن مع هذا القلب/التصحيح الصغير في المواقع، وهو أن فاعليها المزعومين كانوا فيها بالضبط هم الضحايا المعينين بعناية، بينما كان ضحاياها المزعومون هم بالضبط من حبكوا خيوطها!!!

وأذكر أن ابن شيخ الإسلام، مصطفى بلعربي العلوي، الذي كان حينها مديراً للشؤون السياسية، لدى وزير الداخلية إدريس المحمدي كان قد كتب تقريراً عن هذا الحدث وعن الممارسات التي كان المقاومون موضوعاً لها، بين فيه بالدليل والحجة أن تهمة محاولة اغتيال ولي العهد باطلة ولا أساس لها من الصحة، وأن الملف فارغ مفبرك ومبني كله على شهادة شاهد لم يشهد شيئاً ولم

يسبق له أن عرف المتهمين حتى! ...وأن الأمر كله في الخلاصة من تدبير ولي العهد ومدير الأمن.

وكذلك كان فعل قاضي التحقيق، ورئيس المحكمة، عندما أكدا أن الملف فارغ ومزور.

هكذا، سيطلق سراحنا...

وما زلت أذكر هنا كيف أنني رفضت إطلاق سراحي ذاك وبقيت ألح على تقديمي للمحاكمة حتى تنكشف الحقائق أمام الملأ!
ومن القضايا التي كان الشيخ قد واجهها قبل ذلك، في فترة الاستقلال أيضاً، القضية المعروفة بتمرد عدي وبيهي.

كان عدي وبيهي قد عين عاملاً على إقليم تافيلالت في 17 دجنبر 1955 في إطار حكومة البكاي، وهذا التعيين كما تعيينات أخرى لوزراء وعمال لم يكن سليماً ومنسجماً أو يليق بأول حكومة للاستقلال. فالرجل كان محافظاً، بدون تكوين ولا رأي، كان من الأعيان ولم تكن له صلة أبداً بالحركة السياسية التي خاضت النضال. كان ذلك خطأ سياسياً جسيماً.

وعلى كل حال، لم يطل الزمان بهذا الشخص حتى أعلن حركة تمرد ضد حكومة بلافريج، فرفض كعامل قبول عدد من التعيينات في مناصب إدارية مختلفة. وكان الشيخ، بحكم وزنه ضمن الوفد الذي تم تشكيله للقيام بمسعى إقناع عدي وبيهي بالرجوع لجادة الصواب.

وبالنظر لمنطق الأشياء وللسياق السياسي والقوى المتصارعة آنذاك فأرجح الظن أن عدي وبيهي كان مدفوعاً من طرف جهات ما مناوئة للحركة الاستقلالية وتريد توجيه ضربة لها. فموحى أوهرو الذي كان قائداً في تافيلالت تحت إمرة عدي وبيهي، وكان أحد الوجوه البارزة في التمرد وفي معرفة خباياه وأسراره سيتم إعدامه، بل حتى موت عدي وبيهي نفسه في المستشفى كانت فيه شبهات وأكثر من علامة استفهام.

مباشرة بعد ذلك، في 1956، وبالضبط في شهر شتنبر، ستتم محاولة اغتيال علال الفاسي. وإذا كان الجميع تقريباً قد تواطأ على طمس القضية والسكوت عنها، فقد كان للشيخ مرة أخرى شجاعة أن يعزف منفرداً تقريباً، عندما أدان علناً وبوضوح تلك المحاولة الإجرامية.

أيضا، بعد الأزمة الثانية لحكومة البكاي في 1957، بدأت تتشكل تكتلات سياسية، وكان أن طُرحتْ على الملك محمد الخامس، مسألة تشكيل حكومة منسجمة تخرج البلاد من ضعف وفوضى الحكومات الائتلافية التي كانت تكرر نفسها بدون توجهات أو رؤية، اللهم اختيارات القصر التي كان يقررها الأعيان وضباط الجيش والبوليس والداخلية، وهي كلها أجهزة كانت قد تشكلت في غياب الحركة الوطنية كما هو معروف، ولذلك كانت تلك الحكومات عاجزة مسبقا عن مواجهة تحديات بناء الدولة ومؤسساتها وتطوير المجتمع وتنميته، فكان أن أقدم الملك على تعديل حكومي جاءت حصيلته على حساب حزب الشورى والاستقلال ونواة المحافظين التي كان يمثلها **لحسن اليوسي**، ولكنه بالمقابل، لم يتجاوب مع فكرة حكومة منسجمة ذات صلاحيات تخضع لها حتى أجهزة الجيش والبوليس والداخلية.

وبعد إبعاد هؤلاء، ستبداً في التشكل قوة أخرى، "القوة الثالثة" بعد القصر وحزب الاستقلال، بقيادة المحامي "الليبرالي"، الصديق الحميم لولي العهد آنذاك، **رضى اكديرة**.

وكما تعرفون، كان **رضى اكديرة**، "رجل فرنسا الأول" حسب تعبير تلك الفترة، قد أخذ على عاتقه - لأسباب تختلط فيها الاعتبارات السياسية، بالأحقاد الشخصية والتعصب الأعمى "المذهبي" المتنافي حتى مع روح الليبرالية نفسها التي يزعم أنه يحمل رايتها - تصفية جيش التحرير من موقعه كوزير للدفاع.

كما أن عداؤه لحزب الاستقلال وللاتحاد الوطني للقوات الشعبية بعده كان ثابتا ويتم التعبير عنه بأشكال عنيفة ولا مبرر لها. هكذا، كان وراء تشكيل الحركة الشعبية، وبناء "القوة الثالثة" التي كان عمادها عناصر من القوى المحافظة والمتخلفة والخونة عملاء الاستعمار إضافة إلى بعض المتساقطين من الحركة الوطنية طبعاً، وهي السلعة التي كانت متوافرة دائماً، وماتزال متوافرة دائماً، والتي بسبب حقارتها كأدوات، تكون أشرس بما لا يقاس حتى من أسياها، وبعد كل ذلك، سيؤسس "الفديك"، أي "جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية".

هكذا، كان قد تم لقاء بين حزب الشورى والاستقلال، والأحرار (**اكديرة**) وحزب الوحدة (**المكي الناصري**)، إضافة إلى قوات **أحرضان** اتفقوا فيه على التقدم ببيان لمبارك البكاي لإصدار ما سموه "قوانين التعددية الحزبية"، طبعاً ليس حبا

في التعددية وإرساء ديمقراطية حقيقية، بل من أجل مواجهة ما كانوا يسمونه "الحزب الوحيد"، أي حزب الاستقلال، عصب الدينامية السياسية في البلاد آنذاك. على إثر ذلك، اجتمعت "اللجنة السياسية" التي كانت تضم قادة من حزب الاستقلال، ومن المقاومة وجيش التحرير، ومن الاتحاد المغربي للشغل، فاستنكرت بالطبع مبادرة البكاي، ولكنها ردت بطرح برنامج كامل تعطي بنوده فكرة واضحة عن طبيعة الصراع الذي كان جاريا وعن الرهانات المتعارضة لأطرافه، فقد كان على رأس تلك البنود مثلا: جلاء القوات الأجنبية وتصفية تركة الاستعمار، ومحاكمة الخونة والأعيان المتآمرين ضد الملك والحركة الوطنية، إقامة ملكية دستورية، ضمان الحريات العامة دعم الثورة الجزائرية، والقيام بالإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الكفيلة بوضع البلاد على سكة التنمية والتقدم.

وفي تلك الفترة، كانت عدد من تصرفات ولي العهد آنذاك قد بدأت تتراكم في اتجاه محدد: من ذلك، أحداث الريف التي كان وراءها عناصر من الجيش الملكي قاموا بعمليات ضد حزب الإصلاح، فاستغل كل ذلك لمواجهة الريف ككل بقمع شرس من طرف ولي العهد وأوفقيش والجيش. ومن ذلك أيضا، إقامته نوعا من حكومة ظل، ساهم فيها للأسف علال الفاسي وبلحسن الوزاني.

كانت آفاق تحررية واعدة قد بدأت ترسم في الأفق، في المغرب، وفي عدد من البلدان الإفريقية التي انتزعت استقلالها الوطني أو السياسي حديثا. فالمد التحرري بإفريقيا بقيادة زعماء كموديبو كيتا ونكروما وسيكوتوري وغيرهم، ونشوء عدم الانحياز بقيادة تيتو ونهرو وعبد الناصر، وحتى التوجهات والطموحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت قد عبرت عنها حكومة عبد الله إبراهيم في المغرب، كانت كلها أمور لا تطمئن دوائر الاستعمار والاستعمار الجديد، لذلك، كان مطلوبا وقف ذلك المد.

في هذا الإطار، سيتحرك "حلف دالاس" (نسبة إلى وزير خارجية أمريكا في ذلك الإبان)، وضمنه تركيا وأفغانستان والعراق والسعودية.

وفي هذا الإطار أيضا، سيتجاوز مجال حركة ولي العهد حدود المغرب، ليقوم بدور إقليمي إن جاز التعبير، في تدعيم انقلاب موبوتو في الكونغو الديمقراطية ضد القائد الزعيم الكونغولي والإفريقي باتريس لومومبا، وفي اغتيال هذا الأخير في 1961.

وكان الملك محمد الخامس في تلك الفترة، وهو الذي تجاوب مع مطالب واقتراحات قوى التحرر والتقدم في قضايا كثيرة، قد بدأ يصبح أكثر فأكثر، موضع صراع وجذب بين قوتين كبيرتين هما قوى التحرر والتقدم من جهة ممثلة في جيش التحرير والاتحاد الوطني للقوات الشعبية وحكومة عبد الله إبراهيم، ومن جهة أخرى، قوى الاستعمار الجديد ووكلاؤها المحليون من "رجال فرنسا وأمريكا" كما كانوا يسمون آنذاك، وطبعا ولي العهد.

ولم يكن شيخ الإسلام، الذي كان يتتبع هذه الأحداث مباشرة أو عبر ابنه مولاي مصطفى ليرضى على تلك التطورات والتصرفات والتوجهات.

ولذلك، بحكم إباءه وعزة نفسه، وبحكم تطورات الصراع، سيميل سياسيا نحو الوجهة التي كان يجب أن يميل إليها، والتي فيها سيستقر منذئذ: إذ بعد الانشقاق في حزب الاستقلال وتأسيس الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، سيصبح هذا الأخير، مع جيش التحرير وحكومة عبد الله إبراهيم في طليعية قوى المواجهة مع القصر وأعوانه. وسينتصر الشيخ لهذه القوى بشكل حاسم وسينخرط بقوة في معاركها؛ فقد حضر للمؤتمر الوطني الثاني للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وكان شيخ الإسلام فيه لوحده قوة شعبية بحق ليس فقط على المستوى السياسي بل أيضا على المستوى الرمزي.

وانتقد الشيخ بشكل صريح سياسة الحسن الثاني في دستور 1962 شكلا ومضمونا، ودعا بالنتيجة، لمقاطعته، واجتهد في بناء موقف المقاطعة ذاك على توليفة خاصة بين الأسس الجوهرية للفكر السياسي الحديث، الديمقراطي، والتقدمي، وفهم أصيل وتحرري للإسلام، مكرم للإنسان كقيمة، ومتنافي مع كل استعباد واستبداد وانحطاط ورجعية.

كان شيخ الإسلام إنسانا استثنائيا حقا. كان بسيطا في عظمته، وعظيما في بساطته. ثمة صفات لا تجدها سوى في عظماء الرجال من الأنبياء والمصلحين والقادة الكبار: شموخ وإباء وعزة نفس، قوة صبر وتحمل وتضحية ونكران ذات، ثبات على القناعة والمبدأ مهما يكن الثمن، علم وإيمان ومروءة وفضيلة وانفتاح، جرأة وشجاعة وإقدام، روح نكتة ومرح.

كان الفقيه والعالم والمربي والقاضي ورجل الدولة والمناضل السياسي، وكان قبل هذا وبعد ذاك، الإنسان.

وكان أخص ما يخص هذا الإنسان أنه كان محصنا من كل الجوانب، حتى في حياته الشخصية، فمعروف هنا مثلا كيف تزوج ومن تزوج وشراسة المعارك التي اضطر لخوضها ضد كل السلطات، بدءا من سلطة العائلة والعشيرة وانتهاء بسلطة الدولة نفسها، وذلك دفاعا عن "اختيار ثوري" حقا وحقيقة من اختياراته، وعن موقف عملي من مواقفه سيكسر عبره إحدى أكثر حلقات قيود التأخر والانحطاط رسوخا وتكلسا.

فعندما نحلّ أولا تناقضاتنا الخاصة مع أنفسنا على هذا النحو، كما فعل شيخ الإسلام، لن نستطيع بعد ذلك أية قوة أن تثنينا أو تحرف سيرنا أو تستوعبنا أو تجعلنا ننقلب فنوجه سلاحنا للخلف ضد معسكرنا الأصلي، ونحن نناضل لحل باقي تناقضاتنا الأخرى في المجتمع وفي الدولة.

هذا رجل يقدم واحدا من الأمثلة النادرة على أنه بإمكاننا - إن كنا منسجمين مع أنفسنا - أن نخرج من فم السبع أحياء نرزق! يعني أن نبقي، رغم الوزارة، وبعد الوزارة، ما كنا إياه قبل الوزارة، أي مناضلين. لذلك، كنت دائما أحس أن ثمة شيئا يربطني به شخصا، كما ربط عددا من ممن في جيلي، بهذه القامة الشامخة، بهذه المدرسة.

نعم، لقد كررنا ذكرى فقيدنا شيخ الإسلام، في أحد أولى الأنشطة التي قمنا بها في المركز بعد تأسيسه، وهو ندوة السلفية المستنيرة المنعقدة بالمكتبة الوطنية، والتي ستنشر أعمالها في كتاب خاص، ولكنني ما أزال آسف، وأتألم من شيء واحد، هو كون الشيخ، ربما الوحيد من بين معلمينا وعظمائنا الذي لم تصلنا أعماله وآثاره.

وبالتأكيد، هذه واحدة من المهام التي نشعر في المركز بواجب القيام فيها بطرح الموضوع واستكشاف إمكانات الإنجاز فيه جزئيا أو كليا بالتعاون مع عائلته الكريمة ومع كل من يتطوع، مؤسسات وأفراد، للإسهام في تجميع كل ما يمكن تجميعه من آثار الشيخ وكتاباته سواء كانت دروسا علمية أو تدخلات سياسية أو أحكاما قضائية أو رسائل أو تأصيلات دعوية سلفية... أو سوى ذلك. هذا بعض من واجبنا إزاء إرث الشيخ كذاكرة فردية وذاكرة وطنية. وهو بنفس القدر بعض من واجبنا في إبراز ما يجب اليوم استلهامه كمرجع حي ومستمر في ذلك الإرث واستثماره كسند للتدخل اليوم في القضايا والإشكالات الراهنة

كالنضال ضد أشكال هيمنة الاستعمار الجديد وأدواته الجديدة، والنضال ضد الاستبداد السياسي، والنضال ضد فكر الظلامية والانحطاط، وخاصة في طبيعته الإرهابية والإجرامية التي تلصق بالإسلام، والإسلام منها برئ.

"هكذا تكلم الفيلسوف عن الفقيه" شهادة محمد علال سينا

إعداد: عبد الرحيم تافنوت
وعبد اللطيف اليوسفي

أن يتهياً "الفيلسوف"، ويستجمع ما لديه من التركيز للحديث عن الفقيه، فتلك لحظة-كنا ندرك من البداية-أنها لن تكون لحظة عادية بالمعنى الرفيع للمعنى: إنها الصورة التي عثرنا على أنفسنا وسط تباشيرها، ونحن نضغط على أزرار آلة التسجيل لنظفر بما قد يفيض به عقل رجل الفلسفة من رأي في حق فقيه كان أكبر من موازين مرحلته وأحكامها الجائرة.

لقد سبق لمعلم الدرس التاريخي، المفكر عبد الله العروي أن توقف كثيرا عند مسار تلميذ شيخ الإسلام وزعيم الوطنيين الشباب المرحوم علال الفاسي، واصفا إياه بالفقيه الداعية وناعنا لحظته بلحظة الشيخ السلفي مقابل لحظة الليبرالي وداعية التقنية، لكن ذلك التوقف جرى من زاوية النظر التاريخي، أما من زاوية الإضاءة الفلسفية، فهذا النوع من التمرين النظري لا يشبهه إلا ذاك المسعى التحليلي الواسع الذي خص به المفكر الفيلسوف محمد عابد الجابري فقيه التجربة الأندلسية الإمام أبا إسحاق الشاطبي منها العرب والمسلمين إلى فرادة الرجل الفكرية والشرعية في تأسيس إرث منهجي كوني للنظر في قضايا التراث والدين والحضارة والمجتمع.

لقد باغتتنا الدكتور علال سيناىر وحتى قبل أن يدعونا للجلوس بقربه إلى إثارة انتباهنا لعدم نسيان البدايات الأولى فى النظر إلى سيرة شيخ الإسلام قائلا: "...لا تنسوا أن لهذا الرجل شخصية متعددة الأبعاد، فبالإضافة إلى أنه كان فاعلا أساسيا فى مجرى الأحداث، هو فى الأصل عالم دين متفتح وسلفى متنور ساهم فى بناء لحظات حاسمة من تاريخ المغرب الحديث والمعاصر..."

غير أن الإقرار أو الحكم الجازم فى نظره لا يجب أن يجرى استيعابه بدون انتباه إلى واقعة مؤثرة فى مسار تشكله "الخاص" كقائمة عليا وكقطب رئيس من أقطاب سلفيتنا الوطنية. أما هذه الواقعة التى يدفعنا الأستاذ الفيلسوف إلى اعتبارها نقطة تحول فى حياته، فهى لقاء فقيهما محمد بن العربي العلوي بشيخه وأستاذه المتحرر أبي شعيب الدكالي، حيث سيتحول "قدر" التلميذ ليظهر بما ظهر على مسرح مغرب دخل بعنف زمن الاستعمار وزمن الحداثة فى نفس الآن.

يقول علال سيناىر فى هذا المقام: "إن شيخ الإسلام هو نتاج عمل الشيخ أبي شعيب الدكالي، وتلميذه النجيب، فقد رسم الشيخ الدكالي الكثير من معالم هذه الشخصية وأثر فيها كثيرا خلال مرحلة ملازمته له فى فاس..."

وبالمناسبة يؤكد علال سيناىر أن المؤرخين والدارسين لم يعطوا لأبي شعيب الدكالي المكانة التى يستحقها، فلم تلتفت إليه الدراسات العلمية كثيرا رغم الأدوار الهامة والكبيرة التى قام بها فى ربط المغرب -أواخر القرن التاسع عشر- بالثقافة المشرقية، وخاصة بالمدرسة السلفية التى نذرت نفسها فى البداية لمحاربة مظاهر الشعوذة والتحريف وتنقية الممارسة الدينية الإسلامية من الشوائب التى علقّت بها وطغت عليها. فعند رجوعه من المشرق وإطلاعه على العلوم الدينية، ومجالسته للعلماء، عمق معرفته بأصول الدين ومعارفه، ولعب دورا أساسيا فى تعليم المغاربة أن الدين الإسلامى له قواعده وأساسه وخصائصه ولا علاقة له بالشعوذات المختلفة الشائعة آنذاك..."

واعتبر أن التركيز على القيم والعلم أمر مهم- يؤكد سيناىر- لأن المغرب "لا يمكن أن يتطور إلا من المدخل العلمى البعيد عن المعتقدات السلبية البعيدة عن الدين..."

"...وبذلك جاءت السلفية المغربية أكثر تفتحا من غيرها وخاصة مع الشيخ بلعربي العلوي وعلال الفاسي وغيرهما ممن ربطوا الدين بالسياسة. إن السلفية المغربية اهتمت بالتأصيل العلمى خاصة فى مجال الأصول الشرعية،

ويشكل الحجوي الثعالبي صاحب "تاريخ الفكر في الفقه السامي" نموذجاً هاماً إلى جانب العالم الفقيه الكتاني. وقد كان للحجوي الثعالبي تميزه في المعرفة الدقيقة بأصول الدين وتمكنه الكبير من أدوات الفكر الإسلامي، غير أن المغاربة لم يلتفتوا إليه كثيراً، ربما لأن الوطنيين "حقدوا عليه ورموه بالخيانة"، لأنه كان بعيداً من الحس السياسي قريباً جداً من الحس العلمي والنظر العقلي فيه..."

وفي رسم خيط الاتصال والتميز في شخصية شيخ الإسلام، يستحضر صاحب النظر الفلسفي مرة أخرى تقنية التقابل بين الرجلين مفسراً أنه: "وإذا كانت قوة أبي شعيب الدكالي في علمه الواسع وتربيته النافذة وذكائه "الدكالي" المتميز، فإن بلعربي العلوي أضاف إلى ما أخذه عن أستاذه أبي شعيب حسه السياسي وقدرته الفائقة على المبادرة والتأثير في واقعه. إن حسه السياسي الذكي هو ما جعل منه إلى جانب الفقيه المعمرى "رجل النظام الذكي" الذي مارس حرية واسعة بدهاء وذكاء نادرين مكنتاه من التأثير في السياق السياسي الوطني منذ إسهامه في تعيين محمد بن يوسف إلى تربيته ورعايته وتوجيهه.."

"...ومما ميز هذا الرمز أنه كان يميل إلى اتخاذ المبادرة بذكاء نادر وبفعالية نافذة، ومن أمثلة ذلك أنه حين كان قاضياً في فاس الجديد سمع بعزم الفرنسيين على إقامة المدرسة الحديثة بمدرسة مولاي إدريس بفاس ليقدموا فيها تعليماً حديثاً لا تقا بأبناء المغاربة وذلك في إطار ما عُرف بالسياسة الإسلامية لليوطي، إذ كانوا يعتزمون التدريس بالفرنسية فقط في هذه المؤسسة. وهنا بادر الشيخ القاضي محمد بلعربي العلوي بالسؤال: وأين موقع اللغة العربية في هذه المدرسة ؟ فقليل له : إنها تُدرس في القرويين، في حين تدرس الفرنسية في كوليغ مولاي إدريس، فوقع الشنآن بعدها وبدأت بوادى الاضطرابات، فجاء "ليوطي" ليقول: إن هذه المؤسسات لتعليم أبناء المغاربة فقط أما أبناء الفرنسيين فليتعلموا في فرنسا، فالأهم في هذه المرحلة هو تعليم المغاربة استعداداً للمراحل المقبلة. وعندها توجه القاضي محمد بلعربي العلوي إلى السلطات الفرنسية، وأصر على تعليم اللغة العربية في كوليغ مولاي إدريس معبراً عن استعداده لتدريسها بنفسه وبدون مقابل. وكانت هذه القناة وهذا الإطار باباً لتعليم العديد من أبناء المغاربة من الوطنيين..."

وهنا ينتقل علال سيناصر لتذكيرنا بما سيكون عليه تأثيره في جيل الوطنيين القادمين قائلا: " لقد كان دوره كبيرا في بناء شخصية علال الفاسي ومحمد بلحسن الوزاني وعمر بن عبد الجليل وإبراهيم الكتاني ومحمد الفاسي والمختار السوسي وغيرهم كثير. ومن قناة التعليم الذي اهتم به محمد بلعري العلوي برز التيار الوطني في فاس، في حين برزت الحركة الوطنية في مناطق أخرى من المغرب بشروط أخرى وظروف مغايرة ولكنها كلها ربطت التحرير والاستقلال بمواقع التعليم سواء في مراكش أو الرباط أو تطوان أو غيرها.

لهذا سنتطبع السلفية المغربية بالطابع السياسي، إنها حركة سياسية بامتياز أنجبت زعماء متفتحين ومنفتحين من مثل بلحسن الوزاني وهو الزعيم الأول مع بلافريج اللذين تبنا الفرنسية ودرساها واهتما إلى جانبها بالعربية كقناة للتكوين وللربط بالامتداد الجغرافي مع الوطن العربي..."

"...لقد كان لشيخ الإسلام محمد بلعري العلوي دور مختلف عن الفقهاء المجالين له، فعلاوة على أنه كان يُدرس علوم القرآن وعلوم أصول الدين، كان حريصا في نفس الحين على مقاومة البدع، ونبذ التقاليد البالية والاستكانة الى الجاهز دون تمحيص أو تدقيق أو إعمال للعقل، هذا إلى جانب عنايته بتعليم اللغة العربية في القرويين وغيرها مجانا. ومما ميزه أنه كان قريبا من الزاوية الدرقاوية بمكناس وهذه المجموعة الدرقاوية كانت مجموعة وطنية روحيا، وكان لها تنظيم خاص وانخرط كثير من مريديها في الحركة الوطنية، ومع ذلك فإن الشيخ لم يسمح له حسه السياسي المبكر بالانخراط مع الزاوية الدرقاوية مثلما كان الأمر بالنسبة لمحمد بلمختار السوسي مثلا. لقد كانت عينه ممتدة إلى العالم الإسلامي، فحين كان الوطنيون يرفعون شعار "الوطن أولا" كان الشيخ يقول "إسلامي فوق وطنيتي ولكن البداية تكون من الوطن..."

"....وقد شاع كثيرا صيت تلاميذ شيخ الإسلام محمد بلعري العلوي، من رموز الوطنية الكثيرين، وارتبط بهم الناس في كل بقاع المغرب، فوالدي مثلا سماني باسم علال تيمنا بعلال الفاسي الذي نبغ مبكرا وعانى من السجون آنذاك، وكان ممن ساهموا بقسط وافر في تشكيل الوعي الوطني لدى المغاربة، وما ارتبط به من التضحية في سبيل الوطن والدفاع عن حوزته وترابه وامتداداته إلى تخوم موريتانيا، علما أن المنطقة المغربية كلها كانت متداخلة ومفتوحة على بعضها، بحيث كان التواصل دائما ومستمرا والمياه منسابة بين سكان الشرق

المغربي والجزائريين، وقد عشنا في أسرتنا هذا الأمر ولم نكن نفرق بل لم نكن نعرف بالحدود.

وقد ناقش العديد من الدارسين ومنهم الأستاذ العروي جذور الوعي الوطني لدى المغاربة، والخلاصة الجوهرية لهذه الدراسات هي أن الحس الوطني وبروز الحركة الوطنية بزغا من أحضان المدرسة، ومن كنف التعليم، ولعب المعلمون الكبار من أمثال محمد بلعربي العلوي المدغري أدوارا طلائعية بنفس الدرجة التي عمل بها عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي في مدرسة الوطنية بالجزائر، ومثلما فعل ابن عاشور في تونس. ومن الأدلة على تداخل المجالين الجزائري والمغربي مثلا ما فكر فيه البشير الإبراهيمي عند إقامة أول مدرسة، إذ فكر في تلاميذ المغاربة وطلب من الوطنيين أن يحضروا تدشين المدرسة وقد مثله ذ. إبراهيم الكتاني الذي حضر فعلا تدشين مدرسة الإبراهيمي...."

"....لقد كان التداخل بين السلفية المستنيرة في المغرب والسلفية الإصلاحية في الجزائر ممثلة في جماعة علماء المسلمين بالجزائر قويا ومستمرًا تدل عليه المراسلات بين الشيخ بلعربي وجمعية علماء المسلمين بالجزائر التي أثرت كثيرا في المغاربة عن طريق مجلة البصائر، حتى إن والدي قال لي ذات مرة : "نحن المغاربة تعلمنا الوطنية مع الجزائريين ومنهم" فأربكتني هذه القولة وشكلت لدي قضية شغلتنني فقلت ماذا حصل ؟ فوقع لي أمر غريب في ذلك الوقت إذ وجدت صورة للزعيم محمد بلحسن الوزاني في الجزائر... وعندما بحثت في الأمر وجدت أن الجزائريين تحركوا قبلنا، ونشأت حركتهم الوطنية مبكرا، ولكنهم لم يكونوا يفصلون مصيرهم عن مصيرنا ويتضح ذلك من أن أمصالي الحاج ذهب عاملا إلى فرنسا، ووجد المغاربة هناك وتأثروا به وانخرطوا في منطقه التحرري...."

"....إن التفكير الوطني هو تفاعلات تختلف مظهراتها وتتعدد سواء في الفكر أو في النضال المسلح أو في المفاوضات أو في الاحتجاج أو غيرها، وما أود التأكيد عليه هو أن فكر محمد بلعربي العلوي لم يكن معزولا كما لم يكن منكمشا على الذات، وإنما كان يسبح في أجواء عامة من تونس إلى المغرب، ولهذا اطلع أبو القاسم على شعر علال الفاسي حينما قرأ وهو صغير العمر:

أنا طفل تهيم دموعه * * * فينظمها للقارئ قوافي

فاعتبره شاعرا واعدا ومجيدا.

إذن فالحدود لم تكن إلا وهمية رسمتها السياسة الإستعمارية، في حين أن الثقافة والشعور المشترك تجاوزاها وتخطياها، وتلك طبيعة النفوذ الثقافي الذي يخترق الحدود السياسية..."

"...وبالرجوع إلى الشيخ محمد بلعربي العلوي يجد المتأمل في حياته وسلوكه أنه كان طاقة ذكية متقدة باستمرار. ولم يكن أبدا من المسيرين المنتظرين. بل كان مبادرا حتى إنه كان يُسائر الملك محمد بن يوسف في بدايته، ويتعهده بالرعاية مستثمرا علويته وجذوره الفيلالية بشكل ذي... ومن دلائل هذا النفوذ وهذه المكانة أن محمد بن يوسف قرر في بداية عهده زيارة القرويين -جريا على العادة- فجلس بلعربي العلوي في الجهة المقابلة للجهة التي جلس فيها الملك محمد بن يوسف، وبينما كان الملك الشاب يلقي أول خطبة له كانت الإشارات قوية بينهما تدل على أن الملك ظل يستشير الشيخ خلال قراءته للخطبة. ومعلوم أن اختيار محمد بن يوسف كان بسبب مرونته وصغر سنه واستعداده للأخذ والعطاء وللتفاعل الإيجابي (مع فرنسا من جهة والوطنيين من جهة أخرى)، وقد تم اختياره رغم صغر سنه عوضا عن أخيه مولاي إدريس ذي الشخصية القوية، وقد لعب الشيخ بلعربي العلوي إلى جانب الفقيه المعمرى في هذا الصدد دورا كبيرا حين أقنع بلعربي العلماء بالملك الشاب وأقنع المعمرى الفرنسيين..."

وفي هذا الاتجاه يضيف الأستاذ سيناصر:

"...ومما يدل على مكانة الرجل وقوة نفوذه أنه كان جسرا واصلا بين الحركة الوطنية والملك محمد بن يوسف بل إنه كان من الذين وقفوا في وجه ابن عرفة وأفتى بقتله مما تسبب في نفيه والتضييق عليه، وكان من الذين ألحوا على أن يشترط عبد الرحيم بوعبيد في إيكسليان رجوع محمد الخامس إلى عرشه..."

"...إن الدلائل التاريخية كلها تدل على أن الشيخ محمد بلعربي العلوي هو من سهل جسور التواصل بين الملك محمد بن يوسف من جهة، والوطنيين من جهة ثانية، لاسيما وقد كانت غالبية الوطنيين المؤثرين من تلاميذه. لقد كان

الشيخ دقيقا في عمله عميقا في تصرفاته نافذا في مبادراته ولم يحدث مرة أن سلم على أي فرنسي من رموز الاستعمار، علما أنه كان متفتحا على الأوروبيين والأوربيات وضمنهم المواطنون الفرنسيون يجالسهم ويناقشهم، ولكنه لم يكن يصافح طغاة الاستعمار رغم وجوده في الحكومة، ورغم وجوده في مراكز القرار، مع التأكيد مرة أخرى على أن الشيخ كان منفتحا على الثقافة الأوربية يدعو إلى التسلح باللغة العربية لغة القرآن الكريم. ولعل الدلالة العميقة لرفضه الدائم للتسليم على رموز الاستعمار إنما كانت إشارة قوية إلى عدم رضاه عن الاستعمار رغم أنه كان وزير العدل في مرحلة الحماية/الاستعمار..."

وقد لعب الفقهاء وشيوخ الدين ومنهم الشيخ بلعربي العلوي دورا كبيرا في مواجهة الاستعمار خاصة عبر قناة التعليم كما لعب دورا في تحضير الوطنيين لمقاومة الاحتلال وكان هؤلاء الفقهاء كثرا تجددهم في كل مدن المغرب ومن أمثلتهم الفقيه الغازي الذي كان درقاويا والمختار السوسي الذي كان عالما دقيقا وممنهجاً وذا عقل منظم.

أما عن إسلامه وإسلام علماء مرحلته ومن المجايدين له عملا ونظرا فإن علال سيناصريثير انتباهنا إلى أنه:

"...يمكن التأكيد على خصوصية الإسلام المغربي الممزوج بالتصوف، هذا التصوف المغربي الذي لعب دورا أساسيا ومركزيا وواضحا في محطات أساسية من محطات المغرب كعهد سيدي محمد بن عبد الله وغيره. فلقد كان المتصوفة مناضلون حقيقيون أثروا في محيطهم وأنشأوا أجيالا من الصامدين الزاهدين في المصالح والمرتبطين بالحق. ولقد كاد الشيخ بلعربي أن يكون درقاويا لولا دخوله دهاليز السياسة مبكرا، لهذا وجدناه رجل دين ثائرا على أوضاع المغرب رغم موقعه السياسي في مركز السلطة، إنه لم يكن أبدا رجل قبول، إنه لم يكن يتفاوض مع المرفوض أصلا..."

أما في إدارة الفاعلية السياسية فلا يتوقف سيناصر عن إبراز مهارات الشيخ قائلا ومرددا:

"...وفي سياق بحثه عن حلفائه الطبيعيين نجده ينسج علاقات قوية مع كل من كانت له القدرة على أن يقول "لا للوضع"، ومنهم على سبيل المثال أبناء

بلعالم بوجدة وأسر أخرى في مختلف مناطق المغرب، لاسيما وأن الشيخ كان يرفض الاستسلام بقوله المشهور "أنا لست محميا". ويبدو لي أن تعامله مع الإدارة الفرنسية إنما كان من باب تحمل المسؤولية لتسيير أمور الشعب المغربي؛ وكذا للتعرف على دوايب الدولة وصيغ تصريفها؛ وكذا تدريب أبناء الشعب المغربي ليأخذوا زمام شؤونهم بعد مرحلة الاستعمار. ذلك أن الشيخ كان يقول "إن الاستعمار -لا شك- إلى زوال، والاستقلال آت لا ريب فيه لذا وجب أن نعد أنفسنا لتحمل المسؤولية في المغرب المستقل، والاستعداد لابد أن يكون شاملا وخاصة بمحاربة الجهل..."

وعند هذا المستوى من رسم لوحة لشيخ الإسلام يسارع رجل الفلسفة بحسه النقدي إلى استخراج خلاصته الجازمة:

"...ما هو مؤكد أن المغرب ماكان ليتطور بالشكل الذي حدث لولا عمل هؤلاء الرموز القوية والبارزة والمؤثرة من أمثال الشيخ محمد بلعربي العلوي المدغري، الذي كان يختار لكل معركة الأسلحة الملائمة. فهل يمكن للمغرب أن يتحرر من الهيمنة الأمريكية اليوم بنفس الوسائل التي تحرر بها من الاستعمار الفرنسي في الخمسينات؟؟ أبدا. ذلك أن الأمر يستحيل تماما، ولابد لكل مرحلة من القوة الملائمة لها. وبالتالي فإن السلفية التي ساهمت في تحرير البلدان والعقول والأرض ليست بالضرورة قادرة اليوم على تحرير البلدان والعقول والتصرفات من الهيمنة الاقتصادية والسياسية والفكرية. لابد إذن من البحث عن آليات أخرى مختلفة حديثة ومتطورة وملائمة إذ لا يفيل الحديد إلا الحديد..."

"...وهنا إذا ما تساءلنا معكم عن خصائص الشيخ بلعربي كمتقف وسط مجتمعه، فإننا نجدها تتلخص في الفعالية والنجاعة، فبعد البحث في الأحداث وتأملها نجد أن عمله القضائي كان عاديا، لكننا نجد عمله التربوي محكما وبعيد المدى، أما عمله السياسي فكان نموذجيا في فعاليته يتضح من خلاله انه كان يتمثل مواقفه السياسية ويتأملها ويوجه محمد الخامس من جهة وتلاميذه من الوطنيين من جهة وفق ما استقر عليه رأيه..."

"...ولا يفوتنا في الختام ان نسجل بقوة ما ظل يتسم به الشيخ من الشجاعة النادرة التي جرت عليه السجن والمنافي أيام الاستعمار، إذ لم يقف عند

حد تأييد الحركة الوطنية بل وقف في وجه ابن عرفة ورفض بيعته بل أفتى بقتله عملاً بقول الرسول: "إذا بويع لإثنين فاقتلوا الثاني" وهو ما تسبب في نفيه والتنكيل به. ومن شجاعته انه جهر بمعارضته للدستور الممنوح سنة 62، وأطر تجمعات مناهضته ودعا إلى مقاطعة الاستفتاء عليه وجهر بأنه لا حق للحاكم ان يشرع لنفسه ولاسيما في لحظة التنازع مستشهدا بالآية: "فإن تنازعتم في امر فردوه إلى الله..." هذا إضافة إلى شجاعته النادرة أيضا في الدفاع عن التفتح والانفتاح والتماس سبل التحديث والتطور ما لم تتعارض مع جوهر الدين.

إن العالم الإسلامي اليوم في حاجة ماسة لأمثال الشيخ بلعربي العلوي ليجهروا بالحق، وليبينوا للمسلمين أولا وللعالم أن السماحة والتعايش واحترام الآخر هو جوهر الدين الإسلامي الوسطي المعتدل الذي يشيع المحبة بين بني البشر على اختلاف ألوانهم وأديانهم ومعتقداتهم وقناعاتهم، فما أشد حاجتنا اليوم إلى العقول المستنيرة التي تفتح الأفق الرحب للبشرية جمعاء.

جوانب من سيرة الشيخ ومواقفه

أحمد السليمانى

محمد العمري

حسن أوريد

الموساوي العجلاوي

شيخ الإسلام بين شاي وقهوة



شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي السلفية والمواطنة

أحمد السليمانى

تعود الأمم والشعوب، التي تمر بالأزمات والمحن، وتعاني من التخلف والانحطاط، إلى تاريخها وماضيها، تبحث فيه، وتستعين به على ما يفيدها ويعينها على تجاوز تلك المحن والأزمات. ولهذه العودة يجب على أبنائها وحفدتها، وفي كل الأزمان، توفير مواده، والعناية بشواهد، وحفظ وتسجيل ما يدل عليه. عليهم أن يدونوا كل الآثار المادية والمعنوية، من الثقافة والمعمار، والفنون والآداب، والسياسة والدين، والحرب والسلم، والانتصارات والإخفاقات، وكل ما خلفه وأنجزه الآباء والأجداد، وساهموا به في بناء ذلك التاريخ.

إن إهمال التوثيق والتسجيل، يحرم مؤرخ المستقبل من المواد الضرورية لإعادة بناء ذلك الماضي، الذي يتضمن الشروط والمقومات التي بدون إدراكها ومثلها، يتعذر تجاوز تلك المحن والصعوبات، والتغلب على التخلف والانحطاط، بل إن إهمال التوثيق والتسجيل، وحفظ الشواهد والآثار، إساءة للآباء والأجداد، وجحود لجميلهم، وإنكار لصنيع هؤلاء المخلصين الشرفاء، الذين بذلوا الغالي والنفيس، وضحوا بالروح والمال والحرية، والراحة والهناء، من أجل الوطن وكرامة المواطنين، وحريتهم واستقلالهم. ولم يفعلوا ذلك بحثا عن الامتيازات الكثيرة، ولا طمعا في الجاه والسلطة، والمقاعد الوثيرة، والمناصب الرفيعة، ولكنهم فعلوا ما فعلوا، وقدموا ما قدموا إيماناً بحق الوطن عليهم، وأداءً للواجب الذي يفرضه عليهم دينهم.

نحتفي ونحتفل بشيخ الإسلام، موقظ الهمم، السلفي المتنور، والفقهاء المتفتح، سيدي محمد بن العربي العلوي. ونفتح بهذه المناسبة، حوارا حول موضوع

السلفية، وهو موضوع كبير وخطير، ملأ الدنيا وشغل الناس، موضوع خاض فيه العارف والجاهل، والصادق الأمين، وتناوله واستغله الانتهازي المتربص للفرص. وانتقل التناول والخوض، من أقوال إلى أفعال، أساءت إليه وأضرت بالأفراد والجماعات، صنف هؤلاء وحكموا، وأصدروا الفتاوى المتراوحة بين التكفير والإلحاد، والجمود والتخلف والظلامية. وصار الدين الإسلامي نفسه بسبب هذا الخوض والتناول متهما، وألصق به ما ليس منه ولا فيه، فنعتة البعض بالتطرف الذي يعوق التطور والتقدم، ورأى فيه آخرون إرهابا، يجب على المجتمع الدولي التصدي له، والقضاء عليه، واجتثاثه من جذوره وأصوله.

كثر الخلط واللغط، وعم الغموض والالتباس، ولم يعد مقبولا غض الطرف والانتظار. لذلك فإن مبادرة مركز محمد بن سعيد آيت يدر، إلى فتح حوار علني وواسع لمناقشة هذا الموضوع وتحليله، تهدف إلى تمكين نخبة من العلماء الأجلاء، والمفكرين الفضلاء النزهاء من تناوله بهدوء وروية وموضوعية وكشف أسرار حقيقته، وتبيان الصحيح من الفاسد فيه، واختيار "شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، السلفية المستنيرة في المغرب المعاصر" عنوانا لهذا اللقاء سيساعد بدون شك على تحقيق أهدافه.

يستمد هذا الموضوع أهميته ومشروعيته، من المحتفى به أولا، ومن السلفية المستنيرة في المغرب المعاصر ثانيا. فالرجل نموذج صالح للاحتذاء في هذا الزمن، الذي اختفت فيه أو كادت المثل والقيم، وكثر الإقبال والتهافت على المواقع والكراسي والزعامات، وتصيد الفرص للكسب والربح السريعين، حتى غدا من النادر العثور على وطني من طينته، مستعد للتضحية بشبابه وروحه وحرية في سبيل هذا الوطن.

إننا حين اخترنا شيخ الإسلام، محمد بن العربي العلوي، إنما كنا نقصد تقديم نموذج لعالم جليل، وفقه مبرز، ومناضل كبير، ووطني غيور، عالم فهم الشريعة، وتمثل روحها الخلاقة المبدعة، القائمة على التيسير والتبشير، لا على التهيب والتنفير والتكفير. عالم يدافع عن الحق، ويحارب الخرافة والدجل بالحجج المبينة، والبراهين القطعية، عالم متمكن مما يقدم من معلومات، مستعد للتضحية، قادر على تحمل الأذى، وتعبئة الناس، يحارب الخرافة والدجل والاستعمار، ويقف في وجهه، ويفضح نواياه ومراميه.

كان الشيخ قويا واضحا في دفاعه وحججه، إذ لم يكن يقبل شيئا لا يقوم عليه دليل من الكتاب والسنة، لا يقلد ولا يجمال، ولا يهادن فيما يراه حقا وصوابا. وكان أيضا أستاذا مقتدرا ناجحا، وقاضيا نزيها، ووزيرا مستقيما. لا يراعي في أحكامه موقعا أو جاها أو سلطه، ولكنه يعتمد القرائن والحجج وأوامر الشرع ونواهيها، لذلك كان ينتصر في الكثير من أحكامه للضعاف من عامة الناس على أصحاب المراكز النافذة في السلطة، فقد أصدر حكما على وزيرين، اندهش له الخاص والعام.

شكل الشيخ جسرا بين الحركتين، الوطنية والسلفية، فقد سمح له موقعه العلمي والتربوي، بأداء هذا الدور، وتحقيق هذه المهمة، خاصة وأن الكثير من رواد الحركة الوطنية، كانوا من طلابه ومريديه، معجبين ومتأثرين به (محمد علال الفاسي ومحمد المختار السوسي ومحمد غازي).

كان رائدا في الدفاع عن العلم والمعرفة، لأنه كان يعتبرهما المدخل الأساس، ونقطة الانطلاق في أي مشروع ينشد التحرر والانعتاق، والتقدم والازدهار. كما كان رائدا في الدفاع عن تعليم المرأة، وحققها في المساواة والكرامة، ومواقفه في هذا الموضوع معروفة مشهورة، فقد كان يشجع الملوك على الدعوة إلى تعليمها، ويلتمس منهم أن تكون الأميرات رائدات في هذا المجال.

تجاوزت دروس الشيخ، الفروع إلى الأصول من القرآن والسنة، فهو الذي أحى دروس التفسير في القرويين، بعد طول إهمال وغياب، وصرف أنظار الناس عن كتب الفقه المعقدة، وأحال على الواضح المبين منها. كما تجاوز كتب عصر الانحطاط المليئة بالمحسنات، واستبدل بها كتب الأصول الأدبية واللغوية، كالكمال للمبرد، والأمثالي لأبي علي القالي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والبيان والتبيين للجاحظ، وديوان الحماسة لأبي تمام، وغيرها من الكتب الزاخرة بالنماذج الجيدة.

وتصدى للاستعمار الفرنسي دون مبالاة بما قد يلحقه به من الأذى، ما دام الأمر يتعلق بالقضية الوطنية، وساند القضية الفلسطينية، والثورة الريفية. تستمد السلفية أهميتها وأحقيتها بالمناقشة والبحث في هذه اللحظة التاريخية، التي يمر منها العالم العربي والإسلامي، بسبب كثرة المتدخلين في الدين الإسلامي، بحق وبغير حق، عن فهم وجهل، فأدخل فيه بعضهم ما ليس منه، واستغلوه فيما لم يوجد من أجله، واختلط الأمر على الإنسان العادي، الذي وجد

نفسه أمام وضع تجاور فيه التشدد والتطرف، والتسامح والنور والظلام، والتبس الأمر على الباحث عن الصواب والحق التباساً، لم يعد معه بالإمكان التمييز بين السلفية الحققة المستنيرة، ونقصد بها ذلك التيار الفكري، الذي يدعو إلى تحرير الفكر، ويعلي من قيمة العقل، ويكسر قيود التقليد، ويتجه إلى المستقبل، يؤمن بالتطور والإبداع. وبين السلفية الجامدة، المحافظة المتشددة، التي تقف عند ظاهر النص، ترفض التأويل وتغض من قيمة العقل، وتعتمد الجمود والتقليد والدجل والخرافة.

إن السلفية المستنيرة التي نريدها وندعوا إليها، هي التي تروم إعادة تجديد الإسلام الحقيقي، وتحريره من قيود التقليد، وترفض الغلو، وجميع الآلهة إلا الله الحق، وتنزل الإنسان المنزلة التي يستحقها في هذا الكون، باعتباره المالك الحقيقي لهذه الأرض، وخليفة الله عليها، وأنبأ خلقه على الإطلاق. لذلك وجب عليه أداء واجبه، وإتمام رسالته المحصورة في تحقيق كماله في هذه الحياة.

إن السلفية الحققة، هي التي ترى أن العقل لا يتعارض في اكتشافاته مع الحقائق المنزلة بواسطة النبوة. لهذا يجب استعماله في تفسير القرآن، فإن بدا تعارض بينه وبين ما هو معروف الآن، فعلياً تأويله ليتوافق مع ما يراه العقل ويقبله، لأن القرآن تلميح ورمز إلى الأشياء، التي لم يكن بوسع الإنسان عند نزول القرآن أن يشرحها الشرح الوافي، ويدرك تفاصيلها وجزئياتها. أما الآن، وقد بلغ العقل كماله ونضجه، فعليه أن يباشر مهمته ودوره، والكشف عن حقيقة تلك التلميحات والرموز. ويفسر تلك الأمور، شريطة أن يكون عالماً باللسان العربي، متمكناً من أدواته، متمرساً بأساليبه، وعارفاً بسيرة السلف وظروفهم. ومن هنا، فإن باب الاجتهاد ما يزال مفتوحاً، ومن حق الناس، بل من واجبهم اعتماد العقل، والاستفادة من التقدم الذي حققته العلوم والمعارف، واعتماده في تفسير القرآن تفسيراً يناسب قضايا الزمن الراهن. فإن لم يفعلوا، سقطوا في الجمود والتقليد، اللذين يقتلان الدين والخلق والإبداع.

إن الإسلام الحق، هو السعي المسؤول لتحقيق إرادة الله، والإنسان مسؤول أمام الله عن أداء هذه المهمة، وتحقيق الخير للمجتمع، وباستطاعته أن يفعل ذلك إذا حاسب نفسه في ضوء ما يدعو إليه الدين الصحيح الصافي، الذي يميز بين ما هو جوهري أصيل، مما هو دخيل وطارئ، والذي يمكن تغييره بدون حرج، ومن أجل ذلك رأى الإسلام الحق، أن العقل هو بداية السعي إلى المعرفة،

وعليه المعول في إعادة تأويل الشريعة وتكييفها وفقا لمتطلبات الحياة. وبلوغ هذه الغاية، لا بد من الاهتداء بمبدأين سلم بهما الفقهاء، وأعطاهما محمد عبده بعدا جديدا.

الأول: هو مبدأ المصلحة، الذي جعله فقهاء الإسلام قاعدة لتأويل النصوص، واعتبروها غاية الله من الوحي، فهي التي ترعى مصلحة البشر. ومن ثم اختاروا التأويل الذي يحقق هذه القاعدة. إن المصلحة قاعدة لاستنباط شرائع خاصة، من المبادئ العامة للحياة الاجتماعية، لأن الله أنزل المبادئ العامة، وترك للعقل أمر تطبيقها على قضايا المجتمع الخاصة، التي تتغير تطبيقاتها مع الزمن. ولهذا جعل الفقهاء مصلحة البشر العامة، قاعدة مناسبة لكل زمان ومكان.

الثاني، هو مبدأ التلفيق، الذي يجيز للقاضي أن يختار من خارج مذهبه ما يراه مناسباً للظروف التي تُوْطر المجتمع.

في ضوء هذه المبادئ، تصدى السلفيون المتنورون للرد على خصومهم من المتشدددين والمعادين للإسلام، ودحضوا التهم التي ترى أن الدين يقتل الإرادة، ويقيد العقل، وأن التقدم لا يتم إلا بالتخلي عن الدين، أو بفصله عن الدولة.

لم ينتصر الإسلام للسنة على العقل، بل الحقيقة هي أن العلوم العقلية، إنما ازدهرت مع الإسلام، مع العلم بأن العقل ليس مستحبا لدى الجمهور، لأن تعاليمه لا تفقهها إلا النخبة. وفي ضوء هذه المبادئ أيضا، أقبل المسلمون على التراث الأجنبي، واقتبسوا منه، لأنهم أدركوا أن ذلك ليس مخالفا للشريعة. كما اقتنع السلفيون المتنورون، بأن قوة أوربا تكمن في قدراتها العسكرية والاقتصادية، التي تحققت بفضل اعتمادها برامج تعليمية فعالة، واقتنعوا، بأن تخلف البلدان الإسلامية، وانحطاطها وعجزها عن مجابهة الضغوط الممارسة عليها لإخضاعها واستغلال خيراتها، راجع إلى جهلها، وفساد نظمها التعليمية، ولأن مدارسها، لا تملك ما تقدمه لناشئتها مما يفيدهم وينفعهم، ويؤهلهم لاحتلال المواقع الرفيعة في مجتمعهم، ولا توفر لهم شروط العيش في بيئة صحيحة سليمة، يتساوى فيها الرجل والمرأة، ويتمتع فيها الجميع بالحرية التي تعني الاستقلال في التفكير والإرادة والفعل. وارتقت وازدهرت وتفوقت الشعوب الأنكلوسكسونية، وبلغت أرقى مراتب القوة والتقدم بين جميع شعوب العالم، لأنها جعلت التربية أداة لتدريب الإنسان على العيش في العالم الحديث.

ولا بد في النهاية من الإشارة إلى ارتباط السلفية في المغرب بحركة التحرير الوطني، لأن رجالها وروادها سلفيون مناضلون، جمعوا في حركتهم بين إصلاح الدين وتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي، وأنكروا الكثير مما ألفه الناس، وتعودوا عليه في حياتهم العامة والخاصة، وما كانوا يمارسونه ألوان التخلف والانحطاط، الذي تجل في مواسمهم وعاداتهم وتقاليدهم من المنكر والبدع.

وكشفوا حقيقة الطريقين الذين تحالفوا مع المستعمر، وأقنعوا الجميع، بأن الله والدين والتصوف والوطن، بريئون من هؤلاء المشايخ. وأحيوا الحركة الثقافية والأدبية، وجددوا المنظومة التعليمية، وأسسوا المدارس الحرة لتطبيق برامج توافق المشروع الوطني.

في ذكرى سلفي مستنير المصلحون منارات في الطريق

محمد العمري

نظم مركز محمد بن سعيد أيت إيدر للدراسات والبحوث يوماً دراسياً احتفاءً بذكرى شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي، يوم الثلاثاء 04 يونيو 2013. وهو أحد أبرز الشخصيات العلمية الدينية التي انحازت إلى الكفاح الوطني، ثم إلى النضال الديمقراطي.

شاء حسن الطالع أن أترأس الجلسة المسائية من ذلك اليوم، وهي المخصصة للحديث عن شخصية المحتفى به ودوره ودلالة الاحتفاء به. يسرني أن أقدم للقراء الكرام نص الكلمة التي افتتحت بها تلك الجلسة.

قال أبو فراس الحمداني:

سيدكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدر

ولعلي بروح شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي تحلق الآن في أجواء هذا المكان راضية وهي تنشد:

تَذَكَّرْنِي قَوْمِي، وقد جد جدهم، سلامٌ على قومي ما طلعَ البدرُ

المصلحون والفلاسفة، ورجال الفكر عامة، مناراتٌ ومعالمٌ في طريق استكمال إنسانية الإنسان؛ تلتفت إليهم الأجيال، كما يَلْتَفِتُ المسافرون إلى الراسيات نهاراً، والنجوم اللامعة ليلاً، حين يَلُفُّ مسارَهم الغموض والالتباس... حين تزحف الرمال، أو يعم الضباب وتتلاطم الأمواج...

لقد تغيرت الأرض غير الأرض والسموات، وصار بين شيخ وشيخ، وسلفية وسلفية، سنوات ضوئية، بل صارت أحيانا بمسافة ما بين النور والظلام! لذلك كان ضروريا التمييز بالانتساب إلى النور. لقد اختار لنا القدر، نحن المحسوبين على اليسار والحادثة، قبل أن نختار لأنفسنا، أن نكون مع سلفية عقلانية وطنية مناضلة...

حين طرح سؤال: لماذا تقدم الغرب واليابان وتأخر المسلمون، أيام رشيد رضا (تلميذ محمد عبده) وشكيب أرسلان وتلاميذهما جاء على رأس أسباب التأخر، وفي مركزها ومدارها، العلم... تقدم الغرب لأنه استثمر النعمة الأولى التي فضل الله بها الإنسان على سائر الحيوان وهي العقل، وبهذا العلم مَلَأُوا البر وسادوا البحر، وجاسوا بين الكواكب في الفضاء... وكان هذا السؤال حارقا لأنه لم يصدر عن رفاهية فكرية، بل صدر عن جرح كبير: عن احتلال بلاد المسلمين وإذلالهم... كان مرتبطا بالبحث عن أسباب الخروج من ورطة تاريخية، وليس عن اقتسام غنيمة وهمية، كما حالنا اليوم.

ولذلك كان أولئك السلفيون علماء وشعراء أيضا، من طينة محمد بلعربي العلوي والمختار السوسي وعلال الفاسي والحبيب الفرقاني، صاحب "نجوم في يدي". كيف لا يكونون كذلك وقد كانت المسافة بين محمد عبده شيخ شيوخ هذه السلفية وبين قاسم أمين الداعي إلى تحرير المرأة غير ملحوظة، بل لم يكن الطريق مقطوعا حتى مع سلامة موسى...

ولهذا لاحظتم أن المطالبين بإدماج المرأة المغربية في التنمية كانوا يحتجون بمحمد عبده وعلال الفاسي (في قضية التعدد مثلا) وكان "السلفيون الجدد" (الأصوليون) يرفضون اجتهاداتهم ويتهمون القائلين بها بأشنع النعوت، أضعفها العمالة "للغرب الكافر".

حين أتيت فرصة تنسيق كتاب وثائق جيش التحرير الذي أعده وقدمه المناضل العتيدي، أطال الله عمره ومتعته بموفور الصحة، السي محمد بن سعيد أيت إيدر، دهشت حين وجدت التوجيهات والتعبئة للقتال في رمال الصحراء الجنوبية الصعبة تسترجع أجواء الهجرة والنصرة، وتَعِدُّ المقاتلين الصابرين في سبيل عزة الوطن بما وعد الله به الشهداء المجاهدين في سبيل نصره دينه.

ولعل من لم يعيش التطورات التي عرفها المغرب من أوائل الستينيات إلى الآن لا يدرك مكمّن هذه الدهشة. لقد حالت أجواء السبعينيات من القرن الماضي وما بعدها بين جيلنا (والجيل الذي جاء بعدنا أيضا)، وبين إدارك طبيعة الكيمياء التي كانت تجمع إبان التحرير بين محمد بلعربي العلوي وعلال الفاسي والمهدي بن بركة والفقّيه البصري والسي محمد بن سعيد أيت إيدر... تلك الكيمياء التي تصهر القومي والإسلامي والاشتراكي في بوتقة واحدة.

سلفية زمن الشيخ بلعربي العلوي وأمثاله هي سلفية العلم والوطنية والأخلاق. وقد كان من حظّي أن أعاين مباشرة جبهة من جبهات هذه السلفية المواطنة التي نهضت لتعميم التعليم وتعريبه وتخليقه. وقع ذلك حين مدّت جمعية علماء سوس، التي كان يرعاها الشيخ العالم المؤرخ الصوفي الوطني المختار السوسي والعالم المناضل عمر الساحلي، مدت يدها لتتنقل من أدركته من أبناء الجنوب في الكتائب والمدارس العتيقة إلى التعليم الحديث، من الحصر إلى المقعد، ومن اللوح إلى الدفتر. لقد أوقفت قطار التعليم الذي انطلق لتركبنا وقد ظننا أننا أخطأنا الموعد، وفرت لنا المأوى والمأكل، والملبس أحيانا، أحضرت معلم الفرنسية والإنجليزية والرياضيات... إلخ، إلى جانب أستاذ الفقه والتوحيد وتاريخ السنة... إلخ، وها نحن اليوم بفضل أولئك المخلصين لله والوطن نسبح على شبكة الأنترنت (قارن بما يقع اليوم من سعي بعض من يحسب على السلفية لجر مئات الآلاف من الأطفال والشباب خارج المدرسة تحت مسميات سيئة الدلالة (مثل "التعليم العتيق")، أو مضللة (مثل "دور القرآن").

احتفالا بتلك الأجواء واحتفاءً بأولئك الرجال الصادقين أشكر الأساتذة الباحثين على ترحيبهم بالمشاركة في هذا الحدث العلمي الوطني، وأشكر مركز محمد بن سعيد أيت إيدر الذي أبدع وأحسن الاختيار حين اقتنص هذه اللحظة: لقد وضع أمامنا المتفقّ عليه في لحظة سادها منطق التناوب الفكري والسياسي.

شارك في هذه الجلسة الأساتذة: إدريس حمادي، أستاذ علم الأصول الذي اشتهر بدعم إصلاح مدونة الأسرة من منطلق شرعي. وقد ركز على نعمة العقل التي أهلت الإنسان دون غيره من الكائنات لتحمل الأمانة.

والأستاذ الفيلسوف محمد المصباحي صاحب المؤلفات العديدة المفيدة تأليفا وإشرافا. وقد تتبع مسار المواجهة بين سلفية متشددة وسلفية مستنيرة من القديم إلى الآن،

وساهم فيها أيضا الأستاذ مولود عميمر من الجزائر وهو باحث في التاريخ المعاصر. تناول العلاقة بين محمد بلعربي العلوي وجمعية علماء المسلمين بالجزائر، التي اتخذته رئيسا شرفيا لها لما سجلته من علمه ونزاهته وجرأته في الحق،

وساهم فيها أيضا الأستاذ محمد فلاح العلوي أستاذ التاريخ المعاصر. تتبع مواطن اللقاء والاختلاف بين شخصية المحتفى به وشخصية الزعيم الوطني علال الفاسي رحمهما الله،

وختمت العروض بمداخلة الأستاذ عبد العالي العمراني جمال، وهو باحث في اللغة والمنطق، عمل بالمركز الوطني الفرنسي على مدى أربعين سنة (1971 – 2010)، وقد أطل على شخصية محمد بلعربي العلوي من زاوية جديدة بإعادة التأمل، وهي البعد الصوفي الذي تناوله من خلال ترجمته عند أحد أشهر تلاميذه العلامة المختار السوسي.

سيرة مصلح

حسن أوريد

شكرا للسيد رئيس الجلسة، والشكر موصول - خاصة - لمركز محمد بن سعيد أيت ايدر، على هذه المبادرة الطيبة، وعلى استضافتي للحديث في شأن علم من أعلام الوطنية. ولا أشك أن الذي حذا بالمنظمين إلى استضافتي، هو اشتراكي مع شيخ الإسلام في الموطن.

ليست لي سعة معرفة من سبقوني، لكنني سوف أسعى جهد الإمكان، إلى أن أتجاوز هذا النقص، من خلال طرح مجموعة من الأسئلة.

لقد استمعت في بداية هذا اللقاء، إلى شريط يستجوب جيلا جديدا، وتبين أن هذا الجيل، لا يعرف من سبقه ممن بنوا مغرب اليوم، وانتهيت إلى أن العيب، لا يمكن أن يكون عيب هؤلاء، ولذلك ينبغي أن نبذل ما يمكن من الجهد، لنملاَ هذا النقص، لأن الذي يجعل الأمم أمما، إنما هو وعيها بتاريخها، وتكامل كل الحلقات المكونة له. ولا يمكن من منظوري البسيط، أن نملأه بالخطب الإنشائية، أو بالعموميات، بل لابد من معرفة دقيقة متأنية به. وأدرك أن الأمر ليس بالهين، وذلك لأن التاريخ موضع (صدام سياسي). ثم إنه في الحالة التي تعيننا لا تسعفنا المصادر. فالشيخ محمد بن العربي العلوي لم يكتب، أو أن ما كتبه قليل لا يشفي الغليل. لذلك لا مندوحة أن نملأ هذا الفراغ، إسوة بما يفعل الايكولوجي، وأبدأ من موطن النشأة، "مدغرة" وقصر الجديد بالتحديد.

ما هي "مدغرة"؟ جغرافيا: هي مجموعة قصور، منبئة على ضفاف نهر زيز. ولكنها ثقافيا معقل علم، إنها إحدى المعاقل المهمة للمعرفة فيما يسمى تجاوزا تافيلالت. مع أن هناك فرقا دقيقا بينها وبين تافيلالت، التي تبدأ من المعاضيد،

إلى الريصاني. ومن علمائها الأجلاء ابن الطاهر، الذي ورد ذكره، والذي عاشر السلطان أحمد المنصور الذهبي، وكانت له مواقف جريئة.

كما أنها كانت معقل جهاد، لأنها كانت نقطة تماس مع الفرنسيين، مثلما قال آنفا، الأستاذ الكبير مولاي هاشم العلوي. حيث كانت تحرشات الفرنسيين تنطلق من الجنوب. لذلك نهضت هناك حركة مقاومة، قادها شريف من شرفائها قرب لحماة، وكان من اتباع الطريقة الدرقاوية. ولم يكن غريبا آنذاك، أن يشترك التعليم مع الانتماء إلى إحدى الطرق الصوفية، ولذلك كان محمد بن العربي العلوي في أول أمره متصوفا، وحينما ارتحل إلى فاس، لاستكمال معرفته - في ظروف جغرافية، تقدم الأستاذ مولاي هاشم بذكرها، والتي صادفت فترة جفاف - حاملا معه زاده المعرفي، وثقافته الصوفية، وربما حمل أيضا حدة الطبع، المكون الأساسي من مكونات شخصيته. وأعتقد أن هذه العناصر مجتمعة، كانت حاضرة وهو يستكمل تعليمه بالقرويين.

هل التقى الشيخ محمد بن العربي العلوي، بمحمد بن عبد الكريم الخطابي كما أورد محمد الوديع الأسفي في كتابه القيم؟

أنا شخصا أشك في ذلك، ولو أن محمد الوديع الأسفي يقول في كتابه، عن هاته العلاقة: "العناصر الإيجابية التي جعلت منهما - أي محمد بن العربي، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي - أكثر من صديقين مخلصين، يتبادلان الأفكار التقدمية"، وأغلب الظن أنهما لم يلتقيا، ولدي دليل سوف أدلي به من خلال الرسالة التي كتبها محمد بن عبد الكريم الخطابي من القاهرة سنة 1960م، والتي يقول فيها إنه لم يتعرف على محمد بن العربي العلوي.

صادفت إقامة الشيخ بفاس، مرحلة حاسمة من تاريخ المغرب، إنها مرحلة توقيع عقد الحماية. ونعرف أنه شاطر كل أستاذ وطني همومه الوطنية، وبالأخص حينما كان السلاح يتلعلع في الأطالس. ونعرف أنه عين من طرف الإدارة قاضيا بفاس سنة 1915م، مثل ما نعرف ونذكر أنه - بمقتضى معاهدة الحماية - كان هناك توزيع للمهام بين المخزن الشريف، ونواة الإدارة الحديثة.

هناك شيء ربما يتم التستر عليه، وأعتقد أنه يجب أن نقول الحقيقة - ولو أخطانا - كما هي. هذه الحقيقة، هي أن لمحمد بن العربي العلوي رأي آخر فيما يخص الإدارة، أو على الأقل، مثلما كانت تظهر مع اليوطي، ولدينا خطب أو

خطبة على الأقل، ينوه فيها بالإدارة الفرنسية، ويجعل من فرنسا والمغرب أخوين في الرضاة، ويستشهد ببيت أبي الأسود الدؤلي الشهير إذ يقول:

فإن لم يكنها أو تكنه فإنه أخوها غدته أمها بردائها

قد يخرجنا ذلك الآن، وربما أخرج من سبقونا، لكن محمد بن العربي العلوي كان ابن عصره، وربما كان يؤمن بحسن النية - طبعاً - ويعتقد أن فرنسا بمقتضى الاتفاقية، قد تدخل التعديل الذي تعهدت به. ثم كان هناك أسلوب - طبعاً - يقوم على احترام الخصوصية والتقاليد المغربية، أو ما يسمى بالقاعدة، لذلك لا يمكن أن نعيب هذا الأمر، رغم أنه قد يخرجنا الآن. ونعرف أنه بالإضافة إلى مهامه في القضاء، اشتغل بالتعليم. ولنا شهادة من خلال أحد تلاميذه، وهو محمد المختار السوسي، الذي تحدث عنه في الإلغيات، وذكر أنه كان يتأسى على الوضع التعليمي، الذي كان قائماً آنذاك بالقرويين، وكان يعتبر أستاذه محمد بن العربي العلوي، إحدى المنارات المشعة. لأنه لم يكن يكتفي في تدريسه بالحواشي، وحواشي الحواشي، والشروح وشروحات الشروح، بل أدخل تعليماً حديثاً، أو على الأقل جديداً، من خلال تدريسه أمهات الكتب، ككتاب الحماسة لأبي تمام، كما تفضل السيد سينا، والكامل للمبرد، وما كان يسمى بأمهات الكتب، كالشعر والشعراء لابن قتيبة، والأُمالي لأبي علي الفالي، والبيان والتبيين للجاحظ.

اهتم بهذه العلوم، حينما كان التعليم بالقرويين تعليماً عتيقاً. واعتبره المرحوم عبد الرحيم بوعبيد، في شهادته التي قدمها في الذكرى الأربعينية لوفاته، أب الحركة الوطنية.

لا بد من القيام بعمل دقيق، لمعرفة ما إذا كان الشيخ محمد بن العربي العلوي، قد واكب كل المراحل التاريخية، بما فيها مرحلة ما يسمى الظهير البربري، أو الظهير الاستعماري على الأصح، الصادر سنة 1930م، والتي أريد أن أقف عندها، لأنها مرحلة لم تنل ما تستحقه من العناية، ولم يسلط عليها الضوء الكافي لفهمها.

نفهم أن يكون انطلاق الحركة الوطنية من المدين، وتلك حقيقة تؤكدتها الوثائق وشهادات الرجال، الذين اضطلعوا بأمرها، وعلى رأسهم عبد اللطيف الصبيحي، عراب الحركة، التي ناهضت الظهير الاستعماري، وعبد السلام بنونة في تطوان. إلا أننا لا نعتز على اسم محمد بن العربي العلوي ضمن رجال هذه الحركة.

فهل يقدر ذلك فيه؟ لا أعتقد، ربما كان الشيخ أعمق فهما لما قد نسميه المسألة الأمازيغية، إذ لا يمكن أن يكون ابن مدغرة، الذي تدرج في كل الأرجاء التي تعايش فيها الأمازيغ والعرب، غير واع بهذه الخصوصية، ولو كان هناك تغيير فلن يحسب عليه بل لصالحه.

هناك محطة أساسية في حياة الشيخ، هي التي تشير إلى التحول الذي طرأ على سيرته مع بداية العشرينات من القرن الماضي، والتي حدثت فيها قطيعة مع الطريقة التي تشربها، وحافظ على توجيهاتها إلى أن اتصل بكتابات ابن تيمية، وخاصة كتابه الفرق بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان. وقد امتدت القطيعة لتشمل كل التراث الصوفي، الذي استبدل به التراث السلفي، فأصبح سلفيا متشعبا برؤى قطب السلفية ابن تيمية، الذي كان الشيخ محمد بن العربي العلوي، يردد دائما مقولته الشهيرة: السجن إلى خلوة، والمنفى سياحة، والقتل شهادة.

ما السلفية؟

السلفية هي الرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح، وأصبحت في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20 م تحررية، وإن لم يكن لها مدلول دقيق موحد، يتبناه جميع السلفيين، الذين كانوا مختلفين متباينين في فهمها. فهي عند جمال الدين الأفغاني، وحدة المسلمين، والرجوع إلى الإسلام في منبعه الأول قبل الفتنة، وإعادة بناء ما كان سابقا، أي الوحدة الإسلامية. وتعني عند محمد عبده رفع شأن العقل، وبالضبط نهاية الجمود، من أجل بعث حركية قائمة على أمرين هما:

- العقل وإعلاء شأنه، والتوفيق بين العلم والدين.

- مناهضة الجمود، ومحاربة الاستبداد، ولا يمكن أن تكون دينامية ضد الجمود، إذا لم يتحقق هذان الشرطان، لذلك كانت التربية هي الأساس لإقامة هذا المشروع في نظر محمد عبده.

أما الكواكبي فكان يعني بالسلفية شيئا آخر، هو التقاء الخلافة بالعروبة، وكان طبعا مناوئا للأتراك، لاستهتارهم بالأمر، وعدم تمثيلهم لروح الإسلام. لذلك كتب كتابه الشهير بعد طبائع الاستبداد "أم القرى"، حيث يتصور خلافة جديدة، يؤول أمرها إلى العرب.

هؤلاء الأساطين، الذين أرسوا السلفية لم يكن لهم خلف، وربما كان لهم خلف كما يقال في اللغة العربية، وقد بدأ التحول مع رشيد رضا، حيث لم تعد السلفية روحا بل نصا. إن المشترك بين هؤلاء الأوائل الأساطين، هو الرجوع إلى روح الإسلام، والذي سيقترن مع رشيد رضا بروح النص، بل بمنطوقه، وأحيانا لا يلتقي المنطوق مع الروح، بل يكون التمسك بالمنطوق، أحسن وسيلة للإجهاز على الروح.

لا بد من الوقوف عند محطة هامة في تاريخنا، هي التي قدم فيها الوطنيون عريضة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير سنة 1944م، وكان محمد بلعربي العلوي حينها وزيرا للعدل، فيما يسمى بالهيئة المخزنية، وكما تعلمون فقد قدم الوطنيون عريضة أولى إلى السلطان محمد بن يوسف، ولو أنه كان على علم بمحتواها. ثم قدموا نصا آخر للمقيم العام، ونسخة أخرى للقنصلين: الأمريكي والبريطاني. قدم المهدي بنبركة النص إلى القنصل الأمريكي، وقدم عبد الرحيم بوعبيد النص إلى القنصل البريطاني، ثم دعا السلطان الهيئة المخزنية الى الاجتماع في ذلك اليوم، من أجل دراسة المذكرة أو العريضة، وهي نقطة مفصلية، ولدينا شهادات عن مواقف كل أفراد تلك الهيئة. وفيها نقف على موقف المقرري، الصدر الأعظم الذي التزم الصمت، ولم ينبس ببنت شفة. في حين قال التهامي الكلاوي للسلطان: "احنا وراك" فأجابه السلطان "لا أريدكم أن تكونوا وراي، بل أريدكم أن تكونوا بجانبى" ثم شهادة محمد بن العربي العلوي، الذي غلبته دموعه وهو يقول: هذا يوم عظيم، يوم أمكنني أن أرى فيه شعبنا يطالب بالاستقلال والتحرر.

ثم دعي أعضاء الهيئة المخزنية الى الإقامة العامة، للإدلاء برأيهم في الموضوع، الذي تهمنا فيه شهادة محمد بلعربي العلوي، الذي قال لمدير الشؤون السياسية والداخلية والى فاس، وكان يحسن اللغة العربية: "أنا ماشي قرد، انتهت الفترة التي كنا نأتمر بها كانت الإدارة الفرنسية قملية علينا، نحن أحرار، ونرفض أن نكون قردة، نقوم بدور يملى علينا". يمكنكم أن تتصوروا مآل من يناهض الإدارة، فقد أقيل الشيخ من منصبه كوزير للعدل، ونفي أول الأمر إلى لقصابي، بين ميدلت وقصر السوق، ثم نفي بعد ذلك إلى مدغرة، غير بعيد عن القصر الجديد الذي ولد فيه، وصاحبه في هذا المنفى ابنه مصطفى، وصادف فترة جفاف، حيث كانت الظروف مأساوية آنذاك، وحيث أمضى هناك زهاء سنتين، قبل أن يفرج

عنه، ويعود إلى فاس ليتابع التدريس، ويطلب منه أن يتعد عن الخوض في الشؤون السياسية، فكان جوابه: إنه "لا يمكن في الإسلام، أن نميز بين الدين والسياسة " كان موقفه مناوئا لما كانت الإدارة الاستعمارية تقوم به، أو تريده منه في هذا الشأن.

لا بد من الإشارة إلى شيء أساسي في مسيرة هذا الرجل، وهو المتعلق بدعوته الى ضرورة إشراك المرأة في الحياة العامة، وهي دعوة ستكون مقبولة وطبيعية، لو كانت صادرة عن المهدي بنبركة، باعتباره شابا متشبعا بالفكر الغربي، ولكنها حين تصدر عن عالم من علماء القرويين، فذلك أمر مثير للجدل مستأثر بالاهتمام.

نعرف الكثير من مواقف الرجل فيما يخص المرأة، أو فيما يخص الدروس التي كان يلقيها في مدرسة للا مليكة الحرة، لكن المسألة لم تكن مرتبطة بالتعليم فقط، بل كانت مرتبطة بشيء يعد الآن عاديا، إنها مسألة السفور، التي تعنى خروج المرأة الى الشارع سافرة، وهي مسألة كانت تعتبر ثورة آنذاك. ولعل المتتبعين والدارسين، يتذكرون الثورة التي أقدمت عليها الفتاة المصرية "هدى شعراوي"، حينما خرجت سافرة في ما يسمى الآن ميدان التحرير، والذي كان يسمى ميدان اسماعيل باشا.

نجد الرجل في محطة أخرى، هي التي أقدمت فيها الإدارة الاستعمارية على عزل السلطان محمد بن يوسف، ودعت الجميع إلى بيعة من كان يسميه الوطنيون "الدمية" محمد بن عرفة، وكانت الإدارة الاستعمارية، تريد أن يكون محمد بن العربي العلوي، أول الموقعين على وثيقة البيعة، لكن موقفه كان واضحا حين قال: إذا أراد الفرنسيون أن أوقع على هذه البيعة، فما عليهم إلا أن يبتزوا يدي، إن كان يمكنها أن توقع، أما أنا فلن أوقع. وأعتقد أن الصورة لها قيمة بلاغية للتعبير عن الإباء وقوة البديهة، وكان من جراء ذلك أن نفي الى تزنيت.

لكن المرحلة الأساسية في سيرة الرجل، هي مرحلة الاستقلال، حينما انتفض عامل قصر السوق سنة 1957م، وكان هذا الحدث امتحانا عسيرا للدولة الفتية، والذي صادف رحلة محمد بن يوسف إلى إيطاليا، وكان الحسن الثاني آنذاك وليا للعهد، ويقوم مقام الملك. هذه المحطة، يلها الكثير من الغموض، ولا نعرف الكثير عنها، إلا أن ما يهمنا فيها، هو ما قام به محمد بن العربي العلوي،

لإيجاد حل لهذه المشكلة، التي انتدب لها، باعتبار معرفته بالمنطقة، إلى جانب الجنرال الكتاني، ومدير ديوان ولي العهد آنذاك محمد عواد.

انتدب الشيخ من أجل منح الأمان لعدي وبيهي، لكن الأمور سارت في مجرى آخر، ولم يؤخذ بالأمان الذي منح لعدي وبيهي. ولا أعتقد أن هذا الأمر، لم يؤثر في نفسية شخصية مثل محمد بن العربي العلوي، الذي يعرف معنى الكلمة حين تعطى، وما معنى ارتباطها بثقافة معينة

في سنة 1959م، تم توقيف بعض أفراد جيش التحرير وتقديمهم إلى المحاكمة، وكان رد فعل محمد بن العربي العلوي، أن قدم استقالته كوزير للتاج، ثم ذهب إلى بيته في طريق عين الشقف بفاس، ليعتني بمشروعه الفلاحي البسيط، الذي كان يعيش منه، والذي تعبر عنه صورة مشهورة، أخذت له مع دجاج مزرعته المتواضعة.

مثل هذه المواقف الجريئة، لم تكن غائبة عن شخص مثل محمد بن عبد الكريم الخطابي، الذي كان يتابع الوضع عن كثب، فكتب له يقول: "وكما عرفنا عنكم الشيء الكثير، معرفة تتفق ومواقفكم، وما تسدونه من النصائح والإرشادات والتوجيهات لأبناء الأمة المغربية الأبية". ويقول دوماً، "إن الأمة هي صاحبة الحق والكلمة الأولى والأخيرة، في كل ما يهم البلاد وأبناء الشعب، فنحن لا نقبل كأبناء أمة واحدة، أن تدبر وتحاك في الخفاء مؤامرات ضد بلادنا،" إلى أن يقول: "أما عشرات الآلاف من أبناء الأمة المغربية، الذين تعج بهم السجون والمعتقلات الجهنمية في طول البلاد وعرضها، يعذبون ويجوعون، لا لمعصية ارتكبوها، ولا لجريمة ضبطوا بها، إلا أنهم يعارضون بقاء جيش الاحتلال في البلاد، وذلك شيء تتقزز منه النفوس. وكم حاولنا عبثاً أن تحل مشكلتهم، فكان ما نراه اليوم من ازدياد البطش والتنكيل، لأسباب مختلفة ومصطنعة، لا أساس لها من الصحة. وعلى كل، فالمغرب في حاجة ماسة إلى من ينقذه، في حاجة إلى مرشدين وموجهين، وليس من هو أجدر منكم للقيام بهذا الواجب، فسيروا على بركة الله."

آخر محطة، هي التي عبر فيها الشيخ محمد بلعربي العلوي، عن موقفه من دستور 1962م، ومباركته ميلاد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، الذي اعتبره مكوناً من مكونات الإسلام. كان موقف الشيخ من الدستور جريئاً، لأنني لا أعرف رجلاً من داخل البلاد، أو عالماً كان له موقف أجراً من موقف محمد بلعربي

العلوي. طبعا لم تكن مرجعيته منتسكيو، بل كان ينطلق من الشريعة الإسلامية، ويعتبر أنه يمكن أن تكون هناك نقاط التقاء، بين مرجعية دينية ومرجعية حديثة. وقد بنى محمد بلعربي العلوي موقفه على ثلاثة عناصر هي: الأول: نعم. لقد أحسن واضعوا الدستور بالتأكيد على أن المغرب أمة إسلامية، وهم لا يزدون إلا أن يقرروا واقعا، الثاني: فيما يخص التشريع، فلا يمكن أن يكون للحاكم وفق الشريعة وله قواعد مضبوطة.

الثالث: وكان جريئا فعلا، ويتعلق الأمر بتداول السلطة، ليس لدي النص الذي يمكن لمن يريد أن يطلع عليه الرجوع إليه في مظانه، وأعتقد أنه موقف جر عليه العديد من المتابع، وتعرض على إثره لحملة شنيعة في قنوات الراديو، واتهم في سلامته العقلية. ولكن الشيء الثابت أنه لقي ربه مطمئن القلب، قوي العزيمة، وكان من وصاياه أن يدفن في موطنه الذي ولد فيه " لقصر الجديد " وألا يبنى عليه إسوة بساكنة مدغرة.

قبل الختام أود أن أتوقف عند مسألتين:

المسألة الأولى هي أن الرجل لم يكتب، وليس عيبا ألا يكتب، هناك رجالات لم يكتبوا وأثروا في مجتمعاتهم، فسقراط لم يكتب، وجمال الدين الأفغاني لم يكتب، لكن العيب ألا يكتب عنه.

والمسألة الثانية في مسيرة هذا الرجل، هي إيمانه بالشباب، حيث أدرك أن لكل جيل نهاية، وعلى هذا الجيل أن يسلم المشعل، لذلك استثمر في الشباب. لا يسعني في الأخير إلا أن أهنيئ مركز محمد بنسعيد أيت ايدر على هذه البادرة، وأستسمح في قراءة بيت لمحمد الوديع، من قصيدة تلاها في مناسبة الذكرى الأربعينية على وفاته إذ يقول

ذكرى العظيم يقيمها الأحرار ويحيطها الإجلال والإكبار
وهذه الندوة يحيطها الإجلال الاكبار.



شيخ الإسلام يتوسط هيئة تسيير المؤتمر الوطني الثاني للاتحاد الوطني للقوات الشعبية (ماي 1962)

الشيخ محمد بلعربي العلوي زمن الاستقلال

الموساوي العجلاوي

لا يمكن أن نفهم كل ما قيل وما سجل حول شخصية شيخ الإسلام، محمد بلعربي العلوي دون طرح السياق التاريخي والسياسي، للزمن الممتد منذ عودة محمد الخامس من المنفى إلى الوطن في نوفمبر 1955، وخطابه في 18 نوفمبر 1955م، إلى غاية وفاة شيخ الإسلام، في يونيو 1964م. زمن عرف فيه المجتمع المغربي صراعا سياسيا وفكريا واجتماعيا بين توجهين، الأول يروم بناء اقتصاد جديد مخطط، والثاني توجه يريد الحفاظ على التوازنات القائمة آنذاك مع فرنسا، التي كانت تخوض حرب بقاء في الجزائر بصفة خاصة وفي شمال غرب إفريقيا بصفة عامة. سياق تاريخي عرف أيضا الخطوات الأولى لبناء المؤسسات الوطنية الاقتصادية والمالية والاجتماعية والدينية.

في الزمن الذي يغطي مرحلة عودة محمد الخامس في نوفمبر 1955م الى وفاته في فبراير 1961، طغى خطاب يؤشر لتحول المؤسسة الملكية على مستوى الخطاب السياسي، ودخول مفاهيم جديدة إلى الساحة السياسية المغربية. مفاهيم تمحورت حول نمط الحكم والدستور وفصل السلط وطبيعة المؤسسات المراد بناؤها، مرحلة ستؤثر أيضا في المسار الذي ستأخذه المؤسسة الملكية بعد إعفاء حكومة عبد الله إبراهيم في ماي 1960 ووصول الملك الحسن الثاني إلى

الحكم في 1961م، وبروز إشكالات جديدة ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا، كإشكال العلاقة بين المؤسسة الملكية والأحزاب السياسية، وعلاقة المؤسسة الملكية بالنخب. هذه السياقات كلها، تاريخية وسياسية واجتماعية ودينية، لا يمكن أن تنفصل عن مواقف شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، الذي تفاعل مع زمنه، فترك بصمات واضحة في القضايا المفصلية التي عرفها المغرب بعيد استقلاله. يمكن أن نميز بين مرحلتين في مسار شيخ الإسلام في مغرب الاستقلال، الأولى تمتد من عودة محمد الخامس في نونبر 1955 إلى إقالة حكومة عبد الله إبراهيم في ماي 1960، والثانية من صيف 1960 إلى وفاته في يونيو 1964

I - مرحلة نونبر 1955 - صيف 1960

تمتد المرحلة الأولى من تكوين أول حكومة في تاريخ المغرب، في دجنبر 1955، وهي حكومة البكاي الأولى، إلى 26 فبراير 1960، حين تم الإعلان عن اعتقال مجموعة من قادة جيش التحرير والمقاومة، وبالأخص قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية آنذاك. هذه المرحلة برز فيها شيخ الإسلام كمصلح، وكشخصية لها تأثير. وظهر ذلك في موقفه من "أزمة تافيلالت" وقضية عدي ويهي، ومسألة حضوره في أول لجنة لكتابة مدونة الأسرة، وانسحابه منها، ثم أيضا حضوره في لجن التطهير، أي تطهير الإدارة والجيش والأمن من المتعاملين مع الاستعمار، وأيضا طرد الضباط ورجال الشرطة والجيش الفرنسي من المؤسسات الأمنية المغربية. في هذه المرحلة تولى شيخ الإسلام أمور وزارة التاج وكان مستشارا للملك، وكان له دوره أيضا في تنصيب "مولاي الحسن" وليا للعهد. والملاحظ أن الرجل انخرط في هذه الفترة في هموم "الاستقلال" من حيث المسؤوليات التي تقلدها وأيضا على مستوى مساهماته الفكرية والدينية والسياسية في القضايا التي شغلت بال المجتمع آنذاك وما أكثرها.

II - مرحلة فبراير 1960 إلى يونيو 1964

وتميزت هذه الفترة، وهي غنية من حيث إنتاجات شيخ الإسلام في سياق ارتفاع التوتر بين "القصر" والاتحاد الوطني للقوات الشعبية، واستقالة شيخ

الإسلام من وزارة التاج بعد اعتقال قادة المقاومة وجيش التحرير (14-16 فبراير 1960)، وبداية مسلسل العنف والعنف المضاد في عدد من المدن المغربية. وقد تعددت المحطات التي برز فيها شيخ الإسلام في هذه الفترة، لكن سنكتفي بثلاث منها:

1- اعتقال قيادات من جيش التحرير والمقاومة

تميزت هذه المحطة باعتقال قيادات الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وجيش التحرير، والتي رأى فيها شيخ الإسلام خطأ تاريخيا كبيرا، وربط بين هذه الاعتقالات ومسألة الاستقلال والحرية، كما استقبل مجموعة من الطلبة والشباب بمنزله بفاس، غداة اعتقال هذه القيادات، وقدم استقالته التي نشرتها جريدة الرأي العام، التي بدأت تصدر بعد اعتقال محمد البصري، وعبد الرحمان اليوسفي في 14 دجنبر 1959، وحجز جريدة التحرير في 16 دجنبر 1959.

نشرت جريدة الرأي العام بتاريخ 10 مارس 1960 خطابه عند استقباله مجموعة من الطلبة والشباب، فقال لهم بشأن اعتقال عدد من المقاومين: "إن المؤامرة ضد المقاومين ليست إلا مكيدة استعمارية للإيقاع برجال المغرب الذين ينتظر منهم تحقيق الجلاء كما حققوا الاستقلال، فالطريق الآن هي طريق الاتحاد لأننا في دعوتنا الوطنية لم نقل منذ سنين كلمة أقوى من الاتحاد ولا أقرب للواقع الذي يرغب فيه الشعب، وإن أبعدته ميول ونزعات تكتسي تارة صبغة عاطفية وأخرى مصلحة وآونة أخرى تعتمد على خوف أو حيل (...). وكل هذه الصفات عنصرية وليست بوطنية ومجدنا لا ينبغي ولا ينبغي أن يرتكز على ركائز عنصرية، بل على متين العلاقات الدينية والوطنية التي تقربنا من إخواننا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهي الصفة الحية التي نستطيع بها بناء مجدنا وتقوية دعائم المحبة فينا...".

وذكرت جريدة الرأي العام أن شيخ الإسلام دعا للشعب المغربي بالنصر وإحباط كل المناورات التي تحاك ضد الأحرار، كما حث على التمسك بالصبر والثبات في العقيدة لأنها عقيدة الإسلام والمسلمين.

وتبنى شيخ الإسلام في نفس السياق التاريخي الطرح الذي أصر على جلاء القواعد الأجنبية من التراب الوطني، كما استحضر باستمرار معركة الجزائريين من أجل استقلال بلادهم عن فرنسا.

وفي زيارة لوفد من الاتحاد المغربي للشغل لمنزل شيخ الإسلام يوم 1 أبريل 1960، ركز في خطابه أمام الوفد على أن الاتحاد مطابق لروح الإسلام وأهدافه السامية. وأضاف " الإسلام هو الحرية وهو الاتحاد، وأن كل من أنكر الحرية أو الاتحاد فهو منافق، وكل من يستعمل الدين لتضليل الناس فهو منافق...".

توالت تصريحات شيخ الإسلام تعقيبا على التوتر السياسي القائم، وفي اجتماع حزبي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية بفاس في شهر غشت 1960، نقلت جريدة الرأي العام فقرات من خطابه أمام مناضلي الاتحاد الوطني، تمحورت كلمة شيخ الإسلام حول وحدة الصف وبين مزايا الاتحاد وقال "الاتحاد يمكن أن تصدق عليه الآية الكريمة: " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه"¹.

كما حضر شيخ الإسلام أشغال المجلس الوطني للاتحاد الوطني للقوات الشعبية والمنعقد في يونيو 1961، وكان محطة بارزة في الصراع بين الاتحاد والملك الراحل الحسن الثاني.

ويمكن إجمالا القول بأن خطب ومواقف شيخ الإسلام في هذه الفترة ارتكزت على نحت مفهوم الاستقلال كما كان يراه الرجل، والانتصار للمظلوم، وحضور ثنائية الوطني والديني.

2- محطة المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ماي 1962

تبرز هذه المحطة توطد العلاقات بين شيخ الإسلام والاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وتعدد اللقاءات بين الرجل وقيادات الاتحاد خاصة ببيته بفاس، إضافة إلى حضوره لاجتماعات نقابية وسياسية. بيد أن أهم الأحداث في "المسار

¹ - " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" الآية 23 من سورة الأحزاب.

السياسي" لشيخ الإسلام هو ترؤسه للجلسة الافتتاحية للمؤتمر الثاني للاتحاد الوطني الذي انعقد بالدار البيضاء، وكان ذلك باقتراح من الكاتب العام للاتحاد المغربي للشغل، المحجوب بن الصديق. وقد تحدث شيخ الإسلام في هذه الجلسة عن "الاتحاد الوطني للشغل" و"الاتحاد المغربي للقوات الشعبية" وهو حديث ذو مغزى في عز الصراع بين الجناحين النقابي والسياسي داخل الاتحاد الوطني. ونقلت جريدة التحرير يوم 26 ماي 1962 فقرات من خطابه جاء فيها: "إن المؤتمر ناجح لا محالة، موفق لا محالة، مادام رائده هو الحق والعدل والصدق والإخلاص. إن المسلم لا يدين بالعبودية إلا لواحد أحد هو خالقه، وأنه غير مدين بالعبودية لغيره، أيا كان هذا الغير، حتى ولو كان نبيا أو ملكا، فضلا أن يكون بشرا كسائر البشر". وأضاف شيخ الإسلام أمام المؤتمرين، إن الدين الإسلامي لا يضع أي فرق بين الناس على الإطلاق. وتابعت جريدة التحرير تغطية خطاب شيخ الإسلام، إن الرجل أفاض في الحديث عن الاتحاد وعن ضده أي التفرقة مفصلا الحديث في الصفات التي يجب أن يتحلى بها الاتحادي الحقيقي، وختم شيخ الإسلام كلمته بشكر المؤتمرين والدعاء لهم بالنجاح والتوفيق.

وقد تضمن العدد الخاص من جريدة التحرير حول المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني، حين كان محمد البصري مديرها وعبد الرحمان اليوسفي رئيس تحريرها، عنوانا اختار من كلمة شيخ الإسلام ما يلي: "سيدنا" (وضعت بين مزدوجتين) هو خالقنا، و لا عبودية علينا لأي مخلوق كيفما كان". وفي ذلك إشارات متعددة في سياق التوتر الذي انعقد فيه المؤتمر الثاني. ولا يمكن هنا الحديث عن شيخ الإسلام قياديا داخل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، بقدر ما يتعلق الأمر بتقاطع مساري الاتحاد وشيخ الإسلام في هذه المرحلة التي أعقبت إعلان استقلال المغرب. وكانت كلمته أمام المؤتمر رسائل متعددة للجميع بمن فيهم قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. ويمكن أن تأخذ هذه الرسائل بعدا سياسيا في إطار تاريخ المغرب الراهن. تمحور خطاب شيخ الإسلام في هذه المحطة حول مفاهيم كالحرية والعبودية وما بينهما والحق والعدل والصدق والإخلاص والاتحاد والتفرقة.

3- محطة الاستفتاء على الدستور 1962

برز شيخ الإسلام إبان طرح دستور 1962 للنقاش العمومي بانتصاره لمواقف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، في سياق أصدرت فيه الكتابة العامة للحزب بيان المقاطعة، وأصدرت دراسات بالعربية والفرنسية تصف فيه دستور 1962 بـ "دستور للحكم المطلق"، وعدد خطاب الاتحاد مخاطر دسترة الحكم المطلق. ووظفت في معركة الاستفتاء كل الأوراق، بما فيها الورقة الدينية. وهنا يكمن دور شيخ الإسلام في مساندة الاتحاد الوطني، إذ نشرت جريدة التحرير بتاريخ 25 نونبر 1962 تغطية لمواقف شيخ الإسلام من مسودة الدستور، إذ انتقد الرجل طريقة تحضير مشروع الدستور، وانتقد مضمونه أيضا، موظفا في ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ودعا في نهاية كلامه إلى مقاطعة الاستفتاء على الدستور، وهو موقف يحيل إلى ما تبناه الجناح السياسي داخل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية من الدستور، علما أن عبد الرحيم بوعبيد قاد الحملة السياسية لمقاطعة الدستور، وهذا ما يفسر تعرض شيخ الإسلام وبوعبيد إلى حملة عنيفة من لدن زعامات سياسية مغربية أخرى.

خلاصات

يطرح تقاطع مساري شيخ الإسلام والاتحاد الوطني للقوات الشعبية عمق العلاقة بين الطرفين إن على المستوى الفكري والسياسي والديني، إذ نجد تقاربا بين الشيخ والحزب على أكثر من مستوى. وتمحورت أدبيات الاتحاد الوطني حينها حول تحقيق العدالة الاجتماعية، وأن الشعب يجب أن يكون مصدرا لجميع السلطات، وطالب بإنجاز الإصلاح الزراعي وإنصاف العمال والكادحين ومساندة الشعب الجزائري في معركته ضد الاستعمار.

دعا شيخ الإسلام أيضا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة الحق ومقاومة الباطل والدعوة إلى خير الناس وصلاحهم وإلى العدل والمساواة، وأعطى شيخ الإسلام للاستقلال مفهوما يرتبط بالحرية والانعقاد من الاستعمار، وهو الإشكال الذي ظهر إبان انقسام المجتمع المغربي أمام مسألة توقيت جلاء الجيوش الأجنبية من التراب المغربي، ومدى الاستقلال عن القوى الكبرى آنذاك. كما ربط شيخ الإسلام بين معركة المغاربة ومعركة تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي.

اتسمت المرحلة الممتدة من فبراير 1960 إلى يونيو 1964 بتقاطع بين هيئة سياسية برزت في منعطف تاريخي سياسي هام في تاريخ المغرب مع شخصية لها ثقل روحي وديني. زاوجت شخصية شيخ الإسلام بين مبادئ الحرية والعدل وبين سلفية تدعو إلى تحرير الانسان والوجدان ورفض التسلط ومقاومة الظلم.

وقد تمتع شيخ الإسلام بقوة تواصلية كبيرة، فإلى جانب الجرأة ووضوح الفكرة، كان الرجل يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبأحداث التاريخ وبالشعر والأدب. ولم يكن شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي عالما بل كان أيضا مصلحا، جمع بين قضايا التدين والشأن السياسي وقضايا المجتمع، وسيرته في زمن الاستقلال هي مرحلة من مراحل المغرب الراهن.

علاقات الشيخ بـرموز السلفية في المغرب العربي

عبد اللطيف الحناشي
أحمد مولود اعويمر
محمد الفلاح العلوي



شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي (من أرشيف العائلة الخاص)

عبد العزيز الثعالبي رائد السلفية المستنيرة في المغرب العربي

عبد اللطيف الحناشي

أولاً: تطور السلفية مفهوماً وممارسة

1- السلفية لغةً ومفهوماً

يعني السلف لغةً الماضي، وكل ما ومن تقدم عن الزمن الراهن الذي يعيش فيه الإنسان¹. وتتضمن عبارة السلفية معنى متحركاً ونسبياً. فكل زمن من الأزمان، ماضٍ بالنسبة إلى الأزمنة التي تأتي من بعده. ويستخدم معنى السلفية، اصطلاحاً، في المجال الإسلامي للدلالة على أفضل العصور وأولها بالاعتداء والإتباع، وهي القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام². وقد ظلّ الغموض يكتنف لفظ السلفية بالرغم من أنها كانت تعني عند البعض، أصحاب الرسول أو أتباعهم ممن تقدموا في الزمن.

1- يعرف ابن منظور كلمة سلف كما يلي "هو من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل ولذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح" ابن منظور، لسان العرب، ط1 بيروت 1956، مجلد9 ص 158

2- عمارة (محمد): السلف والسلفية، مكتبة وهبة القاهرة 2011، ص8

أما من الناحية التاريخية، فلم يستخدم مصطلح السلفية في عصور الإسلام الأولى، كما لا نجد فرقة دينية عرفت بهذا الاسم على شاكلة فرق الشيعة أو المعتزلة مثلاً. وإنما نجد لفظ "السلف" الذي ورد عرضاً في البداية عند أنصار المالكية والحنبلية، وفي سياق المجادلات، التي وقعت بين هؤلاء مع أهل الاعتزال، حول بعض المسائل العقائدية كخلق القرآن. ويظهر أن الإمام أحمد بن حنبل (164-341 هـ)، هو أول فقهاء أهل السنة، الذي ردد ذكر عبارة السلف¹. وقد عرف هذا المصطلح تطوراً، إذ أخذ يتضمن أبعاداً جديدة. فبعد سقوط بغداد على أيدي التتار، سنة 656 هـ حمل ابن تيمية (665-728 هـ) ومدرسته، أهل البدع مسؤولية الكارثة، التي حلت بالمسلمين. ومع ابن تيمية، اكتمل نضوج ما يعرف بالسلفية التاريخية، واتضح المنهج بقواعده وقضاياه².

2- السلفية في الممارسة:

أ- السلفية البدوية:

على أن أكبر تطور لحق هذا المفهوم، كان على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1703-1791). إذ أصبحت السلفية تعبّر عن اتجاه مذهبي ذي بعد سياسي داخل الفكر الإسلامي، نتيجة ارتباط دعوة ابن عبد الوهاب بآل سعود. كما أدخلت الوهابية بعداً جديداً على السلفية التاريخية، فأصبح المفهوم يشمل الصحابة والتابعين، وأهل الحديث وعلماءه كابن تيمية، وابن القيم الجوزية، وبذلك أضافت بعداً زمنياً عليها³.

ركز الشيخ عبد الوهاب دعوته على التوحيد، ورفض فكرة الحلول، وشدد على تأكيد مسؤولية الإنسان، ومنع التوسّل بغير الله. وبادر بالدعوة إلى الجهاد، وحارب الكثير من البدع التي كانت منتشرة في أيامه، وخاصة الطرق الصوفية، التي اهتمها بالشعوذة والخرافة. كما هاجم القياس، وأعرض عن

1- عبد الغني (عماد): الحركات الإسلامية في لبنان، إشكالية الدين والسياسة في مجتمع متنوع، دار

الطلیعة، بیروت، 2006، ص265

2- المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

3- المرجع نفسه، ص268

التأويل في فهم النصوص وتفسيرها¹. وتحولت الوهابية في زمانه، إلى دعوة إصلاحية "طهرية". فانتشرت في شبه الجزيرة العربية وأطرافها، وفي أقطار المشرق العربي. أما في بلاد المغرب العربي، فكان وجودها أو انتشارها محدودا. إذ رفضها علماء الزيتونة بتونس، في حين رحب بها السلطان سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي (1792-1822)².

ب- السلفية الحديثة أو المستنيرة:

ويقصد بالسلفية الحديثة³، تلك السلفية التي ارتبطت بالحركة الإصلاحية الإسلامية، في إطار حركة النهضة العربية في النصف الثاني من القرن 19م، والربع الأول من القرن 20م، والتي تزامن ظهورها مع انهيار الدولة العثمانية، واحتكاك العرب بالغرب. ومع بدء المرحلة الاستعمارية، ومحاولة رموز هذه السلفية المزوجة بين الإرث الوهابي من جهة، والنزوع العقلاني المتأثر بالعلوم والمعارف الغربية من جهة أخرى. وقد عبّر عن هذا التوجه في المشرق العربي، جمال الدين الأفغاني (1838-1897م)، ومحمد عبده (1849-1905م)، ومحمد رشيد رضا (1898-1935). وأكد أصحاب هذا الاتجاه، على ضرورة تأويل

1- عمارة (محمد): السلف والسلفية، مرجع سبق ذكره، ص 65

2- الرديسي (حمادي) و نورية (أسماء): الرد على الوهابية في القرن التاسع عشر نصوص الغرب الإسلامي نموذجاً، دار الطليعة، بيروت 2008، ص 335

أرسل بن عبد الوهاب 3 رسائل إلى كل من المغرب وتونس

- "ورقة الوهابي الواردة من المشرق"، وكتاب "القواعد الأربعة" و "كشف الشبهات".
- رسالة في الرد على الوهابي "لابي حفص عمر بن قاسم المحجوب" ((توفي سنة 1807)
- "المنح الإلهية في الرد على الوهابية" لإسماعيل التميمي (1765-1833)،
أما الردود المغربية فكانت أربعة وهي:
- "الرد على الوهابيين" للطيب بن كيران (1758-1812)
- "رسالة المولى سليمان إلى سعود" من وضع الطيب بن كيران (1811)
- "رسالة في الرد على مبتدعي أهل البدو وناحية الشرق"
- "قصيدة الشيخ حمدون بن الحاج الفاسي"

3- أطلق بعض المستشرقين و منهم شارلز آدمز ولاوست على حركة جمال الدين الأفغاني هذه التسمية باعتبارها حركة إصلاحية تنطلق من إصلاح العقيدة بالرجوع إلى السلف الصالح

النص عن طريق العقل، (عكس سلفية ابن عبد الوهاب)، وذلك بالتركيز على نظرية المقاصد الشرعية في الفقه، كما أطلقوا حركة اجتهادية، تتفاعل مع متغيرات حياة المسلمين وعصرهم، لذلك تم إطلاق عدة توصيفات على هذه السلفية، من ذلك السلفية العقلانية المستنيرة¹ أو السلفية الوطنية². ومن أهم الأفكار والمبادئ التي نادوا بها، وحاولوا نشرها وتكريسها نذكر:

- إن نهضة العرب والمسلمين، لا يمكن أن تتحقق بدون الرجوع إلى أصول العقيدة الدينية الصافية، واستلهاهم السلف الصالح أيام الصحابة.
- " تحرير الفكر من قيد التقليد، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشري، التي وضعها الله لتحد من شططه".
- امكانية الاقتباس عن الغرب، دون أن يمنعهم ذلك من الدعوة إلى مقاومة الاستعمار الأوروبي بوجهيه السياسي والثقافي.
- إصلاح المؤسسات التعليمية الدينية، كمدخل أساسي للتجديد والإصلاح الديني، مع ضرورة إدخال العلوم الوضعية والطبيعية في مناهج المؤسسات التعليمية الدينية³.

ثانيا : السلفية الوطنية المستنيرة في المغرب العربي:

انتشرت السلفية في المغرب العربي في فضاء حضري، وكانت سلفية دينية، وشيئا فشيئا اتخذت أبعادا أخرى، فتحولت من فكرة دينية خالصة، إلى حركة دينية ثقافية، ذات أبعاد سياسية، أو سياسية على خلفية ثقافية دينية، وأداة لمقاومة الاستعمار الغربي على المستوى السياسي والثقافي، بتفاوت من قطر إلى

1- يعود هذا المصطلح للأستاذ محمد عمارة انظر: عمارة(محمد): السلف والسلفية..مرجع سبق ذكره ص 70

2- يستخدم هذا المصطلح في المغرب الأقصى خاصة

3-جدعان(فهمي):أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت 1979، ص151-152

آخر¹ حيث برز في المغرب الأقصى، عدد من الأعلام، منهم أبو شعيب الدكالي (1878-1937)، ومحمد بن العربي العلوي (1880-1964)، ومحمد علال الفاسي (1910-1974). وبرز في الجزائر ابن باديس (1889-1940)². أما في تونس، فقد كانت هذه السلفية الوطنية أقدم زمناً، وأكثر ترسخاً وتمهداً وتطوراً في البداية من باقي أقطار المغرب العربي، وذلك لعدة عوامل منها:

- بروز حركة إصلاح وتحديث في وقت مبكر نسبياً، خاصة في عهد أحمد باشا (تولى الحكم 1837-1855) فأنشأ المدرسة الحربية (1840م) بباردو، التي أدمجت في مناهجها العلوم الحربية والعلوم الأخرى، كالهندسة والرياضيات والجغرافيا واللغات (الفرنسية والإيطالية)³.

- مشروع خير الدين باشا (1822-1890م) صاحب كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، الذي رأى، أن هناك فرقاً شاسعاً بين حال العالم الإسلامي، وبين الغرب على صعيد العلوم. وأن هذا التأخر، يمكن تداركه انطلاقاً من التعليم، الذي يتطلب إصلاحاً جذرياً، وتجديداً مستمراً، بما يتوافق والعصر الذي تعيشه المجتمعات⁴.

- دور جامع الزيتونة، الذي يعتبر أقدم جامعة في العالم الإسلامي، وأول جامعة في العالم تمنح الشهادات العلمية لطلبتها، وهو الذي أشاد بدوره الشيخ محمد عبده (1849-1905)، عندما زار تونس أول مرة سنة 1883، فقال: "إن أهل تونس سبقونا [يعني نحن أهل الأزهر] إلى إصلاح التعليم، حتى كان ما يجرون عليه في جامع الزيتونة خير مما عليه أهل الأزهر"⁵.

1- الجابري (محمد عابد): وجهة نظر، نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ط2، بيروت 1994، ص 43-45

2- جماعي: الحركة السلفية في المغرب العربي، ط2، دار الأمان الرباط 2010
3 - Khalifa (Chater): L'école militaire du Bardo : l'émergence d'une élite nouvelle ? <http://www.khalifa-chater.com/>

4- التونسي (خير الدين): أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، الدار العربية للكتاب، تونس 1998، ص 331

5- جولييان (شارل اندري): المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ص 49

- دور المؤسسات التعليمية، ومنها "المدرسة الصادقية"، التي تأسست سنة 1875، وبعد الاحتلال ظهرت "الجمعية الخلدونية"، التي شارك في تأسيسها سنة 1896م نخبة من التونسيين¹.
- دور الصحف الوطنية التونسية، ومنها الرائد التونسي—(1860)، والحاضرة(1888) والزهرة² والجمعيات(الجمعية الخلدونية 1896 وقدماء الصادقية 1906)³.
- توسع حركة الترجمة والتفتح على العالم الخارجي، عن طريق البعثات العلمية الى أوروبا وتركيا.
- وجود نخبة مثقفة فرنسية تحررية، إلى جانب فروع الأحزاب والجمعيات والنقابات الفرنسية بتونس.
- تأثر حركة الإصلاح بتونس، في الثلث الأخير من القرن 19م بالحركة الإصلاحية في المشرق، والتي وجدت في تونس مجالا للانتشار، من ذلك أن "جمعية العروة الوثقى" التي أسسها جمال الدين الأفغاني، عملت على تكوين فروع سرية لها في عدة أقطار ومنها تونس. وحصل التفاعل الحقيقي بين النخبة التونسية، وهذا التيار الإصلاحي، بعد ان أصدر كل من جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده(1849-1905) مجلة "العروى الوثقى" بباريس، وتم إرسال نسخ منها إلى بعض التونسيين⁴، وتدعم وزن التيار الإصلاحي بتونس، بعد صدور مجلة

1 - Sayadi(Mongi): *Aljam'iyya Al Khalduniyya 1896-1958*; M.T.E.Tunis 1974

كانت تقدم ثقافة علمية في وسط المتعلمين و خاصة من خريجي جامع الزيتونة الذين تلقوا تعليما دينيا فقط، فكانت تدرس فيها علوم الجغرافيا و الرياضيات و الحقوق و اللغات.

2- حمدان(محمد): دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية من سنة 1838 إلى 20 مارس 1956، القسم الاول، دليل الدوريات باللغة العربية، بيت الحكمة قرطاج تونس 1989، ص 330

3- وزارة الثقافة، اللجنة الثقافية القومية، ندوة:الثقافة والحياة الجمعياتية والتغيرات الهيكلية في المجتمع التونسي 1896-1956، تونس 1992، غير مرقم

4- الشابي(علي): "صلة النخبة التونسية بجمال الدين الافغاني ودورها في حركة العروة الوثقى"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 11/10، تونس 1978، ص 45

المنار(مارس 1884)، التي كان لها رواج كبير بالبلاد التونسية، كما بين ذلك صاحب الجريدة نفسه¹.

- زيارتاً محمد عبده إلى تونس، الأولى سنة 1884م، والثانية(1903م) الأمر الذي ساهم في تعميق العلاقة بين الحركة الإصلاحية في تونس وتدعيمها وانتشارها. وقد ساعد كل ذلك على بلورة العديد من الآراء والمفاهيم الإصلاحية لدى النخبة التونسية بشقيها الزيتوني والصادقي².

أدت كل تلك العوامل إلى بروز نخبة إصلاحية متميزة، مثل الشيخ سالم بوحاجب (1828- 1924) والشيخ محمد السنوسي (1850- 1900)، وهما من خريجي جامع الزيتونة، والبشير بن مصطفى صفر (1864- 1917) وهو خريج المدرسة الصادقية، والشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي يمكن اعتباره رائد السلفية الإصلاحية الوطنية في تونس والمغرب العربي.

فمن هو الشيخ عبد العزيز الثعالبي؟ وماهي أبرز أفكاره؟

ثالثاً : عبد العزيز الثعالبي رائد السلفية المستنيرة في المغرب العربي³:

1. حياته:

هو من أصل جزائري، ولد بتونس(1876-1944م)، ودرس بجامع الزيتونة، وقضى فيه سبع سنوات (مرحلة التعليم الثانوي بمرحلتيه)، وتخرج منه بشهادة (التطويح) سنة 1896. التحق بالمدرسة الخلدونية، وأقبل على دروس أساتذتها

1- ابن عاشور(محمد الفاضل): الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس 1983، ص 75

2- الشنوفي(المنصف): "مصادر عن رحلتي محمد عبده إلى تونس"، حوليات الجامعة التونسية، العدد الثالث سنة 1966، ص71-102

3- سيهتم هذا البحث بإبراز أهم أفكار الشيخ الثعالبي التي برزت خلال المرحلة الأولى من تطوره الفكري و انخراطه ضمن تيار السلفية المستنيرة والتي عبّر عنها خاصة في كتابه روح التحرر في القرآن (L'ESPRIT LIBERAL du CORAN) الذي صدر بباريس باللغة الفرنسية سنة 1905 ثم ترجم إلى العربية. أما الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة فهي: الثعالبي (عبد العزيز): روح التحرر في القرآن، نقله من الفرنسية حمادي الساحلي وراجع و وضع حواشيه محمد المختار السلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، ص 121 .

من المصلحين، مثل سالم بوحاجب، والبشير صفر، وعلي بوشوشة وغيرهم من رواد النهضة الفكرية بتونس.

كتب المقالات في جريدة المبشّر منذ سنة 1892م وعمره 16 سنة، وأصدر سنة 1895م مجلة «سبيل الرشاد» باللغة العربية، وعمره 19 سنة، وهي مجلّة ذات توجه إسلامي وحدوي تنويري تحرّري، ولكنها سرعان ما أوقفت من لدن السلطات الفرنسية، لجرأة محررها ومواضيعها⁽¹⁾.

سافر الشيخ إلى الأستانة مروراً بطرابلس وبنغازي، وانتقل إلى القاهرة سنة 1897م، وتمكّن من توطيد علاقاته بأعلام الفكر العربي والإسلامي الحديث، وفي مقدمتهم محمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبي². وما أن عاد إلى الوطن، حتى شرع في نشر أفكار جديدة، وقال عنه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، بعد عودته من القاهرة: "كان غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم، يتكلم بأفكار الأفغاني وعبده، ويعجب بالكواكبي، ويدعو إلى التطور والحرية وفهم أسرار الدين والوجود، ويغرب بمقالات الحكماء والطبيعيين"³.

لم يغفر له المحافظون من شيوخ الزيتونة وعلمائها، نقده لأفكارهم، ووصفه لهم في أحد مقالاته، التي نشرتها مجلة "المنار" المصرية في 14 أفريل 1903، بأنهم "جاهلون، متكبرون، متغابنون، وهم آلهتنا (...). حديثهم بطونهم، وتدقيقاتهم ومباحثهم خاصة بعجائب التكايا وكرامات القبور، وعلمهم كعلم آلهة الأشوريين، لا يزيد ولا ينقص ولا يتجدّد ولا يتقدم، وهو محصور في تصريف أكل يأكل أكلًا". وقد حاولوا تقديمه للمحاكمة بسبب ذلك، غير أنهم لم يفلحوا، ثم عاود السفر سنة 1903م، فمن تونس توجه إلى الجزائر، ثم إلى المغرب الأقصى، وحاول إصدار جريدتين: واحدة في المغرب، والأخرى في الجزائر بهدف نشر الأفكار التنويرية، غير أنه لم يتمكن من ذلك نظراً لعدم توفر مطابع هناك⁴. وإلى

1- بن ميلاد (أحمد) وإدريس (محمد مسعود): الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية 1892-1940، الجزء الأول، بيت الحكمة قرطاج، تونس 1991، ص 15-16.

2- المرجع نفسه، ص 8

3- ابن عاشور (محمد الفاضل): الحركة الأدبية والفكرية... مصدر سبق ذكره، ص 73

4- لا بد من الإشارة هنا إلى تحمّس الثعالبي، في هذه المرحلة للاستعمار الفرنسي وكان من القائلين بأن الاستعمار يساهم في تطوير الشعوب ويظهر أن زيارته للمغرب كانت بهدف إيجاد قناة لتبرير استعمار المغرب. وقد دعا في كتابه روح التحرر في القرآن فرنسا إلى تحرير الإنسان المسلم وتحويله

جانب نشاطه الفكري، كان الشيخ أحد العناصر المكونة لجماعة "الشباب التونسي"، التي تأسست سنة 1907م، وتولى رئاسة تحرير الجريدة الناطقة باسمها باللغة العربية، وهي "التونسي"¹. ونتيجة لنشاطه السياسي، تم إبعاده (نفيه) إلى خارج البلاد سنة 1912. وقد اعتقلته السلطات الفرنسية في باريس، وجلبته إلى تونس بعد صدور كتابه "تونس الشهيدة"، وتأسيسه سنة 1920م الحزب الحر الدستوري التونسي، ثم أجبر على مغادرة البلاد مرة ثانية، وذلك سنة 1923م، التي لم يرجع إليها إلا سنة 1937م، بعد فشل محاولته توحيد الحزب.

تخلّى الثعالبي عن الممارسة السياسية نهائياً، وظل يرأس الصحف، ويكتب المقالات إلى أن توفي سنة 1944².

حوكم الشيخ مرتين: كانت المحاكمة الأولى (سنة 1904م) محاكمة "فكرية"، وذلك بتهم عديدة، منها ثلب الأولياء الصالحين، وسبهم، والاستنقاص من قيمة الطرق الصوفية، وسب الولي (التونسي) المجذوب علي بن جابر، ونعته "بالكلب" ونفى عنه شرف النسب، وصدر عليه حكم يوم 23-7-1904 بالسجن لمدة شهرين³.

تتنزل هذه القضية في إطار اختلافه ونقده، بل وهجومه في الصحافة على "فئة المحافظين"، الفاسدين، من الذين يحتلون مواقع حساسة، ويتمتعون بنفوذ واسع نسبياً، ويحظون بمكانة متميزة لدى السلطة⁴. أما المحاكمة الثانية فكانت ذات طبيعة سياسية، وذلك بعد صدور كتابه "تونس الشهيدة" في باريس، وتوزيع نسخ منه بطرق سرية في تونس إذ تم

الى متعاون مخلص.. "شأنه في ذلك شأن الشيخ محمد عبده الذين كان يعتبر أن إصلاح المؤسسات الإسلامية لا بد أن يعتمد فيه المصلح على سلطة قوية تحميه ويقصد بذلك بريطانيا ولكن ألم ير كارل ماركس أن احتلال فرنسا للجزائر سيساعد على تطوير نمط الإنتاج وتثويره؟

1- في الأصل صدرت الجريدة باللغة الفرنسية سنة 1907 تحت عنوان: Le Tunisien

2- بن ميلاد (احمد) وإدريس (محمد مسعود): الشيخ عبد العزيز الثعالبي.. المرجع نفسه

3- المرجع نفسه ، ص 56-57

4- الساحلي (حمادي): "الفكر الإصلاحى عند الشيخ عبد العزيز الثعالبي"، ضمن كتاب: الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وتجديد الفكر الديني، الجمهورية التونسية وزارة الشؤون الدينية، تونس 1993، ص 87-88

إلقاء القبض عليه في باريس، ونُقلَ إلى تونس، وأحيل على المحكمة العسكرية بتهمة المس بأمن الدولة، وظل مسجوناً من جويلية 1920م، إلى ماي 1921. ثم ختم قاضي التحقيق الفرنسي البحث الجاري حول قضيته بالتصريح بعدم سماع الدعوى¹.

2. التطور الفكري والسياسي للشيخ عبد العزيز الثعالبي:

عُرف الشيخ الثعالبي بسعة اطلاعه، وتعدد اهتماماته (صحافة، تدريس، كتابة، ممارسة سياسة ونقابية، خطابة...)، كما عرف بكثرة رحلاته، (زار أغلب البلاد الإسلامية، وبعض الدول الأوروبية) وتفاعله مع كل ما هو جديد وحديث. تشبع الشيخ بالأفكار الإصلاحية لخير الدين التونسي، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمان الكواكبي². كما ربط علاقات متينة بالشخصيات الفرنسية الممثلة للحركات الراديكالية والاشتراكية الفرنسية، المتواجدة بتونس، والمتعاطفة مع التونسيين. وتفاعل مع أفكارهم ونشاطاتهم، وانضم إلى جمعية "الفكر الحر" (تأسست سنة 1903)، التي من أهدافها: "مقاومة الجهل والضلال والتعصب الديني، والسعي إلى نمو العقل ونشر العلم"³.

تأثر تفكير الثعالبي بكل تلك الأفكار والتجارب التونسية والعربية والأوروبية، ومرّ بمراحل ثلاث:

أ- المرحلة الأولى: تميزت بانتمائه الفكري للسلفية المستنيرة.

ب- المرحلة الثانية: تميزت بمساهمته في تأسيس حركة الشباب التونسي (1907)، ثم الحزب الحر الدستوري التونسي (1920). وكانت حركة الشباب التونسي امتداداً للحركة الإصلاحية المشرقية في القرن 19م وتجاوزاً لها في نفس

1- ألف الشيخ الثعالبي الكتاب بالتعاون مع المحامي التونسي احمد السقا الذي كلفه بنقل الكتاب إلى اللغة الفرنسية، وأمرت السلطات الفرنسية بحجزه ومصادرته، انظر حول تفاصيل ذلك: - الثعالبي (عبد العزيز): تونس الشهيدة، تعريب حمادي الساحلي ومراجعة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت 1988، ص9-10

2- بن ميلاد (احمد) و ادريس (محمد مسعود): الشيخ عبد العزيز الثعالبي ..المرجع نفسه، ص31-32

3- المرجع نفسه، ص51-52

الوقت. ويظهر الامتداد في ارتباط الحركة بالاتجاه الوجداني الإسلامي (الجامعة الإسلامية). ويتجلى التجاوز في الطابع الوطني التونسي، الذي ميز مطالب حركة الشباب التونسي الوطنية عن مطالب الشباب العثماني في تيار الجامعة الإسلامية. **ج- المرحلة الثالثة:** تميزت بدعوته للفكرة المغاربية والعربية¹. ولعل أكبر انجاز له في هذه المرحلة، هو الدعوة والتحضير للمؤتمر الإسلامي بالقدس، الذي انعقد سنة 1931م².

3. الأفكار المستنيرة للشيخ عبد العزيز الثعالبي:

اهتم الشيخ الثعالبي بالقضايا والمشاكل الحيوية، التي كانت ترهق المجتمع، وتقف حاجزا أمام تقدمه وإقلاعه. فقام بتشخيص بعضها، ثم حاول تقديم البدائل الضرورية لتجاوزها، وذلك من خلال نقده لما وصفه بـ"تيارات الجهل والتعصب" السائدة في البلاد التونسية آنذاك، والتي سعت بكل الوسائل لإلجام صوته، فكان فخورا بأنه سجن بسبب أفكاره، وكان يرى أن "السجن يشرفه" باعتباره أحد "المفكرين الأحرار، وأحباء التقدم والحضارة"³. كما كان يرى، أن استرجاع المسلمين لمجدهم وعزتهم، لن يتم إلا من خلال تفتحهم وتفاعلهم مع مكاسب الحضارات الأخرى، وخاصة حضارة الدول المتقدمة (الغرب)، و بالأساس دولة فرنسا⁴. ودعا كغيره من زعماء السلفية المستنيرة إلى النهوض بـ"الأمة الإسلامية" انطلاقا من أسس وأصول الإسلام الأولى، مع ضرورة تخليصه مما علق به من خرافات وأوهام، معتبرا أن الإسلام في شكله الصحيح، لا يتنافى مع المدنية الحديثة⁵

1- الشابي(علي): "لزعيم عبد العزيز الثعالبي من الجامعة الإسلامية إلى الجامعة العربية"، في الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي...مرجع سبق ذكره، ص 7-32

2- الثعالبي(عبد العزيز): خلفيات مؤتمر الإسلام بالقدس 1350 هـ- 1931 م، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي دار الغرب الإسلامي بيروت 1988، ص 367

3- مناصرة(يوسف): الحزب الحر الدستوري التونسي 1919-1934، دار الغرب الإسلامي بيروت 1988، ص 83

4- الثعالبي(عبد العزيز): روح التحرر في القرآن... مصدر سبق ذكره، ص 41

5- المصدر نفسه، ص 40-41

أ- رفض التزمت والدعوة إلى التأويل:

دعا الشيخ الثعالبي الى رفض التزمت، مؤكداً على ضرورة استخدام العقل في التفسير والتأويل¹. ونظراً لأهمية التأويل، وانعكاساته المختلفة على الإسلام والمسلمين، أثار الثعالبي الحديث حوله في أجزاء مختلفة من كتابه²، منطلقاً من إحدى المسلمات التي مفادها أنّ «القرآن واحد والإسلام واحد، ولا ينبغي أن يوجد أيّ خلاف بين المسلمين في المذاهب والفرق³، ليصل الى نتيجة مركزية، هي أن التأويل المتحرر للقرآن، يمثل عامل تقدم، وهو ما حصل خلال القرون الإسلامية الأولى⁴.

ب- الدعوة إلى نشر التعليم:

وآمن إيماناً راسخاً بنشر التعليم على نطاق واسع، كما اعتبر إجباريته منبعاً من منابع الدين الإسلامي الحنيف⁵، مع تأويل القرآن تأويلاً صحيحاً وحقيقياً وإنسانياً، وهو السبيل الوحيد لتخليص العقلية الإسلامية من شوائب الجهل والأوهام⁶.

ت- نقد رجال الدين:

نفي عنهم حق احتكار التكلم باسم الدين، لأن الإسلام ليس فيه كهنة، وانتقد انغلاقهم وروح التعصب لديهم، وتشبّثهم بحرفية المذاهب الفقهية⁷.

ث- الموقف من الطرق الصوفية :

انتشر في المغرب العربي عدد هام من الطرق الصوفية، واختلفت الآراء حول وظيفتها وأدوارها. فالبعض يرى أنها لعبت دوراً متميزاً في الحفاظ على الدين، والهوية العربية الإسلامية لشعوب المنطقة، في حين يرى آخرون، أنها تعاملت مع الاستعمار، وساعدت على تحقيق أهدافه. أما السلفيون، فمنهم من

1- المصدر نفسه ، ص 118

2- خصّص لها القسم الأخير من الكتاب بـ«التأويل الصحيح للقرآن» من 115 الى 119

3- المصدر نفسه، ص 116

4- المصدر نفسه، ص 19

5- المصدر نفسه، ص 32

6- المصدر نفسه، ص 118

7- المصدر نفسه، ص 100-102

يرفضها لأسباب دينية وحسب، كمحمد بن عبد الوهاب، ومنهم من يرفضها لأسباب دينية وحضارية وسياسة، كما هو حال الشيخ عبد العزيز الثعالبي وبقية زعماء الإصلاح الديني¹.

خصص الثعالبي فصلين من كتابه لنقد الطرق الصوفية، وهاجمها هجوما "شرسا"². ومن بين المآخذ التي أوردها حول تلك الطرق نذكر:

- أن "الدين الإسلامي يمنع المؤمنين منعا باتا من التماس المعونة من غير الله سبحانه، ويدين بشدة من يتوسّل إلى أمثاله من عباد الله"³.
- ساهمت الطرق في تعطيل تقدم الحضارة الإسلامية، وأخرت المسلمين عدة قرون⁴.

- يرى الثعالبي أن الإسلام النير، لم يرض بتلك السلطة المطلقة للطرق بدون مقاومة، وأن المشايخ والأولياء، ومن لّف لفهم، لم يهيمنوا بدون مقاومة الدين الإسلامي الحق، وحرية التفكير الرائعة، التي حققت للحضارة الإسلامية ما عرفت به من نهضة عجيبة⁵.

- إن المبادئ التي تنشرها وتبثها الطرق الصوفية، هي "مبادئ الفوضى الخرقاء التي لا تغتفر، المقامة على الأنانية والمصالح الشخصية الحقيرة..⁶"

- كما أنه يحملها مسؤولية فقدان المسلمين "كل روح مبادرة. فلماذا يجتهد الإنسان مادام يكفيه أن يتوسل بأحد الأولياء، ليضمن لنفسه السعادة والثراء"⁷.

1- حول الطرق الصوفية في المغرب العربي عامة وتونس خاصة انظر:

العجيلي(التليلي): الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881-1939)، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس 1992، ص 378

2- الفصلان السابع والثامن الصفحات 57-75

3- الثعالبي(عبد العزيز): روح التحرر في القرآن...، مصدر سبق ذكره، ص 58

4- المصدر نفسه، ص 56

5- المصدر نفسه، ص 71

6- المصدر نفسه، ص 83-84

7- المصدر نفسه، ص 83

- كما يرى أن تعاليم الطرق الصوفية، منافية "للأخلاق والعلم والدين"¹. ويذكر أن الزوايا وأضرحة الأولياء، قد "أصبحت عبارة عن مأوى يلتجئ إليها المجرمون والزانيات..."².

- كما هاجم الاعتقاد في السحر والتنجيم، الذي يعتبره من مظاهر التأخر، ومن تأثير حضارة الفرس في حضارة المسلمين³.

ج- التسامح بين الأديان:

يعتبر الشيخ عبد العزيز الثعالبي، أن التسامح يمثل الفكرة الأساسية في القرآن الكريم، كما يبين أن احترام الديانات الأخرى، وحرية المعتقدات، واحترام جميع الآراء، قد ذكرت في ست وثلاثين سورة وخمس وعشرين ومائة آية⁴. وانطلاقاً من ذلك، يدعو إلى إقامة علاقات متينة مبنية على "المودة والامتنان، والثقة بين المسلمين والمسيحيين. نظراً لاعتراف الدين الإسلامي بالديانتين المسيحية واليهودية، وباعتبار أن القرآن يوصي بالتسامح إلى أقصى حدٍّ ممكن في الأمور الدينية". كما أنه أوصى "بحرية الفكر واحترام جميع الآراء". كما أنه "يستنكر أي اعتداء على المعتقدات، سواء منها الفردية أو الجماعية، وعلى الناس أن يهتدوا عن طريق الاقتناع الذاتي"⁵.

ح- موقفه من المرأة:

شغلت قضية المرأة المفكرين العرب والمسلمين، ويعتبر كتاب قاسم أمين "تحرير المرأة"، الذي صدر سنة 1899م من الكتب الأولى، التي نهت إلى وضعية المرأة العربية، ونادت بضرورة تحريرها. ويظهر أن الشيخ الثعالبي، قد تأثر بهذا

1- المصدر نفسه، ص 89

2- المصدر نفسه، ص 82 ويستشهد الكاتب ببيتين من الشعر لأبرز شعراء تونس آنذاك هو حسين الجزيري الذي يقول:

هذا ضريح للدفين ام مرسح للعاشقين؟

ام مرتع للبغايا ت وحانة للساكرين

3- المصدر نفسه، ص 33-34

4- المصدر نفسه، ص 98

5- المصدر نفسه، ص 98

الكتاب، إضافة لتأثره بآراء الراديكاليين والاشتراكيين الفرنسيين المستوطنين بتونس. لذا أولى الشيخ الثعالبي اهتماما ملحوظا بالوضع البائس للمرأة المسلمة، وقدم تشخيصا دقيقا لمعاناتها، ونادى بضرورة إعطائها حقوقها. وإجمالا، أكد على ثلاث قضايا رئيسية، ذات علاقة بتحرر المرأة وهي:

- **المساواة:** اعتبر الثعالبي أنه من الضروري، أن تتمتع المرأة بحقوقها في "احتلال مكانتها في البيت، وأن تأخذ نصيبها وحقوقها من الحياة، على قدم المساواة مع الرجل".¹

- **الحجاب:** اعتبر الحجاب غير شرعي، وهو علامة من علامات التأخر. وأكد أن خلعه يمثل ثورة بمختلف تداعياتها الاجتماعية، فهو تجسيد لـ "تحرير المرأة المسلمة، وإشهار الحرب على التعصب والجهال، ونشر أفكار التقدم والحضارة، وصيانة المصالح العليا للأسرة والتراث العائلي. وهو يعني في آخر الأمر، إعادة تركيب المجتمع الإسلامي، كما كان في عهد الرسول(ص) وأصحابه رضي الله عنهم".²

- **العلم:** إن طلب العلم واجب على المرأة المسلمة، كما تدل على ذلك بعض الأحاديث النبوية³. فرعاية مصالحها، ومصالح أبنائها، والتفكير في مستقبلهم، ومراقبة تعليمهم وتربيتهم، يتطلب تعليمها⁴.

خاتمة:

كان الشيخ عبد العزيز الثعالبي، ملتزما بمرجعتين أساسيتين هما: مرجعية الإسلام الأول، أي إسلام النبوة والصحابة من جهة، ومرجعية الحضارة الإنسانية عامة، وكما تجسدت في ما وصل إليه المجتمع الأوروبي من تقدم خاصة.

ولم يكن الشيخ عبد العزيز الثعالبي السلفي المستنير، الوحيد في المغرب العربي، ولكنه كان رائدا في هذا المجال. مهد الطريق إلى غيره من المصلحين.

1- المصدر نفسه، ص 32

2- المصدر نفسه، ص 24

3- المصدر نفسه، ص 29

4- المصدر نفسه، ص 32

وكان الثعالبي "داعيا دينيا، ومصلحا اجتماعيا قبل أن يكون زعيما سياسيا"¹. بل إنه كان كذلك في الواقع، ويظهر أن بقية زعماء الإصلاح في المغرب العربي، قد نزعوا بدورهم منزع التجديد الديني، والإصلاح الاجتماعي، والنضال السياسي الوطني (السلفية الوطنية) ضد الاستعمار، وهو ما أعطاهم شرعية مضاعفة.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب:

- ابن عاشور (محمد الفاضل): الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس 1983
- ابن منظور، لسان العرب، ط1 بيروت 1956، مجلد9 ص 158
- التونسي (خير الدين): أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، الدار العربية للكتاب، تونس 1998
- الثعالبي (عبد العزيز): روح التحرر في القرآن، نقله من الفرنسية حمادي الساحلي وراجع ووضوح حواشيه محمد المختار السلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985
- الثعالبي (عبد العزيز): خلفيات مؤتمر الإسلامى بالقدس 1350 هـ-1931 م، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي دار الغرب الإسلامي بيروت 1988
- الجابري (محمد عابد): وجهة نظر، نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ط2، بيروت 1994
- جدعان (فهمي): أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت 1979
- جماعي: الحركة السلفية في المغرب العربي، ط2، دار الأمان الرباط 2010
- جوليان (شارل اندري): المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس
- حمدان (محمد): دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية من سنة 1838 إلى 20 مارس 1956، القسم الاول، دليل الدوريات باللغة العربية، بيت الحكمة قرطاج تونس 1989
- الرديسي (حمادي) و نورية (أسماء): الرد على الوهابية في القرن التاسع عشر نصوص الغرب الإسلامى نموذجاً، دار الطليعة ، بيروت 2008
- عبد الغني (عماد): الحركات الإسلامية في لبنان، إشكالية الدين والسياسة في مجتمع متنوع، دار الطليعة، بيروت، 2006
- العجيلي (التليلي): الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881-1939)، منشورات كلية الآداب مكنوبة، تونس 1992
- عمارة (محمد): السلف والسلفية، مكتبة وهبة القاهرة 2011
- مناصرة (يوسف): الحزب الحر الدستوري التونسي 1919-1934، دار الغرب الإسلامى بيروت 1988
- Sayadi(Mongi): Aljam'iyya Al Khalduniyya 1896-1958 ; M.T.E. Tunis 1974

1 - ابن عاشور (محمد الفاضل): الحركة الأدبية والفكرية... مصدر سبق ذكره، ص75

المقالات:

الساحلي(حمادي): "الفكر الإصلاحى عند الشيخ عبد العزيز الثعالبي"، ضمن كتاب: الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وتجديد الفكر الديني، الجمهورية التونسية وزارة الشؤون الدينية، تونس

1993

الشابي(عليّ): "صلة النخبة التونسية بجمال الدين الافغانى ودورها فى حركة العروة الوثقى"،

المجلة التاريخية المغربية، عدد 11/10، تونس 1978

الشنوفى(المنصف): "مصادر عن رحلتى محمد عبده الى تونس"، حوليات الجامعة التونسية، العدد

الثالث سنة 1966

وزارة الثقافة، اللجنة الثقافية القومية، ندوة:الثقافة والحياة الجمعياتية والتغيرات الهيكلية فى

المجتمع التونسى 1896-1956، تونس 1992

-الشبكة العنقودية:

- Khalifa(Chater):L'école militaire du Bardo : l'émergence d'une élite nouvelle ?

<http://www.khalifa-chater.com/>

الشيخ محمد بن العربي العلوي

وصلته بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

مولود عويهر

بمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قرر مجلسها الإداري في اجتماعه يوم 4 أكتوبر 1951 منح لقب "الرئيس الشرفي" لهذه الجمعية لبعض العلماء العرب والمسلمين، الذين يشتركون معها في الفكر والمنهج والهدف، وكان من بينهم العالم السلفي المغربي، محمد بن العربي العلوي ممثلا للمغرب الأقصى.

لقد فاجأني هذا الاسم، لأنني كنت أعتبر الشيخ محمد إبراهيم الكتاني هو أقرب علماء المغرب إلى الحركة الإصلاحية الجزائرية، فقد استضافته في 1935 بتلمسان، وشارك في اجتماعها السنوي في عام 1936، وحضر افتتاح دار الحديث

بتلمسان في عام 1937¹، وزار إدارة جريدة البصائر، ومعهد ابن باديس، وقبر هذا المصلح في قسنطينة في عام 1950²، وتبادل الرسائل مع الشيخين: محمد البشير الإبراهيمي ومحمد خير الدين³.

ولا شك عندي أن الشيخ الكتاني، الذي يعتبر نفسه تلميذا للشيخ محمد بن العربي العلوي زعيم الحركة السلفية في المغرب، هو الذي رشحه لدى أصدقائه في جمعية العلماء، ليكون رئيسا شرفيا لهذه الجمعية، وسفيرا لها في المغرب الأقصى.

ووكّل المجلس الإداري إلى رئيسه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي تنفيذ هذا القرار بمراسلته في هذا الشأن⁴. وتمثل هذه الخطوة إستراتيجية جديدة تبنتها جمعية العلماء، لتوسيع نشاطها خارج البلاد، وكسب منابر جديدة للتعريف بأعمالها، واستقطاب شخصيات علمية مشهورة لمناصرة دعوتها، وفك الحصار الذي فرضته عليها سلطة الاحتلال الفرنسية.

وتطمح هذه الدراسة إلى رسم صورة عن الصلة التي كانت قائمة بين محمد بن العربي العلوي، وأقطاب الحركة الإصلاحية في الجزائر، أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ حمزة بوكوشة وغيرهم.

1- مسار في سطور:

ولد الشيخ محمد بن العربي العلوي في مدغرة بتافيلات جنوب المغرب في عام 1880. ثم انتقل به والده إلى فاس للدراسة. ودرس في جامع القرويين على نفر من العلماء منهم: الشيخ محمد بن المدني كنون، والشيخ عبد السلام الهواري، والشيخ خليل الخالدي، والشيخ أبو شعيب الدكالي⁵ الذي "أنار فكره،

1- محمد إبراهيم الكتاني. الإمام محمد البشير الإبراهيمي. مجلة الإيمان، العدد 10، 1965.

2- البصائر، العدد العدد 133، 23 أكتوبر 1950.

3- محمد خير الدين مذكرات. مطبعة دحلب، الجزائر، 1985، ج 1، ص 405.

4- البصائر، العدد 172-173، 15 أكتوبر 1951.

5- عن هذه الشخصية، انظر. عباس الجراري. أبو شعيب الدكالي رائد الإصلاح الفكري في المغرب الحديث. الأكاديمية، العدد 7، ديسمبر 1990، ص 15-26.

وقوى عزيمته، وأخرجه من ربة التقليد الأعمى".¹

اشتغل الشيخ ابن العربي بعد تخرجه بالتعليم في نفس الجامعة. وقد وصف المؤرخ عبد السلام ابن سودة، تأثير الشيخ ابن العربي على هذه المؤسسة العلمية فقال: "فدخل إلى القرويين، وصار ينير مشكاتها ويضيء جوانبها بقبس من النور، فما لبث أن التف حوله نخبة من الشباب لا يستهان بهم. وانتشر مذهبه في الأوساط العلمية الراقية".²

وكان من أبرز تلامذته: محمد تقي الدين الهلالي، وعبد الحي الكتاني، ومحمد علال الفاسي، ومحمد المختار السوسي...الخ.

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري، أن الشيخ ابن العربي، هو مؤسس السلفية الوطنية في المغرب الأقصى، حيث جمع بين الدعوة إلى السلف الصالح، ومقارعة الاستعمار وأذنابه. فقال في هذا السياق: "كان الشيخ محمد بن العربي العلوي، نموذجاً للعالم السلفي المناضل المتفتح. لقد ظل يحمل فكراً نبياً، يتطور مع تطور الفكر الوطني والنضال الشعبي في المغرب، سواء أثناء عهد الحماية أو خلال عهد الاستقلال".³

وكان من أبرز مواقف السياسية، مساندته للأمير عبد الكريم الخطابي في حربه ضد الاستعمار الإسباني والفرنسي، ودعمه للملك محمد الخامس حينما نفته الحكومة الفرنسية، واستبدلته بـابن عمه محمد بن عرفة العلوي، حيث رفض الشيخ ابن العربي الاعتراف بهذا الأخير، ودعا المغاربة إلى محاربتة، لأن حكمه غير شرعي. وقد لقي في سبيل مواقفه الجريئة عقوبات كثيرة، ومضايقات عديدة.⁴

واستطاع الشيخ ابن العربي أن يعطي روحاً جديدة للسلفية التي لا تهتم فقط بالعودة إلى العقيدة الصحيحة والدين القويم، بل تولي أيضاً اهتماماً بمصير

1- محمد حجي. موسوعة أعلام المغرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، مج 9، ص 1384.

2- حجي، مرجع سابق، مج 9، ص 1384.

3- محمد عابد الجابري. تطور الأنتلجانشيا المغربية. الأصالة والتحديث في المغرب. في: عبد القادر جغل (إشراف). الأنتلجانشيا في المغرب العربي. دار الحداثة، بيروت، 1984، ص 27.

4- علال الفاسي. علم من أعلام النهضة الإسلامية. البصائر، العدد 30، 5 أفريل 1948.

المغرب ومتطلبات مستقبله في ظلال الاستقلال وبناء الدولة الحديثة.

وقد تحولت "السلفية في المغرب على يديه، من سلفية تقليدية وهابية الطابع - في نظر الدكتور الجابري- إلى سلفية وطنية مناضلة كونت الجيل الأول من رجال الحركة الوطنية المغربية، وقدمت لهم الأساس الفكري العربي الإسلامي، لتطلعاتهم النهضة التحديثية ومواقفهم السياسية النضالية".¹

وهكذا اشتغل الشيخ محمد بن العربي بالتعليم والإرشاد. كما ولى القضاء بفاس، وعمل وزيرا للعدل بين 1936 و1944. فكان عالما وقاضيا ووزيرا، جمع بين العلم والممارسة الميدانية للقضاء والسياسة والإدارة. وهذا المزج بين العلم والالتزام والنضال نجده عند العديد من تلامذته، ولعل أشهر مثال على ذلك هو الأستاذ محمد علال الفاسي، المفكر والمناضل، ورئيس حزب الاستقلال والوزير...الخ.

توفي الشيخ محمد بن العربي العلوي رحمه الله، في 23 محرم 1384 هـ الموافق لـ 4 جوان 1964. ونقل إلى إقليم تافيلات، ليدفن في مدغرة إلى جوار والده وأجداده.

2- بين الشيخ ابن باديس، والشيخ ابن العربي:

حرص الشيخ عبد الحميد بن باديس، على أن يرفق رسالته المعنونة بـ "جواب السؤال عن سوء مقال" الصادرة عن المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة، بمجموعة تقاريط لعلماء عصره. واستجاب له عدد كبير من الذين استكتبهم، منهم الشيخ ابن العربي، الذي كتب تقريظا أثنى فيه على الكاتب والكتاب، وقد جاء فيه ما يلي: " فالذي أدين به وأعتقده، هو ما سطره سيدنا العلامة المشارك، الدر النفيس، السيد عبد الحميد بن باديس، لأنه مؤسس المبنى صحيح اللفظ والمعنى، لم يبق فيه قول لقائل، ولا تشوف لمراجعة مجيب أو سائل".²

وهذا التقريظ، الذي شمل خمسة ألفاظ، التقدير وعلامات التبجيل،

1- الجابري، مرجع سابق، ص 28.

2- عمار الطالبي. ابن باديس حياته وآثاره. دار الأمة، الجزائر، 2009، ج 3، ص 171.

تؤكد كلها على المكانة العلمية الرفيعة، التي كان يحتلها الشيخ ابن باديس في المغرب الأقصى، وتبرز الاعتراف المتبادل بين العالمين، فترسخ بذلك تقاليد حسنة في مجال التواصل العلمي بين علماء المغرب العربي.

وقد حاول ابن باديس زيارة المغرب في 1937 للمشاركة في تأيينية الشيخ أبي شعيب الدكالي،¹ وزيارة الشيخ محمد بن العربي، غير أن السلطة الاستعمارية اعترضت سفره، لقطع العلاقة بين علماء المغرب العربي، وفصل بعضهم عن البعض. والشيخ الدكالي تربطه أيضا علاقات قوية بعلماء الجزائر. فقد زار هذا البلد عدة مرات لينتقل منها إلى تونس² والمشرق العربي. والتقى خلال زيارته للجزائر بعدد من العلماء أذكر منهم المفتي الشيخ عبد القادر بن الصديق³، والشيخ الطيب المهاجي⁴.

تأسف ابن باديس كثيرا لهذه التصرفات القمعية، وعبر عن احتجاجه في مجلة الشهاب بمقال صريح عنوانه: "الاستعمار يحاول قطع الصلة بين الإخوان".⁵

زار الشيخ محمد بن العربي العلوي الجزائر في أبريل 1940 للمشاركة في اجتماع جمعية أوقاف الحرمين الشريفين. وتزامنت هذه الزيارة مع وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، وحرص ابن العربي على تبليغ تعازيه لمن زاره من تلامذة ابن باديس في إقامته بالجزائر العاصمة.⁶

1- نشرت البصائر إعلان لجنة تأيينية الشيخ أبي شعيب الدكالي ودعوة العلماء الجزائريين إلى المشاركة فيها حسب المحاور المسطرة. أنظر العدد 78، 13 أوت 1937.

2- عن زيارات الشيخ أبي شعيب الدكالي إلى تونس وعلاقته بعلمائها، أنظر: محمد رياض. شيخ الإسلام أبو شعيب الكالي الصديقي. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2009، ج1، ص 298-312.

3- أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج 5، ص 578.

4- الهواري ملاح. آثار وسيرة الشيخ الطيب المهاجي الجزائري. منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011، ص 102.

5- الشهاب، مج 13، ج 7، سبتمبر 1937.

6- أحمد سكيرج. شبه رحلة إلى الجزائر. دراسة وتحقيق محمد الرازي كنون. دار الأمان، الرباط، د.ت، ص 13.

3- الشيخ ابن العربي في نظر الشيخ الإبراهيمي:

"والأستاذ الأكبر، الشيخ محمد بن العربي العلوي، إمام سلفي وعالم مستقل واجتماعي جامع. وهو - في نظرنا- أحق برتبة الإمامة من كثير ممن خلع عليهم المؤرخون هذا اللقب. ونحن في أخص الصفات التي تربطنا به، وهي السلفية والإصلاح، نجاوز درجة الإعجاب به إلى الفخر والتعظيم."¹

بهذه الكلمات، قدم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مقال الأستاذ محمد علال الفاسي حول الشيخ ابن العربي. وقد نقلته جريدة "البصائر" للقارئ الجزائري نقلا عن صحيفة "الإخوان المسلمون" المصرية.²

ويرى الباحث المغربي الأستاذ أحمد سراج، أن الشيخ محمد إبراهيم الكتاني، هو الذي أرسل هذا المقال إلى رئيس جمعية العلماء الشيخ الإبراهيمي لنشره في جريدة البصائر³، لسان حال هذه الجمعية الإصلاحية.

وأضاف الشيخ الإبراهيمي، أن الزمان سينصف هذا المصلح المغربي خاصة إذا عرف الناس تاريخ نضاله الوطني، وجهوده الإصلاحية، فقال في هذا السياق: "ولعل الأقدار تقيض من يكتب له ترجمة حافلة، تكشف عن مواقع الأسوة بذلك الرجل، خصوصا في سلفيته وجرأته في تلك السلفية. وهي نقطة الالتقاء الحقيقية بينه وبين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين."⁴

فالتقارب الفكري، والهاجس الإصلاحي، هما أساسا الصلة بين الحركتين الإصلاحيتين الجزائرية بزعامة ابن باديس ثم الإبراهيمي، والمغربية بقيادة محمد بن العربي العلوي ثم محمد علال الفاسي.⁵

1- البصائر، العدد 30، 5 أفريل 1948.

2- أعيد نشر هذه المقالة في كتاب: علال الفاسي. أعلام من المغرب والمشرق. جمع وتحقيق عبد العلي الودغيري. منشورات مؤسسة علال الفاسي، الرباط، 2008، ص 205-212.

3- أحمد السراج. الفكر السلفي عند الشيخ محمد بلعربي العلوي. في كتاب: الحركة السلفية في المغرب العربي. دار الأمان، الرباط، 2010، ط 2، ص 221.

4- البصائر، العدد 30، 5 أفريل 1948.

5- عبد الرزاق الداوي. علال الفاسي كنموذج للفكر السلفي الجديد في المغرب. في: جغلول، مرجع سابق، ص 105-117.

4- الشيخ حمزة بوكوشة في ضيافة الشيخ ابن العربي:

الشيخ حمزة بوكوشة، عضو المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وهو من ألمع كتابها المشهورين بالنقد والسجال العلمي. فقد كتب سلسلة من المقالات يتساءل فيها: هل في الجزائر شعراء؟ وهل في الجزائر رأي عام؟ كما جادل العديد من أقطاب الجمعية كالشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ أبي يعلى الزواوي والشيخ باعيز بن عمر، والشيخ مصطفى بن حلوش...الخ.¹ وهنا تكمن قيمة شهادته عن الشيخ ابن العربي العلوي، فهو لا يكتب إلا ما يؤمن به حقا بدون مراوغة أو خوف أو طمع.

لقد حرص الشيخ بوكوشة خلال رحلته إلى المغرب في عام 1948، على زيارة الشيخ ابن العربي للاستفادة من علمه الوفير، وتجاربه المتعددة. وقد صوّر هذا اللقاء تصويرا دقيقا، ونقله إلى قرائه فقال: "زرت علم المغرب العربي. الأستاذ سيدي محمد بن العربي العلوي. وهو ذو سميت ووقار وشخصية جذابة. مع غزارة العلم، ودقة الفهم وبلاغة التعبير، وصدق التصوير، وسعة الإطلاع على الأمهات، والفقه في أسرار التشريع مع التعليل والتدليل. وهو إمام حجة ينزع إلى الاجتهاد مع سعة العارضة وقوة الحافظة. هو إمام السلفيين بالمغرب، وعليه تخرجت النخبة المفكرة من رجال العلم والأدب والسياسة، وهو يجمع بين طموح الشباب وتجربة الشيوخ، وشخصيته محبوبة ومحترمة عند الجميع."

بعد هذا الوصف الذي ينم عن تأثره في البداية بهذه الشخصية الفذة، واصل الشيخ بوكوشة حديثه عن شعوره بالألفة كلما طالت الجلسة إلى جانب هذا العالم المتواضع، وازداد إحساسه بالاطمئنان وهو ينصت إلى حديثه العذب: "وبمجرد ما تعرفت به، وتجادبت أطراف الحديث معه، استولت علي شخصيته، وزالت الكلفة بيني وبينه، وأصبحت كأني أحد أبنائه أو تلامذته المقربين. ولقد ركنت نفسي إليه ركونا لا يكيف، والأرواح جنود مجندة. وقد كنت أسمع عن ابن العربي قبل رؤيته الكثير، ولكني لما رأيته وجدت الذي كنت أسمعه قليلا من كثير: وأعد أيام اجتماعي به فلتة من فلتات الزمان الضنين."²

1- نشرت كل هذه النصوص في كتابي: تراث الحركة الإصلاحية الجزائرية. دار قرطبة، الجزائر، 2011، ج2.

2- البصائر، العدد 31، 12 أبريل 1948 .

وتعمقت قناعته في تنوير الشيخ ابن العربي، وتفتحه على العالم، إذ لم يكن منغلقا على نفسه في المغرب، بل كان يتابع الحركة الإصلاحية في كل من الجزائر وتونس، فهو: "كثير الإطلاع على شؤون العالم الإسلامي، مهتم بها اهتماما لا مزيد عليه، ويرى أن من لا يهتم بشؤون المسلمين فليس منهم. متتبع لما يجري في الجزائر وتونس بصفة خاصة، مطلع على حوادث القطرين إطلاعا قد يخفى على كثير من سكانهما. ويرى أن مشكلتهما ومشكلة المغرب واحدة، وإن تعددت الأسباب المصطنعة، وله علاقات روحية متينة بأحرار الشمال الإفريقي ومفكره، وهو الرئيس الشرقي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالمغرب الأقصى".¹

وترسخت هذه الذكريات في مخيال الشيخ بوكوشة، وازداد اهتمامه بالشيخ ابن العربي، وكان من علامات الوفاء له، مقال كتبه بوكوشة خمس سنوات بعد هذه الرحلة، مبرزاً فيه المكانة الرفيعة لهذا العالم المغربي، ومنوهاً بفضل الكبير على الحركة الإصلاحية في المغرب العربي، ورفق مقالاً بصورة نادرة أهداها له الشيخ محمد بن العربي العلوي خلال تلك الزيارة الخالدة. وهذا دليل آخر على التقارب بين الرجلين، فأفضل ما يهدى بين العلماء: الكتب أو الصور النادرة.

5- هل زار وفد جمعية العلماء الشيخ ابن العربي في عام 1955؟

ولابد أن أشير هنا، إلى أن وفدا من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، برئاسة الشيخ العربي التبسي، وجمعية الشيخ محمد خير الدين، والأستاذ أحمد توفيق المدني، والشيخ عبد اللطيف سلطاني²، زار المغرب في خريف 1955 لتقديم تهاني الشعب الجزائري إلى الملك محمد الخامس، العائد من المنفى، والموفق في استرجاع تاج ملكه بفضل حنكته السياسية، وصلابة مواقفه، وتضامن الشعب المغربي والرأي العام العربي والإسلامي والعالمي معه.

1- البصائر، العدد 240، 11 سبتمبر 1953.

2- الشيخ العربي التبسي نائب الأول لرئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الشيخ محمد خير الدين النائب الثاني، الأستاذ أحمد توفيق المدني الأمين العام، الشيخ عبد اللطيف سلطاني أمين المالية.

التقى الوفد بالملك، الذي افتتح به سلسلة مقابلاته تقديرا منه للجهود التي تبذلها جمعية العلماء في سبيل الإسلام والعروبة والمغرب العربي.¹ واستقبل أيضا وفد جمعية العلماء من طرف عدد من السياسيين والعلماء ورجال الفكر والأدب في المغرب.

وليست لدي الآن، وثائق أو معلومات، تؤكد أو تنفي استقبال الشيخ محمد بن العربي العلوي للوفد الجزائري. وإن كنت أميل إلى التأكيد نظرا لقوة العلاقة، ودوام التضامن والتقارب الفكري بينهم، وصلابة الصلة العضوية، التي تربطهم جميعا بهذه الجمعية التي يمثل الشيخ ابن العربي أحد رؤسائها العشرة الشرفيين.

لقد كشفت هذه الدراسة صفحات مشرقة من التواصل بين الشيخ محمد بن العربي العلوي مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهي تبرز بوضوح البعد المغاربي في العلاقات الفكرية والعلمية، التي تربط رجال الإصلاح في الجزائر والمغرب.

ولا شك أن هذا الموضوع في حاجة ماسة إلى باحثين جادين لإحيائه ودراسته، والتعريف به بين الأجيال الحاضرة، من أجل بناء مغرب عربي موحد طالما حلم به زعماء الحركة الوطنية والإصلاحية المغاربة منذ بداية القرن العشرين.



السلفية المغربية بين محمد بلعربي العلوي ومحمد علال الفاسي

محمد فلاح العلوي

تقديم: مرجعيات الفكر السلفي في المغرب

إن ظهور حركات الإصلاح الديني لم يكن حكرا على بلاد المشرق لوحدها، بل إن الغرب الاسلامي بدوره، ساهم على امتداد تاريخه الطويل بنماذج إصلاحية، نادت بالعودة الى الأصول الإسلامية الأولى. وقد جاءت السلفية المغربية منذ الثلث الأخير من القرن 19 متأثرة بعمق الدعوات الإصلاحية القديمة، خصوصا عند زعمائها الأوائل، مثل الشيخ محمد بن المدني كُنون، الذي كان اتجاهه دينيا صرفا، منطلقا ونتيجة، داعيا للارتباط بالسنة والأصول في السلوك والمعاملات، فكان بذلك من الرواد الأوائل للفكر السلفي في مغرب القرن 19 من

داخل جامع القرويين. أما من خارجه فقد كان لمجدي العدوتين الرباط وسلا، دور أساسي في نقل المؤثرات المشرقية في الموضوع، وربطها بما هو داخلي، في محاولة للإصلاح الاجتماعي، المرتبط بالإصلاح الديني والفكري في واقع البلاد من معاينة مباشرة في إطار العمل المخزني. وقد مثل أحمد بن خالد الناصري بداية لهذا الاتجاه أصدق تمثيل، رابطا السلفية بالسياسة، وإن بصورة غير مباشرة.

لقد ساهمت عدة عوامل في تطوير الفكر السلفي في المغرب، وجعلته يعايش مستجدات أحداث البلاد، يمكن أن نجملها في ما يلي:

- 1- تأثير الطباعة والصحافة على المجال الثقافي داخل القرويين
- 2- السياسة الدينية السلطانية ودعمها للسلفية في معالجة نفس القضايا بنفس المنطق والحلول، مع اختلاف الدوافع و تكاملها.
- 3- تفاعلات التدخل الأجنبي، كحافز للدفع بالسلفية لمواجهة الوقوف ضده، مع محاولة الاستفادة مما يصاحبه من تحديث.
- 4- دور جامع القرويين، كمكان لتنافس تيار التقليد والتجديد، مما أدى إلى حصول تطورات في البنية الثقافية للجامع، حصلت بصورة تدريجية في صراع مع باقي عناصر الجمود، وتتجلى هذه التطورات في ما يلي :
- أ- زيادة أهمية الحديث إلى جانب الفقه
- ب - إضعاف تدريجي لموقف الطرقيين، بفسح المجال لإلقاء دروس السلفية و إعادة مادة التفسير.

ت- محاولات عدة، لإصلاح القيم داخل الجامع، بدأت مع أبي شعيب الدكالي، وأخذت بعدا رسميا مع محمد بن الحسن الحجوي، و بعدا عمليا نضاليا مع محمد بن العربي العلوي.

هذا التمهيد الأولي، يدفعنا إلى التساؤل حول موقع كل من محمد علال الفاسي، وشيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، ضمن هذه المنظومة السلفية؟ وقبل ذلك، علينا أن نتساءل عن جوانب الالتقاء والاتفاق بينهما، وجوانب الافتراق والاختلاف في الحياة والفكر، على أن نختم هذه المحاولة، بإبراز الخلاصات العامة، التي تميز شيخ الإسلام، وتوجهه السلفي الموصوف بالنضال والتضحية.

أولا - أوجه التطابق والاختلاف بين الفاسي والعلوي في إطار الحياة العامة:

ولد شيخ الإسلام سنة 1880م، وجاد بروحه لباريها سنة 1964، بينما ولد محمد علال الفاسي سنة 1910 وتوفي سنة 1974، فهما إذن معاصران لبعضهما تمام المعاصرة.

كلا الرجلين درس بالقرويين ودرّس بها، وعاش تطوراتها المختلفة، من منطلق نبوغ وتفوق، حيث عين محمد بن العربي العلوي أستاذا سنة 1912 وعمره 32 سنة. وكلاهما ينتمي الى بيت علم، حيث درس محمد علال الفاسي على والده وبعض أجداده، كما أن ابن العربي تتلمذ في مدغرة على ابن عمه، محمد بن الطيب العلوي. وقد اجتمعا عند نفس شيوخ العلم بالقرويين، مثل شيخ الجماعة أحمد بلخياط الزكاري، وأبي شعيب الدكالي.

مارس محمد بن العربي العلوي التدريس بالقرويين، وبالثانوية العصرية بفاس، وكان من منسّقي المدرسة الناصرية الحرة بفاس، والمدرس بها طيلة عهد الحماية، كما ترأس المجلس الأعلى للقرويين. وغلب على نشاطه جانب المهام الشرعية، حيث مارس العدالة وتولاها، واهتم أكثر بالتعليم كهواية، حتى في أوقات انشغاله بالقضاء والوزارة، ولم يغادر فاس أو الرباط، إلا منفيا في بلدته مدغرة، أو إيموزار، أو تزنييت في أقصى سوس. ولم يمارس أي نشاط آخر غير الفلاحة مضطرا إليها في بعض محنه.

ثانيا- موقع الفاسي والعلوي في إطار الفكر السلفي:

إذا كنت قد وضحت في مدخل هذا الحديث، أن السلفية في المغرب، قد تبلورت معالمها على يد مجموعة من شيوخ العلم، وتحولت من محاولة في الإصلاح الديني والتدريس الثقافي، إلى حركة اجتماعية وسياسية، بواسطة أقطابها وتلاميذهم. فإن كلا من محمد بن العربي العلوي ومحمد علال الفاسي، لعبا دورا متميزا عن الآخر في هذه المسيرة السلفية، إلا أن الخروج بخلاصات نهائية بخصوص المقارنة بين الرجلين، لا يمكن أن يتأى إلا بعد الدراسة المتأنية لما خلفه الرجلان من الناحية الفكرية، الشيء الذي يفوق مستوى هذا الموضوع المتواضع والمحدود، والذي لن يعطي سوى إشارات في هذا الاتجاه، يمكن تعميقها في ما بعد. ولعل أول صعوبة تتجلى في هذا الاتجاه، هي الاختلاف الموجود بين الرجلين بخصوص التركة العلمية، فإذا كان محمد علال الفاسي، قد ترك الكثير من الآثار المكتوبة، مخطوطة ومطبوعة، فإن الشيخ محمد بن العربي العلوي، قد ترك آثاره

عن طريق المشافهة، والتأثير المباشر في تلامذته، ولا يمكننا تتبع ما كان لديه من أفكار واتجاهات فكرية، إلا من خلال الروايات الشفوية لمعاصريه. وهنا نذكر بأنه ترك خزانة كتب كبرى لا يخلو كتاب منها من تعاليقه العلمية الثائرة المتحررة الذكية، وقد قال أحد تلامذته، وهو أحمد بن هاشم العلوي: "لو أمكن، لتكونت لجنة علمية لمراجعة خزانته، وإخراج دفائنها لترى النور، وتفيض بالحياة، وقد وعدني بذلك ولده مولاي مصطفى". ونحن نضيف، لو أمكن استخراج تلك التعليقات الموجودة في تلك الكتب، لكانت نواة لأثار مكتوبة للرجل، قد تفيد في التعريف به أكثر، هي ومجموعة من الأحكام الشرعية، والاجتهادات القضائية، التي قام بها ودرست في نفس الاتجاه.

يمكننا هنا الإشارة لما ورد عنه في تقرير فرنسي، عن توجيهات الشباب المغربي في أواخر العشرينيات من القرن الماضي، بتاريخ 15 يوليوز 1929، وقد ورد فيه ما يلي: "إنه لا يخامرنا شك في المشاعر الحميمية لزعيم المجددين اتجاهنا، فجوابا على بحث أنجز حول الوضعية الحالية في المغرب، كتب القاضي ابن العربي العلوي بخط يده، السطور التي تدعو الى التأمل (أفضل أن أرى المغرب صحراء قاحلة، يتمتع بالحرية والاستقلال، على أن أراه يسير في ركب الحضارة، مقيدا بأغلال الاستعمار المالي، لقد قبل المغرب حضارة على شكل عبودية، وثروة على شكل استعمار"¹

ثالثا- التوجهات السلفية للشيخ محمد بن العربي العلوي:

بخصوص شيخ الاسلام محمد بن العربي العلوي، يمكن حصر توجهات سلفيته في ما يلي:

1- على مستوى الفكر

أ- توضيح الإسلام الصحيح واستخلاصه من البدع والخرافات، التي ألصقت به، وذلك عن طريق:

- الدعوة للاعتماد على الكتاب والسنة

- التنديد بالطرق الصوفية وفكرها الغيبي وممارساتها.

1- مقتطف من تقرير لروبير مونتاني نشرته جريدة الاتحاد الاشتراكي في الأعداد رقم: 8445، 8446، و8447، في شهر يناير 2007.

- محاربة كل الفكر الغيبي من سحر وشعوذة.
- تجاوز كتب الفروع إلى كتب الأصول في التدريس.
- الاستمرار في نهج خط النصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في مختلف أطوار عمره.
- ب- التعريف بالثقافة العربية الإسلامية، وإبراز قدرتها على مواكبة العصر، وذلك عن طريق :
 - التأكيد على أن الإسلام دين حركة وتقدم، لا دين جمود وتأخر.
 - استلهم ماضي الأمة الإسلامية في عصور قوتها.
 - الدعوة الى الرجوع الى المقومات الدينية، مع التفتح على العصر ومواكبته، بالتعرف على الثقافات الأخرى.
 - محاولة إصلاح التعليم عن طريق تطوير العلوم التقليدية، وادخال العلوم الحديثة، وتعلم اللغات
 - اعتبار التعارض بين الشرق والغرب، حقيقة تاريخية عبر مختلف العصور، مع اختلاف أشكالها فقط .

2- على مستوى الممارسة والتطبيق :

- تتعدد نماذج وأمثلة الجانب العملي عند ابن العربي العلوي، ويمكن الوقوف فقط عند بعض النماذج التي تركز إيمانه بأفكاره، وتحويلها على ميدان العقل والممارسة، ومن ذلك:
 - أ- إيمانه القوي بضرورة الجهاد والثورة ضد المستعمر، وهذا ما جعله يحاول الانخراط في جيش موحا وحمو الزياني، بعد احتلال الدار البيضاء سنة 1908، ومحاولة الالتحاق بحركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، ومراسلة زعماء الجيش العربي المحارب في فلسطين، لقبوله كمتطوع في نهاية الأربعينات.
 - ب- ممارسة السلفية عملا وسلوكا، وذلك بالخروج عن بعض العادات المجتمعية الفاسدة، ومن ذلك زواجه من واحدة فقط طيلة حياته، وهي لا تنتمي للنسب الشريف كما جرت عادة أهل بلده، مما عرضه لغضب النقيب، والسجن لأول مرة، وهو ما زال عريسا وهذا يذكرنا بممارسات من نفس النوع، لرائد السلفية المغربية في القرن 19، محمد بن المديني كنون، الذي رفض التسري بالنساء مثلاً.

ت- ساهم من موقعه المخزني، في إصدار مجموعة من التشريعات المانعة لبعض ممارسات الطرق، و منها بالأخص العيساوية.

3- على مستوى المواقف:

تتعدد المواقف الشجاعة، النابعة من الفكر السلفي لشيخ الإسلام، وتتوزع في كل المناسبات طيلة حياته. وقد أدت به هذه المواقف، إلى النفي مرارا، والتضييق على حريته، ويمكن جرد بعضها على سبيل المثال :
أ- يذكر عنه جل تلامذته أنه " كان يبكي في دروسه عند صدور الظهير البربري، معتبرا أن الاستعمار قد أعلن الحرب ضد القرويين وعلومها بهذا الظهير، وبالتالي ضد الإسلام والعربية

ب- تقديمه استقالته من الوزارة سنة 1944م، احتجاجا على تخاذل الوزراء وجبنهم، وتواطئهم مع الاستعمار، إثر تقديم عريضة المطالبة بالاستقلال
ت- تشجيعه لمحمد الخامس ، أثناء محنة 1952م، بقوله " إذا غلبك المقيم في هذه، فإن ذلك سيفتح لهم باب التجرد عليك، وقد يتطور الأمر إلى أن يبعثوا إليك أوامرهم، في يوم من الأيام، مع مقدم الحومة"
ث- موقفه أثناء إرغام العلماء على مبايعة محمد بن عرفة، وجوابه للقبطان المكلف بذلك: "إنني لن أمضي البيعة، وفي استطاعتك أن تفعل ما تشاء، وتؤكد من أنني لن أحقد عليك"

ج- تدخله وهو وزير مستشار في مجلس التاج ،حين تعرض عدد كبير من رجال المقاومة للاعتقال، بتهمة التآمر على أمن الدولة دون نتيجة، فأثر تقديم استقالته احتجاجا على ذلك. وقد قال في هذا الصدد: "إن المؤامرة ضد المقاومين ليست إلا مكيدة استعمارية للإيقاع برجال المغرب الذين ينتظر منهم تحقيق الجلاء كما حققوا الاستقلال".

إن التمعن في الأمثلة السالفة الذكر، فكرا وممارسة ومواقف، يمكنه ان يخرج بخلاصة أساسية حول سلفية شيخ الإسلام، التي تتجلى في تطورها التدريجي، من الإصلاح الديني، إلى الإصلاح الاجتماعي، إلى الإصلاح السياسي، إلى الموقف الثوري، مع احتواء الباعث الديني والروحي لها جميعا، سواء في الدروس السلفية، أو السخرية من الطرق، أو التعريض بنظام الحماية وممارساته. وبذلك تحققت فعلا عند ابن العربي العلوي، صفة الداعية الديني الوطني، الذي مزج بين السلفية والوطنية. وكان نتاج هذا المزج، تكوين الرعيل الأول من الوطنيين

الشباب، وتزعمهم للخلايا السياسية، وبدايات الاصطدام بالحماية. وفي هذا يقول شارل أندري جوليان: " لا أحد يمكن له أن يفصل العقيدة الدينية والوطنية، حيث أن وطنية هذا السلفي أصبحت رمز التفكير لدى الشبيبة المغربية "

رابعاً : سلفية علال الفاسي

1-تعريف موجز بسيرة علال الفاسي:

علال الفاسي من الأسماء اللمعة على رأس الحركة الوطنية، منذ ظهورها في أواخر العشرينيات، حتى وافته المنية سنة 1974م ببوخارست في رومانيا، أثناء دفاعه عن القضية الفلسطينية، "وينتسب علال إلى أسرة الفاسيين الفهريين، الذين هاجروا من الأندلس إلى المغرب سنة 880 هـ أثناء طرد العرب من الأندلس" هاجروا من لبلة (عمالة اشبيلية) إلى مالقة، ومنها بعد ذلك إلى فاس، مطرودين مع بقية العرب المسلمين. وقد أسهم هؤلاء طوال هذا التاريخ، في العطاء العلمي والوطني. كانوا علماء ووزراء، ولا ينسى أبو المحاسن سيدي يوسف الفاسي، الذي ساهم في معركة "وادي المخازن" ضد الغزاة البرتغاليين، وذلك كمتطوع استطاع أن يتزعم نخبة من رجال العلم والطلبة، وذلك من أجل خوض المعركة التي كانت فاصلة مع البرتغاليين في هجوماتهم المتوالية على المغرب (معركة وادي المخزن 4 غشت 1578).

ينحدر محمد علال الفاسي من أسرة آل الفاسي، صاحبة العلم والمعرفة. فوالده هو الشيخ عبد الواحد الفاسي، الذي عرفته مجالس العلم في القرويين، وفي المنابر خطيباً، وكذلك عضواً في المجلس العلمي. كما عرفته كذلك مجالس الإفتاء في الأمور المستحدثة في ذلك الوقت.

هكذا يمكن القول: بأن محمد علال الفاسي، فرع من شجرة، أي نشأ في بيئة علمية. ولد سنة 1910م، وتربى تربية علمية دينية، لا يغيب فيها الجانب الأدبي، شأن والده عبد الواحد الفاسي، الذي كانت خطبه تتسم بطابع أدبي في أسلوبها البلاغي، وفصاحة الإلقاء، و قد درس علال الفاسي بفاس، وككل طفل مغربي، تلقى تعليمه الأولي بالكتاب، وبالمدرسة الابتدائية، وهي الركيزة الأساسية التي اعتمدت الأسر المغربية عليها في تلقين أبنائها الكتابة، وتحفيظ القرآن، والتربية الخلقية الإسلامية.

مدينة فاس هي منشأ محمد علال الفاسي، ولا شك أن لهذه المدينة أثر كبير على التكوين المبكر لشخصيته الفكرية، فهي عاصمة لأهم الدول التي حكمت المغرب إلى عهد مولاي عبد الحفيظ، وبداية المولى يوسف. هذه الظروف التي عاشتها المدينة، ستطبع فكر محمد علال الفاسي، خاصة أثناء تعليمه الابتدائي والثانوي بجامعة القرويين، وكانت له أنشطة كثيرة أثناء دراسته بهذه الجامعة، حيث انشغل بحركة تنظيم الطلبة، رغبة في تنظيم الجامعة، وتجديد أساليبها الدراسية، ومقاومة الكثير من العادات المتبعة في المدينة، فتزعم بعد ذلك حركة السلفية. يقول محمد علال الفاسي في هذا الصدد: " فالذي لا شك فيه، هو أن السلفية عملت عملها في تسيير آلتنا النفسية وتوجيه تفكيرنا "

قام محمد علال الفاسي بذلك داخل جامعة القرويين، وذلك نظرا لما كانت تعيشه هذه الجامعة في القرن العشرين، من انحطاط المستوى التعليمي. إذ لا وجود فيها لعلوم عصرية، وحتى العلوم العربية الدينية متأخرة جدا، إذ حصرت أسلوب التعليم في تحصيل الفقه والنحو بالدرجة الأولى، واتباع أساليب عتيقة، وكتب معقدة لا تميز بين المتمكن والمبتدئ في تدريسها، وتترك للطالب حرية اختيار الفقيه، والمداومة على الدروس، فلم يكن هناك نظام، بل كانت الطريقة التقليدية الموروثة تربوياً هي السائدة، وهي أخذ العلوم الدينية الإسلامية دون إدخال أي تطور يجعلها تواكب التطور، الذي عرفته بلدان عربية أخرى، كجامعة الأزهر أو الزيتونة.

"إن ترتيب السنين، وتنويع الدروس، لا يعطينا الفائدة المطلوبة منها، إلا إذا كانا مصاحبين بأسلوب نافع صحيح، ويمكننا أن نعتبر مقياس النفع في منهج ما، باعتبار الهدف الذي يرمي إليه من دراسة مادة من المواد. فإذا وجدنا الأسلوب يحقق ذلك الهدف، فهو الأسلوب الصحيح النافع، وإلا فيجب البحث عن تعويضه بغيره من الأساليب، تبعا لتجاربنا أو تجارب غيرنا"¹

وقد برزت شخصية محمد علال الفاسي في عدة مناسبات، من بين شباب العائلة الفاسية، كإحياء ذكرى المولد النبوي، الذي كان مهرجانا تحضره جماهير غفيرة من سكان فاس، وقد جادت قريحة علال بخطاب خاص عن ذكرى الرسول، حيث فاجأ بها منظمي هذه الحفلات التي كانت تقليدية، وقد كتب علال

1- علال الفاسي، النقد الذاتي، ص. 356.

الفاسي قصيدة بهذا الصدد وهي "إليك رسول الله". وفي مناسبة أخرى فاجأهم كذلك بقصيدة طويلة، تحمل مضمونا جديدا، فالأوساط المثقفة آنذاك لم تعهد مثلها، وخاصة ممن لم يتعد السابعة عشر من عمره، هذه المناسبة، أعطت علال الفاسي اسما لامعا في مدينة فاس، التي عاشت آنذاك حياة منغلقة، فعمال الشاب يتحدى من هم أكبر منه سنا حين يقول في مطلع قصيدته :

أبعد مرور الخمس عشرة ألعب وألهو بلذات الحياة وأطرب

وتحدى التقاليد المتبعة في الاحتفال بالمولد النبوي، والقوانين التي كانت تمنع إلقاء الخطب والقصائد في التجمعات، ولو كانت إسلامية يحضرها الجمهور. إضافة إلى هذا الإنجاز، هناك إنجاز آخر، جعل علال يتألق نجما في سماء مدينة فاس، هو أنه تزعم مع أحد أصدقائه، وهو الحسن بوعياذ، كتابة عريضة باسم أعضاء المجلس البلدي في فاس، يحتجون فيها على محاولة تحويل ماء وادي فاس لضيعات المعمرين، والمدينة وضواحيها تعتمد عليه في الري والاستعمال المنزلي. وقد جعل هذا العمل من الممارسة الاستعمارية بطابعها السياسي والاقتصادي، ليست فقط ممارسة إدارية يمكن للسلطات أن تقوم بها، ونظمت تجمعات في القرويين، وضريح مولاي ادريس، للاحتجاج على محاولة تحويل الماء، حيث خطب علال الفاسي في هذه التجمعات.

هذا الانجاز لفت أنظار سلطات الحماية إليه.. شاب أخذ يتجاوز دوره كطالب في جامعة القرويين، إلى توجيه المجلس البلدي، الذي كان أعضاؤه في الغالب من الأعيان، نحو التمرد¹. هذا إضافة إلى إنشائه لجمعية الطلبة المتنورين في القرويين، الذين اشتركوا معه في اهتمامات علمية وأدبية، وكانت هذه الجمعية التي يترأسها علال الفاسي، تنظم مباريات أدبية، فينظم الذين يقولون الشعر من بين أعضائها قصائد تقرأ داخل الجمعية وتناقش، ويجب شاعر آخر بقصيدة تخضع مرة أخرى للقراءة النقدية والمناقشة، ويشهد بعض أعضاء الجمعية، وهو محمد المختار السوسي، أن علال الفاسي كان أبرز الشعراء وأكثرهم إشعاعا، وخير دليل لإثبات هذه الشهادة، اهتمام علال الفاسي، بكل

1- عبد الكريم غلاب، مذكرات من التراث المغربي.

القضايا الوطنية في شعره، فجّل أشعاره تحمل شحنة نضالية¹، بحيث نجد فيه قضايا "الحرية، والدين، والوطنية، والاجتماعية، والتربوية، والقومية والسياسية" إضافة إلى كل ذلك، فإن تلك الجماعات الصغيرة من الطلبة، التي كان علال من أبرز أعضائها، أخذت تطالب بتنظيم الدراسة في القرويين، وتنظيم الشهادات التي تنتهي بها المراحل الدراسية. وقد حملت هذه الجماعات على عاتقها، مهمة الصراع من أجل النضال ضد إدارة الحماية، التي كانت تركز لبقاء الدراسة على شكلها القديم، الذي لا يخضع لنظام، ولا تمنح فيه شهادة رسمية، ولا يتقاضى الأستاذ مرتبات إلا المئحة الضئيلة، التي كانت تخصصها الأوقاف لبعض المدرسين، "وأن مما يزيد في تشجيع المعلم وتنشيطه تحسين حالته المالية"² كما خاضت هذه المجموعة من الطلبة، صراعا ضد بعض التقاليد والخرافات، التي كانت تنخر الفكر المغربي والمجتمع عموما.

هذا الصراع كان من داخل الاتجاه السلفي، الذي انتشر في العالم الإسلامي، بفضل نشاط محمد عبده وجمال الدين الأفغاني في المشرق، وكما سبقت الإشارة، فعلال الفاسي درس في القرويين حيث ولج صفوفها سنة 1927م، ليخرج منها بشهادة العالمية، ونظرا لكونه ارتبط بالعمل السياسي إلى الرمي الأخير من حياته، نجده سنة 1930م يتظاهر ضد الظهير البربري، ليعتقل بسبب ذلك مرتين. ونظرا لرفضه الاعتذار العلني عما صدر منه تجاه سلطات الحماية، سحبت منه شهادة العالمية، ثم أصبح مدرسا متطوعا، وجمع حوله العديد من المستضعفين، وذلك لأصالة دروسه وتحررها.

وبعد إقامته لعدة شهور بأوروبا، التزم بعد عودته إلى المغرب في بداية 1934م في صفوف الحركة الوطنية، التي كانت آنذاك في مرحلة الهيكلة، وكان من بين الشخصيات التي كونت كتلة العمل الوطني المغربي حول مخطط الإصلاحات، الذي وضع بتنسيق مع شخصيات اليسار الفرنسي ابتداء من يوليو 1934م، و نشر باللغة العربية في شتنبر 1934م، وباللغة الفرنسية في نونبر من نفس السنة، ثم ولج قيادة كتلة العمل أثناء المؤتمر الأول، المنعقد في الرباط يوم 25 أكتوبر 1936م، والذي غاب عنه محمد بلحسن الوزاني.

1- مصطفى بلعوني، النضال في شعر علال الفاسي.

2- علال الفاسي، النقد الذاتي، ص. 378.

انتخب رئيسا للجنة التنفيذية لكتلة العمل الوطني، في يناير 1937م، الشيء الذي أدى إلى انشقاق الوزاني، ودعا الى إعطاء الحزب نظاما أساسيا وإلى تنظيمه من القاعدة.

وبعد حظر كتلة العمل، أسس الحزب الوطني في أبريل 1937م، وانتخب علال الفاسي رئيسا له، غير أن القمع المتسلط على الحركة الوطنية، أدى إلى إبعاد علال الفاسي في بداية نونبر 1937م إلى مقر منفاه في الغابون، ثم إلى الكونغو، وبعد صدور العفو في حقه سنة 1949م التحق بالمغرب في يونيو، وكان حزب الاستقلال قد تكون سنة 1944م تحت قيادة أحمد بلافريج، فأحرز علال اللقب الشرفي "الزعيم" وأصبح مندوبا لحزب الاستقلال لدى الجامعة العربية، التي تأسست في مارس 1945م، ووصل إلى القاهرة في ماي 1947م.

قرر علال الفاسي، التوجه الى القاهرة لينظم في العاصمة المصرية مع زعماء المغرب العربي الآخرين، حركة استقلال بلاد المغرب كلها، حيث خلف بورقيبة في منصب الكاتب العام للجنة سنة 1948م. وإذا استثنينا بعض زياراته الطويلة لطنجة، فإن مقامه في القاهرة امتد حتى سنة 1956م، وابتداء من نهاية 1952م أدرج المسألة المغربية بالأمم المتحدة، وبدأ الزعيم زيارات متعددة إلى كل من أمريكا الشمالية، والجنوبية، وأوروبا وآسيا، وذلك من أجل الترويج للقضية الوطنية.

وبعد نفي السلطان محمد الخامس في غشت 1953م، كان من بين أولئك الذين نادوا بالمقاومة. ورجع إلى المغرب سنة 1956م أياما معدودة بعد إعلان الاستقلال، وعين في نفس السنة عضوا في العديد من المجالس الوطنية. ومنذئذ وتاريخه مرتبط بحزب الاستقلال، الذي شارك في تنظيم مكتبه بنيويورك. وفي أعماله أثناء دورة 1952م، إذ عرضت عليه القضية المغربية، وكذلك في سنة 1951م فضح مؤامرة الجنرال جوان ضد العرش، وقاد المعركة في الداخل والخارج ضد دسائس جوان. عرض مرتين مع ثلة من زملائه على المحكمة المختلطة بدعوى إقلاق الأمن، فاضطر إلى الفرار إلى القاهرة.

كما أقنع جامعة الدول العربية، بضرورة عرض قضية المغرب على الأمم المتحدة، ثم عاد إلى القاهرة ليوصل الدعوة للقضية المغربية، على إثر اعتقال زعماء الحزب وأبطاله. وفي يوم 20 غشت 1953م، عندما أبعد محمد الخامس، رفض ذلك وأدان سياسة إيكس ليان.

وبمجرد عودة جلالة الملك إلى المغرب وإعلان الاستقلال، دعا إلى مواصلة الكفاح، لتحرير ما بقي من أجزاء الوطن (الصحراء، سبتة ومليلية) رجع الزعيم إلى المغرب، وشارك في المجلس الوطني الموسع، ووضع برنامجه، وساهم في جميع أعمال الحزب.

بعد الاستقلال، أسس جريدة صحراء المغرب للدفاع عن حدود المغرب الطبيعية والتاريخية، كما أسس لنفس الغرض، مجلة الآفاق الصحراوية باللغة الفرنسية، وكان أول من دعا لعمل إيجابي لوحدة المغرب العربي. وترأس مؤتمر أحزاب المغرب العربي المنعقد بطنجة في أبريل 1958م، كما تزعم الوثبة الجديدة لحزب الاستقلال ضد الانفصاليين عن الحزب في 26 يناير 1959م، وساهم في وضع مدونة الأحوال الشخصية، وكان مقررها العام كما ساهم في وضع القانون المدني.

كان رحمه الله كاتباً وصحفيًا مقتدرا، وخطيباً لامعاً، و شاعراً متفوقاً في أشعار البطولة وإنهاض الشعوب .

2-المسار السلفي لعلال الفاسي:

إن خير ما نستهل به الحديث عن سلفية محمد علال الفاسي، هو مقتطف من كلامه " ففكرنا الإسلامي، يجب أن يتجه اليوم قبل كل شيء إلى إصلاح حالتنا، وتحرير أمتنا من عبث الذين يعيدونها للخرافات والأوهام، وإنقاذها من كثير من التقاليد البالية، التي تمنعها من التقدم والرقى"¹.

تجلت سلفية علال الفاسي، في مقاومة الانحرافات العقيدية، وانتشار الخرافة والوهم بين المسلمين، ودعت إلى تحطيم البنية التقليدية السائدة في البلاد، بالرجوع إلى المرحلة التي كانت قبلها، وهي المرحلة التي كانت تعرف ازدهار الإسلام، أي الرجوع إلى الإسلام الصحيح، والمعاملات والأخلاق والسلوك الحسن، المستمد من أخلاق القرآن والسنة، وكان في ذلك متبعا النهج الذي سار عليه أبو شعيب الدكالي، الذي لعب دورا كبيرا في المغرب. وقد اختص محمد علال الفاسي كسلفي، في ميدان الفكر الحر، وإصلاح المجتمع، كتغيير نظم التربية والتعليم... ولذلك فالسياسة تعمل عملها في توجيه البرامج وإعداد المناهج،

1- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب.

فتصبح اللغة والتاريخ والجغرافية الأجنبية، ذوات المقام الأول في الحصر، وفي الاعتبار العام. ويصبح القسط البسيط المقرر من جغرافية الوطن وتاريخه، موجها بحسب الأغراض الاستعمارية وأهوائها. فالاستعمار لا يعرف النزاهة حتى في الدروس وفي التقرير"¹

و نادى كذلك بتنقية العقائد من الخرافات والشعوذة، والضرب على يد كل من حاول الفصل بين الدين والدولة، وذلك بالتركيز ليس فقط على الدراسات الفقهية التي تعتمد الفروع، بل بالتركيز على الأصول، وعلى مقاصد الشريعة، ولقد سبق أن أشرت إلى أن الاستعمار، أحدث هزة في الأخلاق الاجتماعية، ومن هنا يمكن فهم عمل محمد علال الفاسي كسلفي مصلح، إذ أراد تركيز الثوابت الإسلامية والاجتماعية، فدعا إلى إصلاح المجتمع وإصلاح أخطائه وأخلاقه والاهتمام بدينه. انتقد في كتابه "النقد الذاتي" الذهنية المغربية، طارحا مسائل الفكر، مثل نبذ الأنانية والارتجال في التفكير، والعمل على الالتزام بالتفكير الشامل في كل جوانب حياة المجتمع. ودعا الى الحرية والتحرر من كل أنواع العبودية، أكانت للأشخاص أو للمادة، وإلى حل المشاكل عن طريق الشريعة، مع مراعاة روح العصر والحدثة، والاعتماد على مقاصد الشريعة لبناء الدولة العصرية، ولم تكن هذه الحركة مقصورة على الدعوة ضد الخرافات، بل تجاوزتها لحث الشعب على العلم، والدعوة إلى إصلاح شامل، ومقاومة الجمود في كل فروع الحياة.

يرز علال الفاسي، بأن سلفيته دعوة للرجوع الى الماضي البعيد، أي عصر تطبيق المبادئ الإسلامية الصحيحة. لأن هذا الرجوع هو نفسه تحرر كبير من أشياء وضعتها الأجيال العديدة، والعصور المختلفة والتحرر منها، هو تحقق السير الى الأمام بخطى سريعة، وهنا ينبذ كل التقاليد البالية الموروثة والغير المفيدة، ويدعو لإزالتها من الطريق، الأمر الذي يفتح أفقا عاليا، يهدي السائرين للغاية الصحيحة. وفي الوقت الذي يوجه الفكر المغربي الى الثورة على الطرقية، ونبذ الخرافات، يحث فيه على العلم، والقيام بالإصلاح الشامل لكل فروع الحياة المغربية الاجتماعية، أو السياسية أو الفكرية أو الاقتصادية.

1- علال الفاسي، النقد الذاتي، ص.370.

3- كيف نظر الى العالم في القرويين أو المعاهد الدينية ؟

لقد رأى بأن العالم في هذه الروافد، يجب عليه، إضافة الى معرفته علوم الدين، أن يكون له رأي في كل الشؤون العامة، ولا يحصر العلم في الدين فقط، بل يعرف كل العلوم الموجودة في العالم، والضرورة لتطور المجتمع، فكانت هذه النقاشات التي تحدث بين جمهور العلماء، الذين ينظرون في التراث، والتدقيق في المباحث اللفظية، التي يجب أن يقف عندها العلم، وبين ذوي الأفكار الجديدة، وهم السلفيون، فكانت من بين الأسئلة التي طرحها محمد علال الفاسي، كيف يمكن الإصلاح في ظل التعامل مع المنظومة والمرجعية الأوربية؟ لذا نراه يدعو إلى السير إلى الأمام، ويقود ثورة فكرية على الطرقية والجمود. "انتشر التفكير وعم سائر طبقاتنا يوم كانت تعاليم القرآن هي التي تهدينا إلى السبيل ..لكن تكون فينا أيضا نوع من النازية...فوجد بيننا دعاة للجمود وأنصار التقليد، ومحتكرون للفكر ينشرون بين العامة أنهم لا يستطيعون أن يتدخلوا فيما لا يعينهم من المسائل التي يجب أن تظل مقصورة على الشيوخ الروحيين، والرؤساء الماديين، استطاعوا أن ينزعوا من الأغلبية الساحقة من قومنا، أحسن ما لديهم وأغلاه وهو الفكر"¹.

دافع محمد علال الفاسي، عن حرية الفكر وتعميمه ، واعتبر الحرية في التفكير ونشرها، واستنباط الأدلة اعتمادا على الأصول الكلية للشريعة، أي انه لا يعني باستعمال العقل التجرد من الدين، بل الحث على استعمال العقل من أجل الوصول الى تطبيق تعاليم الدين الصحيح، التي تدعو الى محو الجمود وبناء المجتمع العصري الإسلامي، كما سبقت الإشارة. وقد ظهرت هذه المرحلة في تفكير محمد علال الفاسي بعد الظهير البربري، فأصبحت السلفية مرتبطة بالحركة الوطنية، وبالتطورات السياسية، التي أدت في نهاية الأمر الى إنشاء الأحزاب السياسية. وهو عندما يدعو إلى استعمال العقل، إنما يقصد الاجتهاد في تصحيح أوضاع البلاد، بأخذ الأدلة من الشريعة، حتى لا تحدث مناقشة عقيمة بين أنصار التقليد والتجديد، لأن التطور السياسي للبلاد، أصبح يفرض هذا التوجه، ويؤكد على أن الشريعة الإسلامية، خولت للفرد الحق في استعمال عقله، وحق النظر من

1- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

أجل تحقيق المصلحة العامة، واقتباس كل ما لا يتناقض مع أسس هذه الشريعة، وما يسير في اتجاه مقاصدها وغاياتها الهادفة إلى إصلاح المجتمع، وتقويم سلوك الأفراد والتجديد والتقدم والتحديث، مع مراعاة ثوابت الإسلام الحقيقية، واللغة والهوية الإسلامية، وهنا تظهر سلفية محمد علال الفاسي التقدمية التي تدعو الإنسان إلى الاجتهاد، مع مراعاة النص، مستدلاً بحديث شريف "إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها"¹. وتحت على حق الشعب في اختيار من ينوب عنه، وفي مراقبة أعمال القائمين على الحكم، وأن للشعب الحق في الاختيار والمراقبة، لأنه يتمتع بالمواطنة، وذلك دون النظر إلى مذهبه، أو جنسه، أي إبعاد عامل العنصرية والمستوى الثقافي.

لا يرى محمد علال الفاسي الديمقراطية الصحيحة، إلا من خلال توفير تنظيم للدولة، يشتمل على وجود هيئات نيابية، أو حزبية ونقابية، وعلى تنظيم حكومي، وعلى نظام الانتخاب، لتحقيق الدستور الذي تنشده الأمة. وبدون انتخاب، لا تتحقق الديمقراطية، التي لا يمكن أن تخرج عن فكرة ومبدأ أساسي، هو أن المغرب ملكية دستورية، وهذا ثابت من الثوابت الأولى في ديمقراطية محمد علال الفاسي، التي لا محيد عنه.

وختاماً فإن سلفية محمد علال الفاسي، لا تقتصر فقط على البحث عن المبررات الشرعية الفقهية والدينية، لتبرير المواقف التي سيضطر السلفيون إلى تبنيها، لشرح بعض النوازل، في ظل المنظومة الأوربية، بل تجاوزت ذلك لتصبح وسيلة مستخدمة من أجل التحرر من الاستعمار، وبناء المجتمع الإسلامي العصري، لأنها اعتمدت العقل والعلم، ومقاصد الشريعة لحل مشاكل المجتمع، وربطت الإصلاح الديني بالاجتماعي والسياسي، ودعت إلى الاجتهاد وأخذ الأدلة من الأصول، ووصلت ذروتها بتحولها من حركة سلفية محضة، إلى حركة سلفية وطنية جديدة. "نحن نعتقد بأن الإسلام ومعه الوطنية، يستطيع أن يمزج ما في الفلسفات والنظريات الغربية، من حياة وحركة، ويتعداها بما هو خالد -أبدي-

2،

1- المصدر نفسه، ص. 89.

2- المصدر نفسه، ص. 118.

تكيّفت سلفية محمد علال الفاسي، مع الوقائع والأحداث، ودعت إلى التحرر من الاستعمار، فأصبحت الإطار الفكري، الذي تبنته الحركة الوطنية، التي ربطت بين العمل السياسي والعمل الديني. إن للإصلاح عند محمد علال الفاسي مفهوم واسع، مرتبط بمفهوم التحرر وبناء المستقبل... ويجمع بين الإسلام ومقاصده الوطنية، والديمقراطية والتعادلية في عقيدة واحدة متضامنة¹.
ولذلك حارب الطريقة التي تعاملت مع المستعمر لتثبيت وجوده، وكان الجهاد سياسيا وطنيا، مرتبطا بالفكر السلفي، وأصبحت السلفية الإطار والمشروع الذي تقوم عليه الدولة المغربية الحديثة لما بعد الاستقلال.

إن نتيجة المقارنة بين الرائدتين في هذه المحاولة، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- (1) اعتبار محمد بن العربي العلوي ومحمد علال الفاسي كل منهما يكمل الآخر فكرا وممارسة
- (2) التقاؤهما في المسار السلفي، وإن اختلفا في السياسية
- (3) يعتبر مسارهما السلفي آخر مسار في السلفية المستنيرة، قبل أن ينحرف المسار، لسلفية معاصرة بدأت تقطع صلتها بالإشارة السالفة الذكر.

¹- محمد العلمي، علال الفاسي رائد الحركة الوطنية المغربية، ص. 184.



شيخ الإسلام إلى جانب جلالة المغفور له محمد الخامس والفقير البصري

الساوية: مقاربات متنوعة

إدريس حمادي
محمد المصباحي
محمد المعروف الدفالي
عبد العالي العمراني جمال



شيخ الإسلام خطيباً (أرشيف العائلة الخاص)

الإسلام من منظور السلفية

في ثلاث محطات

إدريس حمادي

بعد التحيات الطيبات للأستاذ الفاضل المجاهد السي محمد بن سعيد أيت إيدر، الذي كرس حياته لخدمة هذا الوطن العزيز، ولا يزال بالرغم من وهن العظم واشتعال الرأس شيباً، وبعد التحيات الطيبات للجنة المنظمة لهذه الندوة المباركة، وعلى رأسها الأستاذ الفاضل: أحمد السليمان، وبعد التحيات الطيبات للأستاذ المسير لهذه الجلسة العلمية الدكتور الفاضل محمد العمري.

أقول: إذا كانت السلفية تعني الممارسة الدينية لجماعة يطلقون على أنفسهم السلفيين، وكان المعنى الذي استقر لهذه الكلمة هو الممارسة الإسلامية التي كان عليها أهل القرون الثلاثة الأولى من عمر الأمة الإسلامية، لقوله عليه الصلاة والسلام: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته"¹. وكان الجمهور يرى أن هذه الخيرية ثابتة لأفراد هذه القرون الثلاثة جميعاً، على اختلاف درجاتهم وتفاوتهم في الصلاح والاستقامة، عكس الإمام ابن عبد البر الذي يذهب إلى أنها ثابتة لمجموع المسلمين في تلك العصور الثلاثة، أما الأفراد فقد لا تنطبق الخيرية على بعضهم، بل قد يأتي فيمن بعدهم من هو أفضل منهم².

ويرون كذلك أن هذه الخيرية إنما جاءت لهذه القرون الثلاثة من كونها تمثل الحلقات القريبة الأولى من السلسلة الموصولة بينبوع النبوة وتعاليم الرسالة، فالحلقة الأولى منها تمثل حلقة الصحابة رضوان الله عنهم. والحلقة الثانية حلقة التابعين الذين خالطوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما الحلقة الثالثة فهي تلك التي تمثل تابعي التابعين³.

1- المحطة الأولى

أقول: إذا كان هذا هو ما تعنيه كلمة السلفية والسلفيين، فإن السؤال الآن هو: كيف فهم السلفيون الأوائل الذين نوليهم وجهتنا ونتخذهم قبلتنا، الدين الإسلامي؟ وكيف تمت قراءتهم لنصوصه؟

للإجابة عن مثل هذا السؤال يمكن تناول الموضوع من ثلاثة جوانب: جانب تاريخي، وجانب مضاميني، وجانب منهجي:

بالنسبة للجانب التاريخي يبدو أن تشخيصه ممكن بعدة آيات.

أولها هذه الآية التي يجمل فيها الحق سبحانه وتعالى معالم هذه المسيرة التي قطعها الدين الإسلامي عبر تاريخه الطويل في قوله تعالى: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ

1- رواه الشيخان.

2- نقلا عن كتاب السلفية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ص 10.

3- أنظر المرجع السابق: ص 9-10.

الدِّينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ" (الشورى 13).

ثم في آيات أخرى يصرح باسم هذا الدين الذي وصى به نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم. فيقول في حديثه عن دين نوح عليه السلام: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ" (يونس 70) إلى أن يقول سبحانه: "وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (يونس 71) ويقول سبحانه في حديثه عن دين إبراهيم خليل الله: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا" (آل عمران 67)، ويقول سبحانه كذلك في حديثه عن دين موسى عليه السلام: "وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ" (يونس 84)، ثم يقول في حديثه عن دين طائفة من الأنبياء ضمنهم عيسى عليه السلام: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (البقرة 136)، ثم يقول سبحانه عن دين النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: "قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسَكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" (الأنعام 162-163).

ثم يقول في حرص كل الأنبياء والرسل على ملة الإسلام ورغبتهم في توريثها لذرياتهم: "وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَوْصَى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (البقرة 130-132).

وهكذا يتحدث القرآن الكريم عن المسيرة التي قطعها الدين الإسلامي حتى بلغ النهاية التي كان التعبير عنها بقوله تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (المائدة 3). ومن هذه المسيرة نعلم أن قوله تعالى: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (آل عمران 85)، وقوله: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ" (آل عمران 13)، لا يختص بمن بعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو دين واحد

عام في الأولين والآخرين، وإن كان الآخرُ منه ينسخ الأول. ونعلم من جهة أخرى حقيقة ما ذهب إليه أهل الكتاب في قوله تعالى: " وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى " (البقرة 111)، ثم قولهم، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ " (البقرة 113)، أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعا متواردة على تصديق بعضها بعضا¹.

بقيت الإشارة إلى أن الإمام الرازي عند تفسير قوله تعالى: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ " طرح سؤالاً جاء فيه: هل كان الدين الإسلامي ناقصاً قبل نزول هذه الآية؟ وكان الجواب عنه بثلاثة أجوبة اختار من بينها ما ذكره القفال رحمه الله وهو: "أن الدين ما كان ناقصاً البتة، بل كان أبداً كاملاً، يعني كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت، إلا أنه تعالى كان عالماً في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه، فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت، وكان يزيد بعد العدم. وأما في آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعته كاملة، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبداً كان كاملاً، إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص، والثاني كمال إلى يوم القيامة، فلأجل هذا المعنى قال: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ "².

هذا عن المسيرة التاريخية، وأما عن الجانب المضاميني لهذا الدين الحنيف فيبدو أن تشخيص ذلك سيكون من طريق استعراضنا لطائفة من الثوابت الواردة في القرآن الكريم، الذي استقر فيه وضع الاسلام:

- **الثابت الأول:** أن الدين الإسلامي هو القرآن الكريم، والسنة النبوية الشارحة له، وما اصطلح عليه علماء الأمة بالإجماع، الذي ليس هو في "أمر الدين المحض، كالعقائد والعبادات والحلال والحرام، وإنما يكون الإجماع في مثل مسائل الأمن والخوف والأموال، والإدارة والسياسة الداخلية والخارجية، إذ هي التي تختلف

1-الكشاف: 305/1.

2-مفاتيح الغيب: 138/11.

باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية في الزمان والمكان¹ ولأنه في مثل هذه القضايا ورد قوله تعالى: " وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " (آل عمران 159).

- **الثابت الثاني:** أن الدين الإسلامي فطرة، فطر الله الناس عليها، قال تعالى: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (الروم 30).

بهذه الجمل التي تتركب منها الآية يتم تعريفنا بماهية هذا الدين. والجمل تعكس طائفة من الحقائق، أولها أن الله سبحانه وتعالى يخبر أن هذا الدين قد خلقه الله مركبا في العقول، حيث وضع في عقول الناس: استحسان الإيمان، والعدل، والإحسان، كما وضع في عقولهم استقبح الشرك، والظلم، والردائل، فكان بذلك هذا الدين جاريا على وفق ما يدركه العقل ويشهد به. وثانيها أن إسلاما بهذه التركيبة العجيبة وبهذا التداخل بين العقل والشرع، هو إسلام لا أحد يستطيع أن يبدل في تركيبته: "لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ". وثالثها أن إسلاما بهذه الصفات التي هي صفات التطابق من جهة والتكامل من جهة، بين العقل والشرع²، هو إسلام لا عوج فيه: "ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ"، والإشارة بذلك إلى قوله: "فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا". ورابعها أن إسلاما بهذا العمق لا يدرك كنهه كثير من الناس: "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

- **الثابت الثالث** أن الإسلام دين العقل من جهة والتكليف من جهة، وإن شئت قلت هو دين مركب من العقل والنقل. وفي هذه التركيبة يقول الراغب الأصفهاني في قوله تعالى: "نُورٌ عَلَى نُورٍ" حيث قال: "جعل الله تعالى لنا العقل الذي ركب فينا، وكتابه الذي أنزله علينا، نورا هاديا فقال في وصف نوره: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ" (النور 35)، فجعل المصباح مثلا للعقل، والمشكاة مثلا لصدر المؤمن، والزجاجة لقلبه، والشجرة المباركة وهي الزيتون للدين، وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبئها على أنها مصونة عن التفریط والإفراط كما قال تعالى: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ " (الإسراء:9)،

1- تفسير المنار: 200/4

2- انظر ما قلناه عن التطابق والتكامل بين العقل والشرع في كتابنا: "في هندسة الخالق لخلقه" الفصل الرابع من الباب الأول.

والزيت للقرآن، وبين أن القرآن يمد العقل مد الزيت المصباح، وأنه يكاد يكفي لوضوحه وإن لم يعاضده العقل. ثم قال: "نُورٌ عَلَى نُورٍ" أي نور القرآن ونور العقل، وبين أنه يخص بذلك من يشاء"¹.

- **الثابت الرابع:** أن الدين الإسلامي هو دين التوحيد والعدل، وللتدليل عليه نسوق هذه الآية الكريمة، قال تعالى: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ" (آل عمران 18-19)، يقول الإمام الزمخشري شارحاً هذا الثابت²: "قوله تعالى: 'إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ' جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى، يعني قوله تعالى: 'شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ'. فإن قلت ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت فائدته أن قوله: لا إله إلا هو" توحيد، وقوله قائماً بالقسط" تعديل، فإذا أردفه قوله: "إن الدين عند الله الإسلام" فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وماعداه فليس عنده في شيء من الدين"، ثم قال: فإن قلت: لم كرر قوله: لا إله إلا هو؟ قلت ذكره أولاً للدلالة على اختصاصه بالوحدانية، وأنه لا إله إلا تلك الذات المتميزة، ثم ذكره ثانياً بعدما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل للدلالة على اختصاصه بالأمرين، كأنه قال: لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين، ولذلك قرن به قوله: "العزیز الحکیم" لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل"³.

- أما **الثابت الخامس**، وهو الخاص بالوسائل التي من طريقها يتم تثبيت الدين الإسلامي على أرض الواقع والوسائل التي يتم من طريقها الإخلال بهذا الدين، فيتجلى فيما وقع التعبير عنه بقوله تعالى: "وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا". إذا تأملنا الآية بكاملها وأعني بها قوله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ

1- الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص 70.

2- طرح علي الأستاذ محمد العمري سؤالاً هذا نصه: أنت تتحدث عن التصور السلفي، فهل الزمخشري من السلفيين، أم تقصد مطلق السلف؟ وكان الجواب: عقد الأستاذ محمد عزيز الحبابي في مقاله: "السلفية رجعية أم تقدمية" عنواناً فرعياً: السلفية والاعتزال؛ ومما جاء فيه: كان محمد عبده أول من اهتم بالمعتزلة في أوائل هذا القرن-القرن العشرين- بعد أن كان الأشاعرة يكفرونهم... انظر الوهابية، المؤسس، الفكر والحركة. منشورات الملتقى، عبد الصمد بلكير.

3-الكشاف: 138/1.

كَانَ ظُلُومًا جَهُولًا" (الأحزاب 72) تبين لنا أن حمل الأمانة التي فسرناها بالعقل والتكليف لا يمكن أن يتم إلا من طريق العلم والعدل، وأن الإخلال بها أو بالدين الإسلامي لا يحدث إلا من طريق الظلم والجهل، بمعنى أن وسائل التعمير والبناء هي العدل والعلم، ووسائل التخريب هي الظلم والجهل. وبذلك يتبين أن الأمانة أو الإسلام هي العقل والتكليف وأن الوسائل المساعدة على حملها أو الإخلال بها هي من جهة العلم والعدل، ومن جهة الظلم والجهل¹، ويجب التنبيه هنا إلى أن العلم المقصود في الآية أعم من العلم بالدين، بدليل أن معرفة الخالق سبحانه إنما تتم بالنظر في موجودات هذا الكون العجيب، والقرآن الكريم.

بالإضافة إلى هذه الثوابت - وغيرها- التي تعكس بالبراهين القاطعة أن الإسلام دين التوحيد والعقل والعلم والعدل، يمكن القول مرة أخرى إن الدين الإسلامي عبارة عن شبكة من القيم تجعل معالم الطريق واضحة لمن راعاها. وإذا أردنا أن نرسم خريطة لهذه القيم أمكن القول: إذا كان المنهج الرباني الذي أنزله الحق سبحانه وتعالى على رسوله، صلى الله عليه وسلم، ليكون هدى ورحمة للناس قد اتخذ ثلاثة مناح هي: العقيدة، والشريعة، ومكارم الأخلاق. فإن العلماء لما نظروا في هذه المناحي، وجدوا أن هذه القيم، وإن كانت كثيرة كالحق، والعدل، والإحسان، والرحمة، والكرامة، والحرية، والسماحة، والتيسير ورفع الحرج، والوفاء بالعهد، والجنوح إلى السلم، ودرء السيئة بالحسنة، والدفع بالتي هي أحسن، فإنه مع ذلك يمكن اختصارها في أمهات بعينها، حيث قالوا في منحى العقيدة: إن جميع ما ورد ذكره في هذا الباب يمكن اختصاره في قيمتين كبيرين هما، قيمة الربوبية وقيمة العبودية. وفي منحى الشريعة قالوا: إن كل ما ورد في هذا المجال يمكن اختصاره في: حفظ الدين والنفس، والعقل، والنسل والعرض والمال. كذلك اختصروا ما ورد في منحى مكارم الأخلاق في: العفة والعدل والسخاء، والشجاعة.

ومعنى هذا أن هناك مجموعة من المصابيح الكاشفة نصبت على جنبات الطريق.

1- أنظر الفصل الثالث من الباب الأول من كتابنا: في هندسة الخالق لخلق.. فقد خصصناه لمفهوم الأمانة التي حملها الإنسان.

بعضُ منها ينير طريق الإنسان في علاقته بخالقه الذي أوجده من العدم، ثم تعهده بالتربية في جسده وفكره. وبعضُ منها ينير طريق الإنسان في علاقته بنفسه وبالغير، وبما يخدمه ويخدم الغير، مما هو موجود في الأرض من خيرات. وبعض منها ينير الطريق من الداخل، داخل الإنسان ويتجلى في أربعة مصابيح هي: العفة والعدل والسخاء والشجاعة.

على أن من العلماء من حصر جميع القيم في قيمتين كبيرين هما: تعظيم الله، والشفقة على خلق الله¹. وفي ضوء الشفقة على خلق الله، قالوا: دخل جماعة على الفضيل بن عياض، رحمه الله، فقال: من أين أنتم؟ قالوا من خراسان، فقال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن كل الإحسان، وكان له دجاجة فأساء إليها، لم يكن من المحسنين².

هذا عن الجانب التاريخي، والمضاميني، وأما عن الجانب المنهجي الذي أرسى قواعده طائفة من العلماء، فينبغي التنبيه إلى أن أول من وضع قواعده هو الإمام الشافعي في كتابه الرسالة، ثم جاء من بعده علماء عملوا على رفع هذه القواعد، كان في طليعتهم الإمام الغزالي والإمام الشاطبي.

أول شيء لفت الأنظار إليه الإمام الشافعي، هو أن هذا القرآن الكريم المشخص للدين الإسلامي، قد تم إنزاله بلسان عربي مبين. ومن ثم "فإنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل معه لسان العرب وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها"³.

أما الإمام الغزالي الذي ساهم بحظ وافر في رفع القواعد كلها من علم أصول الفقه، فلعل أهم عمل قام به هو ضبطه المنهج وذلك بحصره هذه القواعد. حيث ذكر من جهة المادة المدروسة، لأنها لا تتجاوز خطاب الله وخطاب الرسول، ثم خطاب الأمة المسمى بالإجماع، وذكر من جهة أخرى، أن

1- أنظر كتابنا في هندسة الخالق إلى خلقه... فقد فصلنا القول فيه عن القيم ودورها في التعريف بما يسأل عنه الإنسان

2- مفاتيح الغيب: 42/19.

3- الرسالة: ص 50.

أمهات القضايا التي يتولى الأصولي دراستها في المادة المبحوث فيها لا تخرج عن أربع:

الأدلة المثمرة للأحكام أو القوانين، والثمرة المجتناة منها، التي هي عبارة عن أحكام ومقاصد، ثم كيفية النظر فيها، ثم المجتهد الذي يمارس عملية النظر والاستثمار أو الاجتهاد. وعلى هذه الأسس الأربعة، أو الفنون كما أسماها في كتابه المستصفى. بالإضافة إلى هذا الحصر، نجده ينبه إلى أن أهم ما في علم أصول الفقه، هو معرفة طريقة الاستثمار، إذ فيها يتم التعرف على ما يفهم من جهة الألفاظ، وما يفهم من جهة التعليل، وما يفهم من جهة الاستقراء، وما يفهم من جهة القرائن الحالية.

وأما بالنسبة للإمام الشاطبي، فيمكن القول، إن أهم ما قام به في رفع قواعد المنهج، هو شرحه للمصلحة المرسلة، التي قال بها الإمام مالك، حيث بين أن "كل مصلحة تكون من جنس المصالح التي يقررها الشارع الإسلامي، بأن يكون فيها محافظة على النفس والدين والنسل والعقل والمال، ولكن لم يشهد لها أصل خاص حتى تصلح قياساً، فإنها يؤخذ بها على أنها دليل قائم بذاته، وهذه هي التي تسمى مصلحة مرسلة أو استصلاحاً"¹، وبذلك يكون قد فتح الباب على مصراعيه أمام العقل البشري في ميدان التشريع، إذ جعل المصلحة المرسلة التي لا يشهد لها نص بالاعتبار ولا بالإلغاء دليلاً قائماً بذاته، تؤخذ منه الأحكام كما تؤخذ من الكتاب والسنة.

2- المحطة الثانية

هذا بعض مما قام به السلفيون الأوائل في التعامل مع النصوص المشخصة للدين الإسلامي، من أمثال أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن تيمية، وابن القيم وغيرهم كثير؟ وأما عمن جاء بعدهم من الأتباع، فيمكننا أن نتساءل: هل بقي السير على هذا المنوال الذي سار عليه السلفيون الأوائل؟

لن نتحدث هنا لا عن الجمود الذي نشأ، ولا عن التعصب الذي ساد، ولا عن إغلاق باب الاجتهاد الذي تم فرضه. ولكن نكتفي بهذا النص، الذي شخص فيه الفقيه الأديب الشيخ أمين الخولي الأسباب والغايات التي حملت

1- أصول الفقه للشيخ محمد أبو زهرة: ص 232.

طائفة من العلماء المتنورين على المناداة بالرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح، يقول هذا العالم السلفي المعاصر:

"إن هذه القوى الحيوية (للإسلام) تشبه نبعا صافيا عذبا سائغا، ثم مضى يجري في وادي الحياة، فعلق به في مجراه ما يعلق عادة من أعشاب وطحالب ومواد ذائبة من أرض المجرى، بل قد تكدس من هذه الأشياء جملة ما يضيق به المجرى ويبطئ سير التيار الحيوي، فتتوقف مياهه حتى تركد وتأسن في وقت ما، وعند مكان ما، فيحسب من رأى هذا الماء في زمانه ومكانه المتغيرين، أنه كذلك كانت طبيعته دائما، مع أنه هو الذي كان في الواقع نميرا سائغا، حينما فاض من عينه الأولى، فإذا ما تابع الناظر هذا المجرى الذي فيه الماء الآسن أخيرا، وتتبع مجراه حتى وصل إلى منبعه الأول، فسيتكشف له ما في هذا الماء من عذوبة وحلاوة وصلاحية لإنبات الزرع، وإحياء الأحياء... فالتجديد أو الإصلاح عندهم، شبيه بهذا العمل في الرجوع إلى المعين الأول للاستقاء منه، ورد الناس إليه ليعرفوا أن هذه الرواسب والعلائق ليست إلا طارئة عليه، فإذا ما نحوها عنه عاد عذبا فراتا".

ثم يعلق الشيخ على هذا المثل، مبينا فيه كيف ينبغي أن يكون الرجوع إلى المنبع الصافي العذب، فيذكر من جملة ما يذكر: بأن "إصلاح المجرى، وصيانة عذوبة الماء وفائدته، لا تقف أبدا عند الرجوع إلى مصدره للاستقاء منه، بل يعد الرجوع إلى المصدر نفسه، عاملا من عوامل إكثار الماء وحمايته وصونه، وزيادة الانتفاع به، وذلك هو التجديد أو الإصلاح التطوري، فالتجديد بهذا الاعتبار، ليس إعادة قديم كان، وإنما هو اهتداء إلى جديد كان بعد أن لم يكن، سواء أكان الاهتداء إلى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجودا، أم بطريق الاجتهاد في استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن"¹.

انطلاقا إذن من هذا المثل، الذي وجدنا الشيخ فيه يحدد الأسباب من جهة، والغايات من جهة. يمكن القول: إن السلفية المعاصرة "قامت بنقد للموروث - على حد تعبير الأستاذ محمد عزيز الحباي² - منظفة الفكرولوجيا

1- المجددون في الإسلام للشيخ أمين الخولي: ص 26 نشر الملتقى، تحرير عبد الصمد بلكير.
2- مقال للدكتور محمد عزيز الحباي، ضمن كتاب: الوهابية. المؤسس. الفكر والحرية منشورات الملتقى، عبد الصمد بلكير.

الإسلامية من رواسب اللاعقلانية والتدجيل والخرافات والأساطير والإسرائيليات. لقد وجدت الأصل قد تشعب بالبدعة الضالة، ووجدت الصدق والاستقامة اللذين تأسس عليهما الإسلام، قد امتزجا بإضافات ابتداعية استغلالية، كما وجدت الناس قد تناسوا في تقشفهم وزهدهم الحياة اليومية، وحصروا كل الاهتمامات في الأخرويات، فتجد السلفيون للكفاح فكريا وأخلاقيا، بحثا عن النبع الصافي الأول بفكر نقدي وعقلاني وثوري. حاول أصحابها بالوسائل التي توفرت لديهم أن يصفوا المجرى من رأس العين بعد أن وقع في نفوسهم شعور بالخيبة أمام الأوضاع.

كان قصدها الأول تغيير الأوضاع العقدية والمجتمعية، وإعادتها إلى أوضاع تحكمها الأصول، ويعلي من شأنها الاجتهاد، لتقضي على الذهنية الخرافية، وعلى الإسرائيليات حتى يعود المسلمون إلى الأصول الدينية، وقد أزيل عنها الصدا وتحررت من الدروشة.

ثم انضاف عنصر الوطنية، حيث وجدناها قد حولت الوطنية من عاطفة إلى حركة دينية وسياسية، حركت السواكن في فترات عصيبة لم يكن لسواهم في الكفاح التحرري والثقافي والسياسي وجود".

فكانت جمعية العلماء بالجزائر، وكانت مدرسة محمد بن العربي العلوي، وعلال الفاسي، وكان محمد بن عبد الكريم الخطابي بالمغرب.

ثم يقول: من يجهل الدور الذي لعبه محمد السنوسي، ومحمد عبده ورشيد رضا في تلقين العرب والمسلمين العقلانية، ونشر اللغة العربية الفصحى، وتفسير القرآن تفسيراً شجاعاً، يرمي إلى التعصير وحرية الفكر في النطاق المحدد بالموضوع والظروف.

ومن يجهل ما قامت به مدرسة الشيخ محمد بن العربي العلوي، والمؤسسون الأولون للحركة الوطنية مثل علال الفاسي، وعبد العزيز العماروي، ومحمد بن الحسن الوزاني، ومحمد غازي، وإبراهيم الكتاني... وكثير غيرهم، وأن محمد الخامس، محرر المغرب الأكبر تأثر بالاتجاه السلفي، وأخذ عن محمد بن العربي كباقي الزعماء، وكانت لجلالته مواقف واجتهادات... فعن مدرسة ابن العربي العلوي تكونت كتلة العمل الوطني "وهي أول تنظيم وطني سياسي".

وإلى جانب هذا فقد كانت مدرسة "محمد بن العربي العلوي، رمزا لتهديم الفكر الخرافي والزوايا، وكل ركائز الاستراتيجية الاستعمارية، مثله كمثل عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي وبقية أعضاء جمعية العلماء. لقد نجح السلفيون رغم الحواجز التي نصبها في طريقهم دهاة المستعمرين، نجح التحدي وانتشر إشعاع السلفية فتحققت دعوتها مظهرة أنها ليست انحرافا عن الدرب الثوري".

قال الأستاذ علال الفاسي شارحا بعض ما كانوا يتشوفون إليه: "إذا قلنا الثورة فلا نعني الهدم أو الخروج عن العدل، الذي يعني في اللغة العربية المساواة، ولا عن الإحسان الذي يعني في الإسلام الإتيان والتقوى، ولكننا نريد الانعتاق من تقاليد البيئة الاجتماعية، التي جعلتنا لا نحس إلا بوجودنا الخاص [...] يجب أن نكيف نفوسنا بحسب ما يقتضيه العدل والإحسان، كما يفهمها الإحسانيون في هذا العصر، لا كما فهمهما أسلافنا في عصر الانحطاط الأخير"¹.

وقال الأستاذ محمد عابد الجابري، في الرد على من يزعم أن السلفية في جوهرها حركة رجعية: "إن السلفية الدينية ليست تقليدا أو رجعية، بل إصلاحا وتجديدا وتحررا، إنها "ترفض التقليد وتنادي بالرجوع إلى الأصول، إن رفض التقليد يكتسي هنا معنى خاصا محددا. إنه إلغاء التراث المعرفي والمنهجي والمفهومي المنحدر إلينا من عصر الانحطاط، والعمل على بناء فهم جديد للدين عقيدة وشرعية، انطلاقا من الأصول مباشرة، وصولا إلى تحيينه، أي جعله معاصرا لنا، نحن أبناء القرن العشرين [...] إن الدعوة السلفية إذن، دعوة إلى الأصالة، إلى استعادة الجذور والحفاظ على الهوية"².

3- المحطة الثالثة

لكن هل بقيت السلفية سائرة على هذا النهج القويم، الذي رسم معالمه الرعيل الأول من الصحابة رضوان الله عنهم، والتابعين وتابعي التابعين، واقتفى أثره السلفيون المنتورون من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد بن العربي العلوي، ومحمد بن عبد

1- أنظر المقال المثبت في المرجع السابق.

2- نقلا كذلك من المقال المثبت في المرجع السابق.

الكريم الخطابي وغيرهم كثير؟ هل بقيت السلفية سالكة ذلك النهج في التعامل مع الخطاب الإلهي فكرا وممارسة، مثل ما فعل الأئمة: أبو حنيفة، ومالك، وابن القيم وغيرهم كثير، حيث كانوا يراعون القواعد الأصولية من جهة والمقاصد الشرعية من جهة؟ هل بقيت السلفية عبارة عن ذلك الشعار الذي كان أصحابه يعبرون به "بطريق المفهوم المخالف عن مدى انغماس أكثر الناس في البدع والخرافات، وبعدهم عن الإسلام الذي كان يتحلى به السلف الصالح رضوان الله عنهم؟"¹ أم أنها ابتدعت بدعا أخرى لم تكن معروفة من قبل، فأصبحت بهذه البدع في حاجة إلى سلفية متنورة أخرى، لتكنس ما علق بالمجرى من جديد؟

لكي نجيب عن مثل هذه التساؤلات بالإيجاب أو بالسلب، دعنا نطلق من هذا الثابت الذي نجد الإسلام قد عمل على تكريسه بين المسلمين بمختلف الأساليب، حتى لكأنه المعيار الاجتماعي الذي يفرق بين المهتدي بهدي الإسلام، والجانح عن هديه، وأعني به الاتحاد والاتلاف من جهة، والفرقة والاختلاف من جهة.

في تشخيص هذا الثابت الإسلامي، يقول الحق سبحانه وتعالى: "وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" (آل عمران 103). ويقول سبحانه: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (آل عمران 104-105) ويقول سبحانه: "وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ" (البقرة 213)، وقال سبحانه: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" (آل عمران 19)، وقال سبحانه: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ" (الشورى 13) وقال جل جلاله: "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ" (الأنعام 159).

1- السلفية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 234.

كيف فهم السلفيون المهتدون بهدي الإسلام هذه النصوص وكيف عملوا بها؟ لننقل بداية: إنهم فهموا من هذا الإلحاح في الدعوة إلى الاتحاد والائتلاف والنهي المبالغ فيه عن الفرقة والاختلاف، أنه مقصد من المقاصد الشرعية، الذي لا يمكن أن يرقى إليه الشك، لا في تأصيله ولا في دلالاته القطعية، وفهموا من جهة أخرى من مثل قوله تعالى: " وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ" (البقرة 213) إن الاختلاف اختلافان: اختلاف سابق عن نزول الكتاب، وهو الاختلاف الذي يحدث بين الناس في المعيشة والحياة، وقد جاء الإسلام لرفعه بين الناس من طريق الأحكام والقوانين، ثم من طريق القضاء بها بين الناس فيما اختلفوا فيه. واختلاف آخر في الكتاب من قبل أولئك الذين أوتوا الكتاب وحملوه، لا لخفاء في أدلته وبياناته، ولكن للبغي بينهم. وهذا الاختلاف، لاحق بالكتاب، متأخر عن نزوله. والمختلفون بهذا الاختلاف، ليسوا جميع الناس، ولكن علماء الدين وحملته. فالاختلاف إذن اختلافان اختلاف في الدين عن بغي وعلم، وهو الذي وقعت المبالغة في النهي عنه في الدين الإسلامي، واختلاف آخر غير مذموم، وهو الاختلاف في المعيشة والحياة¹ بل يمكن القول - وهو قول الأستاذ الإمام:- "إن التفرق والاختلاف (في الدين) قسمان: قسم لا يمكن أن يسلم منه البشر، فالنهي عنه من قبيل تكليف ما لا يستطاع، وليس بمراد في الآيات، وقسم يمكن الاحتراز منه وهو المراد بها.

أما الأول، فهو الاختلاف في الفهم والرأي، ولا مفر منه، لأنه مما فطر عليه البشر، فاستواء الناس في العقول والأفهام، مما لا سبيل إليه ولا مطمع فيه، إذ هو من قبيل الحب والبغض، فالإخوة الأشقاء في البيت الواحد تختلف أفهامهم في الشيء، كما يختلف حبهم له وميلهم إليه.

وأما الثاني - وهو ما جاءت الأديان ملحوه- فهو تحكيم الأهواء في الدين والأحكام، وهو أشد الأشياء ضرراً في البشر، لأنه يطمس أعلام الهداية التي يلجأ إليها في إزالة المضار، التي في النوع الأول من الخلاف، ثم يقول: أما كون القسم الأول غير ضار، فهو مما يعرفه كل واحد من نفسه²، أي في حديثه مع الغير، وفي

1- انظر الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطبا طبائي: 129/2.

2- تفسير المنار: 23/4.

قراءته لما يتركه المفكرون من آراء واجتهادات في قضايا بعينها، بل حتى في موقف هؤلاء المفكرين من آراء بعضهم بعضاً.

لكن إذا كان الاختلاف في الفهم والرأي مما لا مفر منه، إذ هو فطري مركوز في بنية الإنسان، وكان الحق سبحانه يدعو إلى الاتحاد والائتلاف من جهة، وإلى الابتعاد عن الفرقة والاختلاف من جهة، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف عالج الأئمة السلفيون المهتدون بهدي الإسلام هذه القضية الشائكة؟ أو كيف فهموا هذه النصوص الداعية إلى الاتحاد في ظل بنية الإنسان الداعية إلى الاختلاف؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال إجمالاً بما يمكن أن نطلق عليه الوحدة في ظل الاختلاف القائم على العقل، أو الوحدة في ظل التعددية المبنية على العقلانية.

في التنظير لهذا النوع من الاختلاف الوحدوي يمكن القول:

(إن الخلافات في جوهرها تنبئ عن معنى الوفاق، فهي ترتبط بأصل واحد هو الكتاب والسنة)¹ بمعنى أن الآراء الاجتهادية يجمعها الكتاب والسنة، إذ هي لا تقوم إلا عليهما ولا تنطلق إلا منهما، أو من الأصول المستوحاة منهما، أو من أحدهما كالقياس والاستصلاح والعرف وسد الذرائع.

ثم إن الاجتهاد نفسه لا يباح إلا لمن استوفى شروط الاجتهاد، التي هي المعرفة باللغة العربية، التي نزل بها الكتاب، وبالمقاصد الشرعية التي يستهدفها الكتاب، ولا يباح كذلك إلا في نص قابل للإجتهد، فإذا كان النص مثلاً قطعي الثبوت والدلالة، فإن الاجتهاد فيه لا يجوز، وذلك كالظلم مثلاً فإنه (لايجوز أن يبرر الظلم بإعطائه اسم الاجتهاد، لأن في ذلك مغالطة وانحرافاً)

أما كيف تنشأ الخلافات بين مذهب ومذهب، فإن ذلك يرجع إلى تفسير نص، أو إلى فهم معنى منه لم يفهمه الآخر، أو أن هناك ما ثبت صدوره عن الرسول الكريم عند فريق ولم يثبت عند فريق آخر.

1- انظر كتاب الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب السبعة . منشورات الأعلامي للمطبوعات . بيروت ص 199

تلك هي - باختصار- خلافات المسلمين في الدين، وهي في باطنها تشير إلى الوحدة، لا إلى الفرقة، وتنبئ عن الاجتماع لا عن التشتت.
هل أسوق أمثلة على تشبع أمتنا بهذا المبدأ، أعني الاختلاف في ظل الوحدة

"دخل هرون الرشيد على الإمام مالك رضي الله عنه، فقال: دعني يا أبا عبد الله أفرق هذه الكتب التي ألقتها وأنشرها في بلاد الإسلام، وأحمل عليها الأمة، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة، فكل متبع ما صح دليله عنده، وكل على هدى، وكل يريد الله"، وقال مالك أيضا: "كثيرا ما شاورني هرون الرشيد أن يعلق كتاب الموطأ في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، فقلت: لا تفعل، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلاد، وكل مصيب. فقال: زادك الله توفيقا يا أبا عبد الله"¹، وقد كان كل مجتهدا مصيبا، لأن الإسلام يدعو إلى الاجتهاد، وينفر من التقليد.

كذلك يمكن القول: إن من الأصول التي بنى الإمام مالك مذهبه عليها مراعاة الخلاف، الذي هو عبارة عن الانفتاح على الغير، أي الرجوع إلى مذهب غير مذهبه. متى كان ما قال به يفضي إلى مفسدة عند تنزيهه².

كذلك نقل عن الإمام أبي حنيفة أنه كان يقول: "علمنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بخير منه قبلناه". ونقل أيضا عن الإمام الشافعي قوله: "رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب".

بالإضافة إلى هذا، يذكر ابن عبد البر أنه: "لم يبلغنا عن أحد من الأئمة أنه أمر أصحابه بالتزام مذهب معين لا يرى صحة خلافه، بل المنقول عنهم تقريرهم الناس على العمل بفتوى بعضهم بعضا، لأنهم كلهم على هدى من ربهم، وكان يقول أيضا: لم يبلغنا في حديث صحيح، ولا ضعيف أن رسول الله

1-الميزان الكبرى للإمام الشيرازي: 41/1.

2-الموافقات: 205/4.

صلى الله عليه وسلم أمر أحدا من أمته بالتزام مذهب معين لا يرى خلافه، وما ذلك إلا لأن كل مجتهد مصيب"¹.

ونقل القرافي الإجماع من الصحابة رضوان الله عنهم، على أن من استفتى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وقلدهما، فله بعد ذلك أن يستفتي غيرهما من الصحابة، ويعمل به من غير نكير. وأجمع العلماء على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء بغير حجة، ومن ادعى دفع هذين الإجماعين فعليه الدليل"².

ولا داعي للاسترسال، فكتاب الميزان الكبرى للإمام الشعراي، حافل بمثل هذه الأمثلة، بل إن الكتاب من أوله إلى آخره ألفه صاحبه من أجل هذا الغرض، يقول: "إن جميع المكلفين لا يخرجون عن قسمين: قوي وضعيف من حيث إيمانه أو جسمه في كل عصر وزمان، فمن قوي منهم خوطب بالتشديد والأخذ بالعزائم، ومن ضعف منهم خوطب بالتخفيف والأخذ بالرخص، وكل منهما حينئذ على شريعة من ربه وتبيان"³.

هذا عن فهم السلفية المستنيرة لهذا المقصد الشرعي، وأعني به الفهم في إطار: الوحدة والتعددية المبنيين على العقلانية، وأما عن فهم بعض السلفيين الحاليين لهذا الثابت، فيبدو مما هو واقع وملموس، أن ما وقع النهي عنه من الفرق والاختلاف في الدين، هو الذي يقع التشبث به من لدن هؤلاء، حيث نرى: أولا: أن السلفية الحالية سلفيات، وأحزاب دينية.

ثانيا: أن كل حزب أو جماعة منهم، تدعي أنها وحدها الأمانة على عقيدة السلف الصالح وأفكارهم ومنهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه، وبذلك تكون كل واحدة منها قد كونت سدا منيعا يميزها عن غيرها من الفرق الأخرى، مثلما يميزها عن أمة الاسلام، إذ صارت كل واحدة منها تعتقد أنها هي "الفصل القائم

1-الميزان الكبرى: 41/1.

2- نفسه: 41/1.

3- نفسه: 3/1.

بين أهل الرشد والضلال"، ضلال من لا يتبعهم، فاصطلحت على نفسها باسم معين¹.

ثالثا: الحرص كل الحرص على التميز والتفرد، لا في المظهر الخارجي فقط، بل حتى في العبادات، حيث نجدهم مثلا يفرقون الأرجل في الصلاة، ويضعونها ملاصقة بالرجل المحاذية لها، والمبالغة في ذلك لدرجة يمكن القول وبدون تحفظ: إنهم حولوا الصلاة من العقل والوجدان إلى الأرجل، ونجدهم في بداية شهر رمضان ونهايته، يصومون حيث يفطر الناس، ويفطرون حيث يصوم الناس. وبكلمة جامعة، يحرصون على كل ما يميزهم عن عامة المسلمين مظهرها ودينها.

رابعا: إذا تأملت ما يتمذهبون به، وجدته عبارة عن "مجموعة اجتهدات وآراء خلافية، اختلفت اتجاهات الأئمة والعلماء من قبلهم فيها، ثم مروا بها وتجاوزوها، وقد أعذر المختلفون بعضهم بعضا في شأنها"، فجاء هؤلاء "وحصروا وجه الحق فيها في رأي وقول واحد، هو الرأي الذي طاب لهم أن يأخذوا به، ثم جعلوا من رأيهم ذلك عنوانا على الدين الحق، وبرهان ضلالة وسفه لكل من خالفهم، دون التفات إلى القواعد الأصولية، التي يتقبل فيها أكثر من اجتهد ورأي، ودون تقدير لاختلاف السلف أنفسهم في كثير منها"²، هل أعطي مثلا على هذا.

جاء في تفسير الإمام القرطبي في قص الشارب: "أن الأئمة اختلفوا فيه فقال: مالك لا يجزه، فيمثل نفسه (يعني يغير من خلقته، وذلك بإرسال اللحية طولا وعرضا، وحلقه الشارب)، وذكر ابن عبد الحكم عنه قال: وأرى أن يؤدب من حلق شاربه، وذكر أشهب عنه أنه قال في حلق الشارب: هذه بدعة، وأرى أن يوجع ضربا من فعله، كأنه يراه ممثلا بنفسه، وتقصيره أولى من حلقه، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان، يقص أظافره وشاربه قبل أن يخرج إلى الجمعة.

1- السلفية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ص236.

2- نفسه: ص256.

أما الإمام أحمد بن حنبل فقال عنه أبو بكر الأثرم: رأيت أحمد يحفي شاربه شديداً، وسمعتة سئل عن السنة في إحقاء الشارب فقال: يحفي كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أحفوا الشوارب"¹.

إذن هناك روايتان: القص والحلق، وقد رجح الإمام ابن عبد البر، ما ذهب إليه مالك حيث قال: "إنما في هذا الباب أصلان: أحدهما أحفوا وهو لفظ يحتمل التأويل، والثاني قص الشارب وهو مفسر، والمفسر يقضي على المجمل، ثم هو عمل أهل المدينة" قال الإمام القرطبي: "وهو أولى ما قيل في هذا الباب"²، فلماذا إذن يجعل من حلق الشارب عنواناً على الدين الحق؟ ثم ألا يلاحظ أن إشغال الناس بمثل هذه الشكليات فيه ضرب من العبث بالدين، عبر عنه الشاعر المتنبي الحكيم بقوله :

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ** يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

خامساً: وفي إطار ما يتمذهبون به أنهم يضربون بسور من حديد على أنفسهم وعلى أتباعهم، فلا يقرأون إلا كتباً معينة. لقد غاب الحوار الداخلي، الذي نجده عند العلماء في كتبهم، كذلك الذي لاحظناه عند الإمام الزمخشري، وهو يفسر قوله تعالى: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ" (آل عمران 18-19). وغاب كذلك الحوار بين العلماء الذين يقومون باستعراض أقوال بعضهم بعضاً في كتبهم ويتبعونها بالرد عليها، أو بيان وجه الصواب فيها. فلننظر مثلاً في كتاب المحلى لابن حزم، إنه في بحثه القضايا التي يتعرض لها، يحرص كل الحرص على تصديرها بما قاله غيره من الأئمة بكامل الدقة والأمانة، حتى لكأن صاحب الرأي هو الذي يقوم بعرض رأيه فيها، ثم بعد ذلك يثني بعرض رأيه فيها. وكذلك يفعل الإمام السرخسي في كتابه المبسوط، والإمام ابن رشد في كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

نعم كانت مع هؤلاء الأسلاف فرق جنحت عن دائرة أهل السنة والجماعة، فأقاموا بجنوحهم الحواجز المنيعة، التي فصلوا بها أنفسهم عن عامة

¹ - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة باب خصال الفطرة.

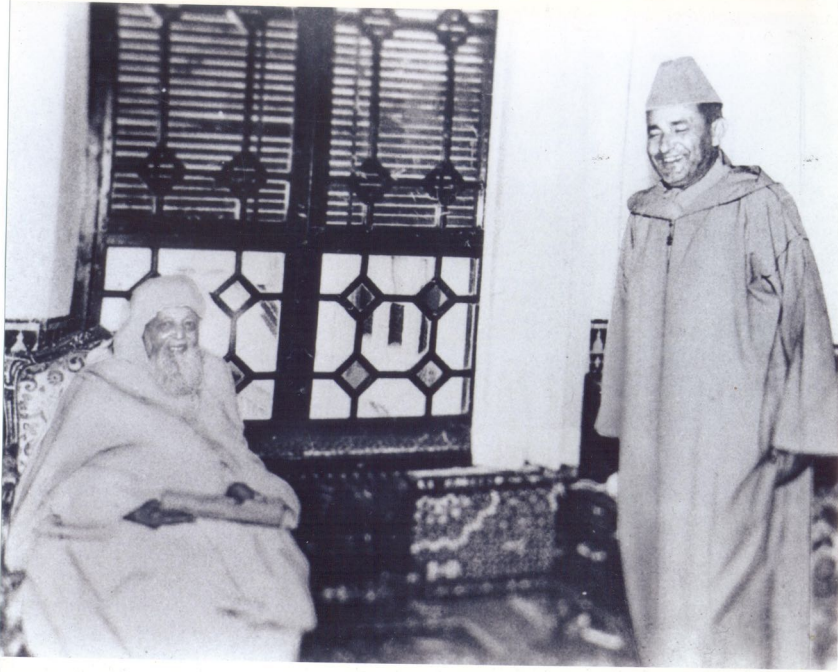
² - الجامع لأحكام القرآن: 104/2.

المسلمين، فكانوا بذلك فرقا مستقلة، ذات أهواء وعصبية وغلو في الباطل¹، كغلو هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم حاليا السلفيين الجهاديين والتكفيريين، حيث نجدهم قد بلغوا في التطرف والغلو حدا لا حد بعده، هل هناك تطرف أبعد من هذا الذي نراه على شاشات التلفزة، يصيحون بالتكبير وهم يجهزون على المخالفين لهم، ويفجرون السيارات المفخخة في الأسواق، وأمام المساجد أثناء الخروج من صلاة الجمعة، بل حتى داخل المساجد.

فأين هو الإسلام الذي قال الإمام الرازي في بيان حقيقته: إن جميع المقاصد التي جاء بها الإسلام يمكن اختصارها في مقصدين كبيرين هما: تعظيم الله، والشفقة على خلق الله؟ وأين هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الآدمي بنیان الرب، ملعون من هدم بنیان الرب"؟

هل حقا أن هذه السلفية التي تشعل المجتمعات الإسلامية نارا بإثارتها الخلافات والخصومات الطاحنة، هي عين السلفية التي كان عليها الأسلاف الأوائل من الأئمة الأعلام؟ أو السلفية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد بن العربي العلوي، وعلال الفاسي، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي وغيرهم كثير؟ أم أن البعض من هذه السلفية الحالية قد أصبح ليس في حاجة إلى من يبعد عن مجراه الأعشاب والطحالب التي علقت به، ولكن إلى من يكنسه برمته من أجل أن تتبين الأجيال حقيقة الإسلام في مقاصده السامية، وفي التراكمات المعرفية المتولدة عن هذه المقاصد، وصدق الله العظيم إذ يقول في الكشف عن حقيقة هؤلاء الضالين المضلين من جوانب مختلفة: "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا" (الكهف: 103-105).

¹ - السلفية للدكتور محمد سعيد رمضان السيوطي: ص226.



شيخ الإسلام مع الملك محمد الخامس

بين السلفية المستنيرة والسلفية المتزمتة

محمد المصباحي

هل هناك ما يبرر الكلام عن "سلفية مستنيرة"، أي الجمع بين اسمين متضادين في عبارة واحدة، حيث يحيل الأول منهما على السلف، لا على الذات - العقل، معيارا للمعرفة والإيمان، بينما يشير الاسم الثاني إلى أنوار العقل الذاتية التي تؤسس لقيم المعرفة والفعل والحضارة؟ وإذا كان الجمع بين السلفية والعقلانية في عبارة واحدة ممكنا، فهل يقتضي الأمر القيام بتعديلات دلالية

جذرية على لفظة "السلفية" كما تغدو قابلة للتفاعل والانفعال مع ضدها (لفظة الاستنارة)، أم أن وصف السلفية "بالاستنارة" هو أدخل في باب المجاز لا غير؟ من أجل معالجة هذا اللبس الدلالي والعملي الذي يكتنف عبارة "السلفية المستنيرة"، وتبيين المشروع التاريخي الذي تولت "السلفية المستنيرة" قيادته وإنجازه لتحرير العقل والإرادة من قيودهما الداخلية والخارجية من خلال التجربة المغربية، ارتأينا في البداية أن نقوم بمقارنة سريعة بينها وبين السلفية التاريخية أو الحنبلية من خلال أحد نصوصها المشهورة، ثم بينها وبين السلفيات المتشددة في الأزمنة الحديثة.

أولا- رهان السلفية المذهبية:

كان القصد من رجوع "السلفية المستنيرة" إلى النصين المؤسسين للحضارة العربية الإسلامية، القرآن والحديث، هو بالضبط تحرير الإسلام من معاداته للعقل ورفضه لحرية الإرادة، سعيا وراء استقلال البلاد وتحريرها من تبعيتها الخارجية. أن يكون العقل والحرية هما مدار "السلفية المستنيرة" للرعي الأول من الوطنيين المغاربة، ومن بينهم محمد بن العربي العلوي الذي نحتفي بذكراه اليوم. معناه أنها كانت تؤمن بأن الانتصار في معركة الاعتناق من الاستعمار لا يمكن أن يتحقق بدون عقل مستنير ومنفتح على مكتسبات الحداثة العلمية والحضارية، وبدون إرادة مستقلة بذاتها عن قيود الماضي وإملاءات الحاضر الذي يهيمن عليه المستعمر.

غير أن العقود الأخيرة فاجأتنا بانتشار هائل لدلالة جديدة لمصطلح "السلفية" قائم على تصور محافظ ومنغلق للإسلام، تصور جوهره العداء لكل ما هو جديد ولكل من يستعمل عقله أو خياله أو إرادته استعمالا حرا سواء كان فردا أو جماعة أو دولة، وتكفير كل إبداعات العقل والخيال العلمية والعملية والفنية. هكذا تمت العودة إلى الدلالة المحافظة والمنجذبة إلى تجربة ماض عتيق لا توجد مناسبة بينه وبين زماننا، دلالة خالية من التحدي العلمي والحضاري وغارقة في أساطير وأوهام تغذي إيديولوجية متطرفة قائمة على العنف الرمزي والمادي. وأدى تحويل السلفية من معنى إعادة قراءة الإسلام قراءة منفتحة لتطوير أنظمتها النظرية والعملية، إلى معنى قراءة متزمتة ومنطوية على نفسها، مكتفية بذاتها، وراضية بانسحابها من التاريخ، إلى إباحة اقتراف جرائم سياسية

وثقافية مهولة باسم الحكم لله، كحرق المكتبات وطمس المعالم الثقافية والحضارية، وتفجير المساجد أثناء صلاة الجمعة والأعياد الدينية، ونشر ثقافة الحقد والتعصب والاضطهاد والظلم والإقصاء والتكفير والقتل من أجل "إحياء" نموذج للحكم والحياة يعتقدون أنه سماوي المصدر.

ومن مفارقات هذا التشدد السلفي قيامه على إحياء الذاكرة التاريخية "للمذهب"، من أجل تدمير الذاكرة الشاملة للإسلام ككل. فتم إفراغ الإسلام من محتواه الحضاري وبُعدده الأخلاقي والإنساني، وتقديمه في صورة مشوهة لا مروءة تراقبه، ولا ضمير يحاسبه، ولا مشروع مستقبلي يحركه نحو الأمام. وبينما استثمر الإسلام، في زمن "السلفية المستنيرة" المقاومة للاستعمار، بوصفه أفقاً للعدل والعدالة، كاد يصير في زمن السلفية المتشددة كابوساً ينشر العنف والظلم والتمييز والإقصاء في كل مكان تهيمن فيه. فأضحت كل المكتسبات السياسية والفكرية والمؤسسية والعلمية والحقوقية، التي ضحى الإنسان كثيراً من أجل انتزاعها توطيداً لمسيرة العدالة، قيماً كافرةً ينبغي استبعادها إما لكونها تنطوي على شيء من الكرامة والحرية والعقل أو لكونها من ابتكار الكفار. في هذا الجو المشحون بالعنف الرمزي والمادي إزاء كل ما تُشتمُّ منه نساء الحرية والاستقلال الفكري، لم يعد الإنسان يُعرّف بكونه "كائناً عاقلاً" بالفطرة أو "كائناً سياسياً" بالطبع، وإنما بوصفه كائناً محباً للسلف الصالح شغوفاً بتقليدهم. لذلك، ومن أجل الاقتراب من هذه الظاهرة الغريبة والعصية عن الفهم، سيكون علينا أن نعود إلى تراث بعض تيارات السلفية الحنبلية، حيث سنجد عاملين أساسيين يفسران هذه العداوة الجنونية للعلم والعلماء الغريبة عن الإسلام. أولهما تمييزهم بين "العلم النافع" و"العلم غير النافع"، وبين العلم المهم والعلم الأهم. فالعلم الديني، أو النقلي، هو "العلم النافع"، والعلم العقلي بأنواعه المختلفة هو "العلم غير النافع" أو العلم المذموم، هذا إن لم يكن لا علماً على الإطلاق. وهذا الحكم بعدم النفع يصدق أولاً على العلوم العقلية كالمنطق والرياضيات والطبيعات والطب الخ، كما يصدق ثانياً على العلوم الإسلامية المنقوعة بالعقل أو بالذوق كعلمي الكلام والتصوف، وثالثاً على العلوم التي تقع بينهما، كعلم الأنساب وعلوم العربية. أما السبب الثاني لكرهيتهم للعلوم العقلية الطبيعية والإسلامية واللغوية والأنثروبولوجية، فهو سبب بيداغوجي يتمثل في خوفهم من أن تشوش العلوم العقلية على العلم النقلي، أو بالأحرى على الإيمان الديني. فما

هي صفات العلم النافع، ولماذا كانت العلوم العقلية الطبيعية ذميمة وغير نافعة في نظرهم إلى هذا الحد؟

نبدأ أولاً بتعريف أولي "للعلم النافع" ولمداه كما تصوره الحنابلة. فالعلم النافع هو العلم المُتَلَقَّى، أو العلم النقلي. وقد يضيق مدى هذا العلم ليقصر فقط على "الكتاب والسنة"؛ إلا أنه قد يتسع ليمتد إلى أقوال الصحابة وأفعالهم، فيصبح العلم، كما يقول الإمام الأوزاعي « ما جاء به أصحاب محمد ص. فما كان غير ذلك فليس بعلم»¹؛ وقد يمتد مدى العلم النافع ليشمل تراث التابعين من الأقوال والأفعال. عندئذ يصبح "العلم النافع" هو علم الكتاب والسنة وفهم الصحابة والتابعين لمعانيهما². وهذا معناه أن الخلف بالنسبة إليهم ليس مؤهلاً أصلاً لفهم النص الديني، ولا مخولاً لتأويله.

هذا عن المدى الذي يغطيه "العلم النافع" من التراث ورجاله، أما عن المعنى الذاتي "لنفع" العلم النافع، فهو أن تحصل به معرفة الله، ومعرفة ما يرضاه وما يكرهه، والعمل به³. واضح أن "النفع" يتجاوز حدود المعرفة التي تخص مجال العقيدة والمعاملات، إلى مجال الانفعالات والوجدان. فالنفع أيضاً هو أن يحدث في قلب المؤمن خشوع وانكسار وذل وقناعة، أن يشعر بالهيبة

1- الحافظ بن رجب الحنبلي، بيان فضل علم الخلف على السلف، تحقيق محمد بناصر العجمي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، 2003، ص 68-69.

2- ينتهي ابن رجب إلى القول «فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرفائق والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيم أولاً، ثم الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهمه ثانياً، وفي ذلك كفاية لمن عقل»، نفسه، ص 72.

3- انظر نفسه ص 73؛ ويضيف «وكان السلف يقولون إن العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمره، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، وأكملهم الأول وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه. فالشأن كله في أن العبد يستدل بالعلم على ربه فيعرفه؛ فإذا عرف ربه فقد وجده منه قريباً؛ ومتى وجده منه قريباً قرب إليه وأجاب دعاءه»، نفسه، ص 77.

والإجلال والخشية والمحبة والتعظيم إزاء الله¹. والثمرة المرجوة من كل تجليات هذا النفع «الهرب من الدنيا، وأعظمها الرئاسة والشهرة والمجد»².

تخضع معرفة وسلوك وانفعال السلفية التاريخية إذن لطقس خاص هو الاقتداء والتقليد بالنصوص وبالصحابة والتابعين من غير اجتهاد أو إعمال للفكر، إيماناً منهم أن علم هؤلاء - الصحابة والتابعين - هو العلم الحقيقي، والعلم الأكمل، والأقل تكلفاً بالقياس إلى علم اللاحقين عليهم³. وهذا يعني أن علم السلف فوق الزمان والتاريخ، أي غير قابل للتجاوز، وكأن الأمر يتعلق بنهاية أو منتهى العلم الديني عند الجيلين الأول والثاني من مؤسسي الإسلام.

أما "العلم غير النافع" فهو العلم النابع من ذات الإنسان، لا الآتي من خارجها. وهو علم غير نافع في نفسه، وغير نافع لغيره، بل قد يكون ضرراً أكثر من نفعه⁴. ولذلك حذر متشددو الحنابلة من التوسع في العلوم العقلية، كالحساب والفلك والطب والكيمياء وعلوم العربية لغةً ونحواً الخ، لأنها «مما يُشغل عن العلم الأهم»، ولأنها علوم أولها شغلٌ وآخرها بغي⁵. أما علم الكلام، الذي هو مبدئياً علمٌ للدفاع عن الإسلام، فهو في رأي هؤلاء المتشددين من العلوم المذمومة

1- نفسه، ص 73؛ كما يقول في نفس المعنى: «فمتى كان العلم نافعاً ووقر في القلب، فقد خشع القلب لله وانكسر له، وذلل هيبته وإجلاله وخشيته ومحبةً وتعظيماً. ومتى خشع القلب لله وذلل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به»، نفسه، ص 74.

2. نفسه، ص 82.

3- وهم بهذا يحتجون بقول مأثور عن عمر بن العزيز: «خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم، فإنهم كانوا أعلم منكم»، ص 57؛ ويضيف: "فمن كثر علمه وقَلَّ قوله فهو الممدوح، ومن كان بالعكس فهو مذموم. ... فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثوراً عن الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى أن ينتهي إلى أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم الذين سميناهم فيما سبق..."، نفسه، ص 66.

4- يعرف العلم النافع بقوله: «هذا إن كان علمه علماً يمكن الانتفاع به وهو المتلقى عن الكتاب والسنة؛ فإن كان متلقى من غير ذلك فهو غير نافع في نفسه ولا يمكن الانتفاع به، بل ضره أكثر من نفعه»، نفسه، ص 49، 79.

5- وعبر أحد الحنابلة، وهو القاسم بن مخيمرة، عن كراهته لعلم النحو قائلاً «أوله شغل وآخره بغي ... ولهذا يقال إن العربية في الكلام كالمالح في الطعام، يعني أنه يؤخذ منها ما يصلح الكلام، كما يؤخذ من المالح ما يصلح الطعام، وما زاد على ذلك فإنه يفسده؛ وكذلك علم الحساب يحتاج منه إلى ما يعرف به حساب ما يقع من قسمة الفرائض والوصايا، والأموال التي تقسم بين المستحقين لها والزائد على ذلك مما لا ينتفع به»، نفسه، ص 49-50.

التي يجب الابتعاد عنها، أولاً لأنه أحدث القول بأدلة العقول في أمور يُمنَع الكلام فيها، كالقدَر وذات الله تعالى وصفاته، وثانياً لأن الخوض فيه -علم الكلام- يُغلق باب العمل ويفتح باب الجدل والمراء للذين يُذهبان بنور العلم... ويُقسيان القلب ويورثان الضُّغن... والنفاق¹.

ومما يكرس بطلان العلم العقلي وافتقاره إلى الخير والمنفعة عند الحنابلة أنه يُفْضِي إلى انحرافات نفسية وتشوهات أخلاقية كأن «يُكسِبَ صاحبه الزهو والفخر والخيلاء وطلب العلو والرفعة في الدنيا، والمنافسة فيها، وطلب مباهاة العلماء وممارسة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه... [و] عدم قبول الحق والانقياد إليه والتكبر على من يقول الحق، خصوصاً إن كان دونهم في أعين الناس... وهذا بخلاف ما كان عليه السلف من احتقار نفوسهم وازدرائها باطناً وظاهراً...»². وتم استغلال هذه الميول الدنيوية للعلوم العقلية المحضة أو العلوم اللاعقلية الشارحة للدين (التصوف) كحجة للحكم عليها بأنها شر محض³. كثير من الحنابلة، كأحمد بن حنبل وابن رجب الحنبلي وابن تيمية، نصحوا بالابتعاد عن استعمال العلوم العقلية في حل القضايا الشرعية قدر الإمكان، إما لكونها غير دقيقة، أو لأنها تلتبس بالسحر، أو باعتبارها علوماً غير إسلامية، أي كافرة. هكذا نجد سلفيي الحنابلة يحذرون من الاستعمال المفرط لعلم الحساب الفلكي في تحديد الأهلة وأوقات الصلاة والقبلة، ولا يسمحون بالاستئناس بعلم الجبر والمقابلة لحل مشاكل الميراث في حدود معينة لكونه علماً غير إسلامي، (والحال أنه ابتكار الحضارة الإسلامية في القرن التاسع الميلادي). وذهبت العداوة بالحنابلة لكل ما هو عقلي وعلمي إلى حد إنكار الحقائق الطبيعية الواقعية؛ فهذا أحمد ابن حنبل يُنكر «على المنجمين قولهم إن الزوال يختلف في البلدان»⁴.

1- نفسه، ص 59-60، انظر ص 54.

2- نفسه، ص 79-80.

3- «فأما الدخول مع ذلك في كلام المتكلمين أو الفلاسفة فشر محض... وقد اتسع الخرق في هذا الباب ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون عنهم، وإلى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع، وإلى دعوى الحلول والاتحاد أو القول بوحدة الوجود، وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان»، نفسه، ص 70-71.

4. نفسه، ص 47.

لأن من شأن هذه الحقيقة العلمية في نظره أن تشوش على العقائد الدينية والشعائر الشرعية.

ولم يقف تشدد غلاة الحنابلة عند تحريم العلم العقلي على المستوى النظري، بل تعداه إلى المستوى العملي، فكانوا لا يتورعون عن تحريض عوامهم على محاصرة وملاحقة كل من يخالف مذهبهم ويقدم تأويلاً مغايراً لاعتقاداتهم المتشددة من العلماء في بيوتهم ورميهم بالحجارة، أو زرع السم في أكلهم، أو محاكمتهم وإتلاف كتبهم بحجة مخالفتهم لآراء السلف الصالح. وهذا ما حصل بالفعل للطبري المؤرخ والمفسر، وللفقيهين الشافعيين البوري وأبي بكر بن فورك. وإنكار الحق في التوسع في المعرفة والاجتهاد في الحكم وفي اختيار السلوك والمعتقد الذي يرتئيه المرء، يصبح الإنسان ذا بعد واحد، أي كائناً دينياً محضاً لا يرى من العالم إلا الجانب الديني وينسى الجانب الدنيوي. والحال أن الإسلام إن كان يُعرف بشيء، فهو نهيه الإنسان عن الرهبة، وتنويهه بأهمية البعد الدنيوي، محملاً إياه مسؤولية إعمار الأرض بالعمل والتفكير والإبداع.

وضمن هذه البيئة الفكرية والعقدية المنغلقة والمتصلبة، تم التنويه بثقافة الشرح والتفسير، ضداً على ثقافة المخالفة والإبداع والتوسع في المعرفة بذريعة أن: «ما حدث بعدهم [الصحابة والتابعين] من التوسع لا خير في كثير منه، إلا أن يكون شرحاً لكلام يتعلق من كلامهم. وأما ما كان مخالفاً لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه»¹.

ومعنى هذا أن السلفية الحنبلية تطالب الخلف بتفويض إرادته لغيره من السلف، وتوكيله بالتفكير نيابة عنه. فتكون نجاه الخلف في الاكتفاء بتقليد السلف الصالح في طريقة فهمهم للشريعة وأسلوب تطبيقهم لأوامرها وكيفية عيشهم. هكذا يُعطّل هذا التيار من السلفية المتشددة الأمانة التي حمّلها الله للإنسان بتعطيله الفكر والإرادة، العقل والحرية معاً.

ثانياً- البعد المستنير في السلفية الوطنية:

أتحول الآن للكلام عن السلفية الوطنية المستنيرة التي كانت فيها كلمة السلفية مرادفة لمقاومة الاستعمار. وقد استعارت الحركة الوطنية كلمة

1- نفسه.

"السلفية" شعاراً لها أولاً لقدرتها على التعبئة وطي حقبة الانحطاط الطويلة بشروحها وحواشيها، بدروساتها وتخاذلاتها، والذهاب توا إلى المُنَبِّعين الأصليين للإسلام: القرآن والسنة لإعادة قراءتهما وفق ما تمليه تحديات الحداثة؛ وثانياً للحد من حالة الانقسام المذهبي للأمة وجمع الكلمة لتحقيق الهدف المستعجل وهو التحرر من احتلال الأجنبي. بهذا المعنى يمكن اعتبار "السلفية" فتوى مزدوجة للحركة الوطنية: فهي فتوى وطنية بحق البلاد في الحرية السياسية، وهي فتوى حضارية بالحق في الحداثة وإعادة فتح باب الاجتهاد في الشريعة.

كما لعب شعار السلفية دوراً آخر في علاج جنون العداء للعقل والحرية الذي ورثته الثقافة المغربية من عصور الانحطاط. وقد اتخذ هذا العدوان الداخلي على العقل وجهين، وجه مُحاصرة استعماله في حدود ضيقة، ووجه الإعراض عنه كلياً وتقديم بديل له يتمثل في الجذب والتواكل وانتظار الكرامة. وكانت الحركة الوطنية تُؤلي مواجهة هذا العدوان الداخلي المزدوج على العقل أهمية استثنائية، لأن العقل هو السلاح الرئيسي لمواجهة العدوان الخارجي للاستعمار، إذ إثبات الجدارة العقلية للشعب المغربي كان بالنسبة لها شرطاً قَبْلِيّاً لتحقيق الانتصار على المحتل. ومضى تم التسليم بأن إعادة الاعتبار للعقل هي أول خطوة في معركة الحرية، فسيكون مصير الحرية والتحرير، وبخاصة التحرير السياسي، مرهوناً بمصير العقل والعقلانية. وهذا يدل على أن الحركة الوطنية كانت واعية تمام الوعي بأن "المقاومة العقلية" لا تقل أهمية عن "المقاومة السياسية" وعن "المقاومة المسلحة". إذ بدون استعادة الذات لعقلها الفعال، وبدون استعادة الإرادة لاستقلالها الذاتي، لا يمكن مقاومة الاستعمار وتحرير البلاد منه أبداً.

وقد استعمل الاستعمار حجة فقدان أبناء هذا الوطن لقدرتهم على تدبير شؤونهم تدبيراً عقلانياً وديمقراطياً ذريعة لتبرير احتلاله. وبالفعل، فقد وصل تدهور العقل المغربي، قُبيل الاستعمار، إلى مستوى من الانحطاط لا يُصدّق، بحيث كادت وظائفه تنقلص في وظيفة واحدة هي المنع والتحرير، بدل الإباحة والترخيص. وقد شمل التحريم كل شيء تقريباً في حياة الناس، ابتداءً من تحرير مزاوله الطب لمقاومة تفشي وباء الطاعون المُعدي في القرن التاسع عشر بدعوى مزاحمة الإرادة الإلهية، ومنع إصلاح التعليم وإعادة تنظيم الإدارة والجيش بالعلوم الحديثة بذريعة أنها واردة من بلاد الكفار، إلى تحريم استعمال المطبعة

والقهوة والشاي الخ. باختصار أمسى العلم الطبيعي علما غير نافع، لذلك وجب تحريره أو الحد من استعماله حتى لا يزاحم "العلم النافع" المنذور لنيل سعادة الآخرة.

أمام هذا التخاذل المعرفي والتاريخي الذي وصلته الذات المغربية، كان على رواد الحركة الوطنية القيامُ بنوع من الانقلاب الضمني على مفهوم "العلم النافع"، كيلا يبقى مقتصرًا فقط على "العلم النقلي"، فوسعوا معناه ليشمل "العلم العقلي"، أو العلم الطبيعي، دون رغبة في الخلط بينهما، ولا في استحواذ أحدهما على الآخر. فجعلوا خلاص "العلم النقلي" نيل سعادة الآخرة، بينما خصوا غاية "العلم العقلي" بتحقيق سعادة الدنيا. ولكل سعادة من السعادتین مكانتها وقيمتها في الإسلام، بحيث لا يحق إلغاء إحداها لصالح الأخرى. فالإسلام وسطي الطبيعة، ويحب المؤمن القوي على المؤمن الضعيف، وقوة المؤمن تتضاعف إن هي جمعت بين قوة الإيمان وقوة العقل، وسعاداته تزداد إن وقفت بين السعادتین الدنيوية والأخروية.

من جهة أخرى، نعتقد أن "السلفية الوطنية" قامت بانقلاب ضمني آخر على اللبس الدلالي الذي أحدثه المتشددون من سلفيي الحنابلة بين العلم والإيمان الذين استبدلوا اسم الإيمان باسم العلم، فوضعوا "العلم النافع" مكان الإيمان، والحال أن الإيمان لا يمكن أن يكون علما، حتى لو تم وصفه بنعت "المتلقى". إذ الإيمان هو تصديق بالقلب بعقائد الوحي، بغض النظر عن مطابقتها للواقع والعقل أو مخالفتها لهما. في حين أن العلم، الذي هو تصديق بالعقل والعيان لحقائق الوجود، لا يقبل بأيّ مظهر من مظاهر التناقض سواء مع الواقع أو مع العقل، وإلا تحوّل إلى ضده. طبعا ليس هناك مانع من وصف الإيمان بالعلم، فنقول العلم الإيماني، لكن شريطة أن يتخذ العلم معنى مجازيا يقتضي التأويل، لا البرهان العقلي، لأن الإيمان، بلغة الغزالي، من طور فوق طور العقل.

من هنا نستطيع القول بأن "السلفية الوطنية"، وإن كانت تشترك مع "السلفية العالمية" المتشددة في مبدأ الرجوع إلى المنابع الأولى للإسلام، فإنها تعتبر نفسها مشروعا حديثا، لأن القصد من إحالتها على المنابع الأولى لم يكن هو العودة إلى الماضي والقيود فيه، وإنما القفز منه إلى الأمام بنبذ التقليد والخمول

والتخاذل والتواطؤ مع المحتل الأجنبي من جهة، وإعادة النظر في معايير العلم النافع من جهة أخرى.

وبسعيها إلى تحقيق الذات باعتبارها ذاتا عاقلة وحرّة، كانت "السلفية الوطنية" ترنو إلى تحقيق الحضور التاريخي للوطن في فضاء العالم المتحضر بوعي مزدوج ومتوتر. فبعد أن تكوّنت لديها قناعة واضحة بأن لا مهرب لها من العقلانية والحدّاتة، إن هي أرادت إنجاز التحرير الوطني، انتهت إلى القول بأنه لا يمكن حمل العقل الحدّاثي إلى الفضاء الثقافي للمغرب إلا عبر الوساطة الدينية، إذ أن محاربة الاستعمار بعقل جديد خارج من جوف الدين كان يشكل مطلباً عزيزاً على الحركة الوطنية.

ولم تكتف السلفية الوطنية فقط بالرجوع إلى الأصول الإسلامية الأولى رغبة في إعادة الاعتبار للتفكير والاجتهاد تمهيداً لتجديد الممارسة والفعل، بل رأت أن من واجبها أيضاً الإقدام على الانفتاح على العقل والحضارة الحديثة. وهذا ما يفسر إقبال كثير من سلفيي الحركة الوطنية على النهل من الثقافة التنويرية الكونية. ونفهم من هذا الربط بين الرجوع والانفتاح، أن الرجوع إلى الأصول لم يكن يعني بالنسبة إليهم العودة إلى أزمنة الانحطاط، بل الخروج منها إلى أزمنة الحدّاتة. كما لم تكن الغاية من عودة "السلفية الوطنية" إلى النبع الأول للإسلام إلغاء غنى الذات بتسفيه العقل واحتقار العلم والتنقيص من حرية الإنسان وكرامته وتحويله إلى كائن ذي بعد واحد وهوية واحدة، بل كان الهدف من تلك العودة فتح كل باب من شأنه أن يثري الذات وينوّع أبعادها وانتماءاتها وهوياتها لتصبح جامعة بين الوطنية والمواطنة والإيمان بالله في آن واحد، مما يجعلها قادرة على المقاومة والتحدي. فيكون الطريق إلى إغناء الذات هو تحريرها، بدل تكبيلها بشتى أنواع القيود والأغلال كما تريد "السلفية المذهبية". نفهم من هذا أن "السلفية الوطنية والمستنيرة" استمدت مشروعيتها الحدّاثية من كفاحها السياسي والفكري في الميدان من أجل التحرير المزدوج للذات والبلاد من الاستعمار ومن العقل الذي أدى إلى الاستعمار، ضمن مشروع تاريخي مأمول يضمن العدالة والمساواة والكرامة للمواطنين. لذلك قد يذهب بنا الظن بأن هناك ما يشبه المفارقة في تسمية عقيدة الحركة الوطنية "بالسلفية"، إذ كانت في حقيقة أمرها منذورة للخلف لا للسلف، للمستقبل لا للماضي، أي لخلق إنسان جديد قادر على التحدي والانخراط في معترك الحدّاتة.

وهذا ما جعل سلفية الحركة الوطنية المستنيرة بناءة، في مقابل "السلفية الجهادية" التي لا شغل لها سوى الهدم والتدمير، تدمير أي شيء يلوح أمامها يشير إلى مبادرة الإنسان وقدرته على الخلق والإبداع¹.

خاتمة: ما بعد السلفية

نخلص مما سبق بأنه لا يحق لنا أن نتعامل مع اسم السلفية بمعنى واحد، إذ السلفية سلفيات. فهي جنس تنضوي تحته ضروب مختلفة من السلفيات تتراوح بين حادي السلفية المستنيرة، والسلفية اللاتنويرية: فسلفية ابن تيمية ليست هي سلفية ابن حزم، وسلفية علال الفاسي ليست كسلفية محمد عبده، وسلفية هذا الأخير ليس لها نفس الدلالة التي لسلفية حسن البنا. وازداد تعقد المشهد الدلالي للسلفية، في العقدين الأخيرين، حينما طغت على الرأي العام الإسلامي سلفيات من نوع جديد، وهي سلفيات مذهبية متعصبة تشترك معظمها في مناوئة الوطنية لصالح العالمية، ومعاداة الأنوار لصالح الخلط والتشويش، والحد على الحداثة والتقدم لصالح السلفية والمحافظة. فجمعت بذلك بين الدعوة إلى نبذ العقل وتغييبه، وتفكيك الأوطان والدول، طمعا في إنشاء دولة عالمية وهمية تُطبَّق فيها الشريعة كما يتصورها نفر منها. وقد استعملت هذه السلفيات المذهبية من أجل تحقيق مآربها أشكالا من السفسطة وقلب المعاني لتدمير الذات، وتشويه الإسلام، وإفراغه من طاقته الإبداعية وإشعاعه الحضاري. كانت هذه السلفيات المذهبية تعاند في أن لا ترى الواقع كما هو، وإنما كما يتمثل في خيالها عبر متون المذهب العتيقة، فتزداد انغلاقا على انغلاق، وجنونا على جنون، كلما تضاعفت انتصارات الحداثة السياسية والحضارية وازدادت فتوحات العقل والعلم التي لا تتوقف أبدا. ومع ذلك، أي بالرغم من دعوتها التقاعسية وطبيعتها المتخاذلة أمام تحديات الزمن المتدفق،

1- وأراني هنا مضطرا أن أورد مثالا بسيطا يوضح الفرق بين السلفيتين، وهو مثال اللباس بالنسبة للمرأة والرجل معا. فقد آلت "السلفية الوطنية" على نفسها أن تقوم بتحرير رمزي للمرأة بدعوتها إلى اتخاذ اللباس الحديث دون أن تعترض على تحديث اللباس التقليدي المغربي، ونفس الأمر بالنسبة للرجل. في حين قادت "السلفية المذهبية الحنبلية" حملة تدعو إلى إلغاء اللباس الوطني واللباس الحديث وتعويضه بلباس موحد مُخل بالمرءة في هذا الزمان.

نجدها تستحوذ على قلوب الجمهور، مما يذكرنا بصواب موقف ابن رشد من هذا الأخير. ولعل الأمل في إقامة دولة إسلامية عالمية شمولية تُطبّق فيها أحكام الشريعة الإسلامية تطبيقاً حرفياً دون مراعاة لحركة الزمن ومن غير تقدير لتطور التاريخ، هو ما أّجج ويؤجج الطابع العدواني للسلفية المذهبية حيال العقل والحرية والديمقراطية.

فستان إذن بين سلفية وطنية تنويرية تقيم وزناً للزمن والتطور، وسلفية عالمية معادية للعقلانية تعتبر الإسلام كلاً مترافقاً لا يتجزأ يخترق كل الأزمنة وكل الممكنة. وهذا ما يفسر تحول الصراع بسرعة من الصراع على مستوى العقل العملي إلى صراع على مستوى العقل العقدي. فبدلاً من وضع العدالة في الحقوق المادية والمعرفية والاجتماعية والوطنية في صميم المشاريع السياسية للعقل السلفي المذهبي المتشدد، تُعطى الأولوية للقضايا الشكلية والجزئية واتخاذها ذريعة لإعلان الحرب ضد الجميع بل وضد الحياة نفسها.

من أجل هذا لم نخف انتصارنا للسلفية المستنيرة، أو بالأحرى "السلفية المنهجية"، أولاً لكونها كانت تعتقد بأن الإسلام هو أقرب الأديان السماوية إلى الحداثة، وثانياً لأنها قامت بدور تاريخي إيجابي وحاسم بالنسبة لتاريخنا الحديث. غير أن هذا لا يعني أن القصد من وراء تنويرنا بها أننا نرى فيها السبيل الممكن الوحيد لمواجهة تحديات التحديث ودرء مخاطر الأصوليات الإسلامية والغربية على ذاتنا. ذلك أننا نعتقد بأن السلفية المستنيرة تقتضي بطبيعتها العقلانية ضرورة تجاوزها إلى ما بعدها.

طبعاً، هذا لن ينسينا أبداً بأن "السلفية الوطنية" شكلت تجربة سياسية وفكرية فذة، حيث استطاعت حفظ الذات من الاندثار والتبديد وأكسبتها مناعة بفضل عقلانياتها ومعقوليتها. مما يعني أن من بين العوامل التي جعلت السلفية الوطنية سلفيةً مستنيرة ومنهجية أنها كانت ذات طبيعة سياسية. إلا أنها، مع ذلك، كانت تجربة محدودة بأفقها التاريخي، ومهمتها السياسية والإيديولوجية المحددة التي أنجزتها بقدر كبير من الكفاءة، وهي تحرير الوطن من نير الاحتلال الأجنبي. ومما يدل على تاريخية ومحدودية السلفية الوطنية، أن بعضاً من روادها الكبار، كالشيخ محمد بن العربي العلوي، فضّل الالتحاق باليسار المغربي بمجرد ما أنجزت الحركة الوطنية هدفها الأساسي. وهذا ما يعزز ما ذهبنا إليه من أن زمن السلفيات الوطنية قد ولى، وحل محله زمن السياسة، أو

السياسات الوطنية، باعتبارها صراعا عقلانيا وديمقراطيا وتجاوزيا من أجل إعطاء مضمون مستقبلي للمجتمعات والدول، وبوصفها - السياسة-تعقلا ومرونة وتكيفاً ومراعاة لمقتضيات الواقع سعياً للتوافق وتعزيزاً لدور الدولة الوطنية المدنية القوية. على أن تجري كل هذه الفعاليات العقلية والعملية، التي تدخل تحت مسمى السياسة، في فضاء محايد هو الذي يمكن تسميته بالعلمانية، خصوصاً إذا فهمنا هذه الأخيرة على أنها في آن واحد أداة لحماية الإيمان من تدخل الدولة، ومحاولةً لتأويل الدين كي يكون فعالاً في الحداثة ومستجيباً للتحديات والحاجيات الواقعية والمعقولة للناس والمجتمعات والأفراد.

السلفية الجديدة والوطنية

محمد المعروف الدفالي

يعتبر العنوان عتبة رئيسية تختزل مضمون أي نص من النصوص، كما يشكل بطاقة تعريف تعطي النص هويته، وتكون سمة ومقدمة له عبر ما يتضمنه من إحالة، وما ينطوي عليه من تساؤل يسعى صاحب النص إلى الإجابة عنه، أو طرحه للنقاش.

ويدور النقاش المقترح لهذه المساهمة حول ثلاثة مفاهيم هي: السلفية، والسلفية الجديدة، والوطنية، في إطار تجربة تاريخية، تهتم تاريخ المغرب في عهد الحماية، وتهتم نضال شريحة من النخبة الحضرية المغربية ضد الاستعمار. أما سؤاله الضمني، فيتعلق بالبحث عن العلاقة بين السلفية الجديدة وبين السلفية، ثم العلاقة بين السلفية الجديدة وبين الوطنية.

1 - السلفية في اللغة والاصطلاح:

يشار عادة إلى مفهوم "سلفية"، بأنه من أكثر المفاهيم غموضا والتباسا، ويدل على هذا الغموض والتباس، محاولات الشرح والتوضيح، التي لا تساهم إلا في زيادة الغموض واللبس، وتحول دون المتتبع ودون التمييز بين التحليل والتاويل، وجعله عاجزا عن تصنيف السلفية. هل هي اتجاه فكري، أم اتجاه مذهبي؟ وهل هي منهج، أم برنامج، أم عقيدة؟ أو هي اتجاه كلامي، رغم أن القائلين بها يسعون إلى السمو على الفرق الكلامية؟ أم هي مرحلة تاريخية؟ أو كما يرى بعض خصومها، هي مجرد نزعة ماضوية، تقليدية، تعادي العصر والانفتاح، وتسعى للتقوقع خدمة لمصالح ضيقة؟...

وقد يسهل إمكانية إزالة بعض اللبس، الاستناد إلى المداخل التي قد تساعد على ذلك، ومنها مدخل معالجة الحركات السلفية حسب الشروط التي أفرزتها، والرموز التي نظرت لها، وحسب رؤية كل تجربة للماضي وللحاضر. فالسلفية سلفيات، قد تلتقي حول بعض الثوابت، إلا أنها تختلف حول الكثير من الجزئيات والاجتهادات، حسب اختلاف الزمان والمكان، واختلاف أسباب النزول، وحسب درجة تشدد أو انفتاح القائلين بإحياء سنن السلف.

وبالعودة إلى المتداول في مختلف الكتابات والمرافعات، نرى أن مفهوم "السلفية" في اللغة، يرتبط بالسبق في الزمن. أما في الاصطلاح، فيطلق على صحابة الرسول وتابعيهم، وتابعي تابعيهم، وعلى ما كانوا عليه من سير على سنن النبي، طيلة القرون الثلاثة الأولى بعد البعثة النبوية. ويطلق على هؤلاء الكثير من النعوت من قبيل: أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث، وأهل الاتباع، وأهل الأثر، والسلف الصالح، التي تحدد السلف المقصود، والتي تلغي أي تعميم للصفة على كل الذين عاشوا المرحلة الزمنية اللاحقة، من أجل الانتماء إلى ذلك السلف الصالح، عن طريق تبني ما كان عليه، بل إن البعض يربط بين العلم

واتباع السلف، فيجعل ضمن أصول العلم، أصل الانتماء إلى السنة والجماعة، في أي زمان وأي مكان.

ومن الناحية التاريخية، ارتبطت الدعوة إلى العودة لسيرة السلف الصالح والانتساب إليه، بلحظات عدد من الأزمات، التي عاشها العالم الإسلامي، والتي احتاجت إلى حلول، رأى البعض إمكانية بلورتها من خلال تلك العودة، بما يعني ذلك من قطيعة مع الحاضر، ومع المسار الذي وصل إليه، وبناء حاضر جديد، تخلص مما اعتبر أسبابا وراء الأزمات. وهي نظرة تصور الحاضر مصبا لنهر تكدر مجراه، فوجبت العودة إلى "النبع الصافي"، ووضع مجرى آخر، يتحاشى أسباب التكدر.

في هذا السياق الإحيائي، تكون السلفية - بمعنى التفكير في حل الأزمات بالعودة إلى الماضي، الذي يعتقد في صفائه، والبناء عليه - ظاهرة بشرية عرفتها مختلف الشعوب والثقافات، وتزامنت في العديد من الأحيان مع توجهات إحيائية، اختلفت باختلاف المنطلقات والأهداف والرؤى، قد تكون متفقة حول المشرب العام، وحول الأهداف والرؤى. ففي المقام الذي يهمننا، تزامنت سلفتان هما: السلفية المجددة، والسلفية الجديدة¹، كما تزامنت هاتان السلفتان، مع توجه إحيائي، مختلف من ناحية المشرب، نادى به بعض الفرنسيين، من مبشرين وغيرهم، وكما اعتبروا فرنسا وريثة روما، وورثة الكنيسة الكاثوليكية. كما رأوا أن العرب والإسلام، خربوا، وحرفوا ما أنجزه الرومان بشمال إفريقيا، فنادوا بالعودة إلى حضارة روما، وإلى إحياء تعاليم كنيسة شمال إفريقيا، وتعاليم القديس أغسطين.

ولا شك أن كل من يقرأ هذه القراءة، يجيز لنفسه أن يتحدث عن إحيائية استعمارية فرنسية، ليضع مقابلها حديثا عن سلفية وطنية، أو عن المزج والتركيب، الذي كونته جماعة السلفية الجديدة بين السلفية، والوطنية، مع ما يمكن أن يرى البعض في ذلك من تناقض، مرده إلى كون الوطنية مفهوما جديدا، يعني التضحية من أجل الوطن بمعناه الجغرافي المحدد (المكاني المحدد)، الذي

1- لتوضيح نقط الالتقاء ونقط الاختلاف بين السلفيين انظر: محمد معروف الدفالي، أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة، الدر البيضاء، منشورات أمل 2014.

يرتبط فيه الناس بالمشترك الدينوي، بينما يعني الوطن في التراث السلفي، الوطن الروحي، الذي جامعته هو الإسلام، ولو تباعدت الأمكنة.

2 - السلفية الجديدة

شكلت الفكرة السلفية- على مر التاريخ - أحد مؤطرات ثقافة النخبة، وذهنية العامة، وارتبطت تلاوين بروزها إلى السطح، بتلاوين مختلف أزمت المجتمع عبر ذلك التاريخ، حيث رد عدد من العلماء، ومن رجال المخزن، عمق الأزمت، إلى ما اعتبروه انحرافا عن الدين، وابتعادا عن نهج سيرة السلف الصالح، فرأوا الحل في الإحياء والعودة إلى تلك السيرة، ولذلك اتخذت الحركات السلفية- عادة- صفة حركة إصلاح ديني، في أفق إصلاح دنيوي. ورغم أن القاعدة العامة في اقتراح حلول للأزمت، كانت هي الإحياء والدعوة إلى العودة، فإن طبيعة كل أزمة انعكست على الدعوة، فألبستها نوعا من الخصوصية، اختلفت بها عن الدعوات الشبيهة. وهي الخصوصية التي ساهم في إبرازها- أحيانا- بعض التأثيرات المتبادلة في حالة تزامن ظهور أكثر من حركة سلفية في بقاع البلاد الإسلامية، وخصوصا منها البلاد الواقعة في الطريق إلى الحجاز، حيث أقام بعض المغاربة هناك للدراسة، أو تبوؤوا مهام دينية، فحملوا معهم بعض تلك المؤثرات بعد عودتهم إلى بلادهم، وجعلوا لها مكانة في عدد من الأوساط، سهل الوصول إليها اعتقاد المغاربة- منذ القديم - في صلاحية كل ما يأتي من المشرق، في إطار الدين وتقديسهم له. ولعل النقاش حول سؤال: هل تأثر المغاربة بالحركة الوهابية في الحجاز أم لا؟ وما درجة ذلك التأثير إن كان صحيحا؟ هو أحد أوجه هذا النقاش، وهو ما ينسحب على علاقة السلفية المغربية الجديدة بالسلفية المشرقية، التي قادها الثالث الشهير: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والمسماة في الكتب المدرسية- وغيرها - بالحركة السلفية. وإذا كان المجال لايسعنا هنا لمناقشة هذه المسألة، فإننا نسارع إلى القول، بأن أي إطلاقية في هذا الباب، تفتقد إلى محل من الإعراب، لأنه إذا كان تبادل التأثير والتأثر واردا، فإن ذلك لا يلغي الخصوصية، وإذا تشابهت الأسئلة فلا يعني ذلك حاجتها لنفس الأجوبة، كما أن نفس الأجوبة، لا يمكن أن تكون في حق كل الأسئلة وإن تشابهت، وإن كل مقارنة بين حركتين سلفيتين - أو أكثر - اختلفت في الزمان، أو في المكان، إلا وتوصلت إلى رصد عدد من مظاهر العام، إلى جانب عدد من

مظاهر الخاص، بشكل يؤكد ضرورة الحديث عن سلفيات بالجمع والتنوع، لا عن سلفية بالمفرد والمطابقة.

وفي هذا السياق اختلفت أزمة المغرب في القرن التاسع عشر، وأزمته في بداية القرن العشرين، عن غيرها من أزماته المجتمعية السابقة، وعن غيرها من أزمات البلاد الإسلامية الأخرى. ومن هذا الاختلاف، كانت أسئلتها الجزئية الخاصة، وراء ظهور تيارات سلفية، بمواصفات فيها الكثير من الخصوصية. ويهمنا من وراء هذه الألوكة، الحديث عن التيار السلفي، الذي ظهر مع منتصف القرن العشرين، بمبادرة عدد من شباب المدن.

تشير كتابات عدد من الشباب، الذين ساهموا في بروز التيار السلفي إلى حرب الريف، بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، كحدث حاسم وراء نوع من اليقظة في صفوف بعض نخبة عدد من المدن، كما تشير إلى التزامن بين دخول فرنسا تلك الحرب، وبين بداية عمل بعض الشباب على نشر العقيدة السلفية. فقد كتب أحد هؤلاء يقول: "وقد دخل الريف في حرب فرنسا، ونحن من حول أستاذنا¹ للعمل لهذه العقيدة، ويجاهد في نشرها، وما ظهرت خيانة بعض مشايخ الطرق في هذه الحرب، حتى زاد ذلك فينا حماسة وقوة"²

وقد ظهر هذا التيار- بشكل متزامن - في ثلاث مدن هي: الرباط، وفاس وتطوان، بتوجيه من عدد من العلماء، الذين هيأوا المقدمة التي كان لها ما بعدها. ومن هؤلاء الآباء، أبو شعيب الدكالي، الذي تلقى دراسته العلمية بالمغرب، ثم عززها بالدراسة في جامع الأزهر بمصر، على عدد من الشيوخ، من بينهم الشيخ محمد عبده، كما ألقى دروسا بالجامع نفسه، ومنه انتقل إلى التدريس بالحجاز، التي تلقى فيها العديد من إجازات شيوخ قادمين من مختلف البلاد³. ولما عاد إلى المغرب، وكله رغبة في نشر الدعوة السلفية، "والتف من حوله جماعة جماعة من الشباب النابغ، يوزعون الكتب التي يطبعها السلفيون بمصر،

1- يقصد محمد بن العربي العلوي.

2- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، طبعة جديدة، الرباط، مؤسسة علال الفاسي، 1993، ص754

3- حول سيرة هذا الرجل انظر: محمد رياض، شيخ الإسلام أبو شعيب الدكالي الصديقي وجهوده في العلم والإصلاح والوطنية. مع ذكر ثلة من تلامذته وآثاره، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2005 .

ويطوفون معه لقطع الأشجار المتبرك بها، والأحجار المعتقد فيها"¹. لقد كان أبو شعيب الدكالي، من من الرعيل الأول من الشيوخ، الذين نعوا على التقليد، وحاربوا الجمود، جعله علال الفاسي في صف الذين عملوا على "السمو بالفكر إلى مستوى السلفية الأولى" ووصفه بـ "السلفي المخلص"²

وفي إبان حرب الريف، كانت جماعة من الشباب بمدينة الرباط، ملتفة حول هذا الشيخ لنشر السلفية، في الوقت الذي كانت فيه جماعة من شباب مدينة فاس، ملتفة حول محمد بن العربي العلوي، تلميذ الدكالي، وناشر دعوته، والذي وصفه علال الفاسي بأنه ملك "من الجرأة والإقدام والثبات، ما جعله يلاقي في دعوته نجاحا كبيرا، وإقبالا عظيما"³ كما وصفه عبد الكريم غلاب، بأنه كان "سلفيا متعصبا، لا يعتقد في إسلام الطريقين ولو كانوا من كبار علماء الإسلام"⁴، ووصفه في إطار الفكر السلفي عامة، بأنه "لم يكن أقل ثورة من ابن تيمية، أو ابن عبد الوهاب"، وأنه "نصب نفسه ليكون داعية الإسلام الصحيح"⁵. وبخلاف أبي شعيب الدكالي، الذي كانت تجربته في الشرق، رافد دعوته السلفية، فإن سلفية ابن العربي العلوي، لم تكن ذات مرجعيات مستندة إلى منظور، أو إلى دراسة معمقة في المذاهب الإسلامية، التي نشأت من النهضة الفكرية والفلسفية في الإسلام، وإنما كانت نتيجة معاينة معيشة، ونتيجة تفكير وتدبر في أوضاع المسلمين في المغرب، ونتيجة تعميق لتلك التجربة والنظر بما كان يقرأه هذا التيجاني السابق، من كتب ابن تيمية، ومحمد عبده، وسيرة جمال الدين الأفغاني⁶.

وإن من يتتبع كتابات الشباب، الذين بلوروا ما سمي - فيما بعد - بالسلفية الجديدة، يلاحظ كيف كان هؤلاء الشباب، متأثرين بتوجهات الشيخ أبي شعيب الدكالي، التي أنجبت "مدرسة الرباط". وتوجهات الشيخ محمد بن

1- علال الفاسي: الحركات الاستقلالية م س ، ص 153.

2- من كلمة رثاء علال الفاسي للشيخ الدكالي، انظر نصها بكتاب محمد رضا، م س، ص: 738- 739.

3- الحركات الاستقلالية ... ص: 153

4- عبد الكريم غلاب، الماهدون الخالدون، سلسلة كتاب "العلم" السلسلة الجديدة، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1991، ص: 13

5- المرجع نفسه، ص: 14

6- نفسه والصفحة نفسها.

العربي العلوي، التي أنجبت " مدرسة فاس"، إذ بالتقاء تلاميذ المدرستين، وباجتهادات بعض الرموز من التلاميذ، واقتباس توجهات شيوخ سلفيين آخرين من المغرب ومن المشرق، تكونت الخطوط العريضة لهذا التيار الجديد، المتكون من شباب تحرر من بعض معيقات أبرز شيوخه، الذين كانوا موظفين مخزنين، ومرتبطين بنظام الحماية بحكم الوظائف التي تدرجوا فيها، وبحكم ما تمليه المصلحة التدرجية. وفي شمال المغرب لم تعد المنطقة الخليفية - وأساسا عاصمتها تطوان - شيوخا سلفيين، ذكر على رأسهم الشيخ علي الخطيب، والشيخ محمد العربي الخطيب. وكانت لهما معا، رحلات دراسية إلى المشرق، لإتمام ما تعلماه في المغرب، فصادت رحلة الأول إلى مصر في القرن التاسع عشر، لحظة نشاط أحد ملهمي السلفية في المشرق، هو محمد عبده، فتأثر بدعوته. وصادت رحلة الثاني، في العقد الثاني من القرن العشرين، لحظة نشاط الشيخ رشيد رضا، تلميذ محمد عبده، وأبرز الساهرين على نشر فكره، فكان من أوائل التلاميذ الذين التحقوا بمدرسته، التي حملت اسم " دار الدعوة والإرشاد". ويظهر أن شروط الدعوة السلفية، التي كانت محفوفة بواقع غير مساعد على نشرها، طبعه النفوذ القوي لخصوم السلفية، كما طبعه الافتقار إلى دعم مخزني غير مباشر، على غرار المنطقة السلطانية. وبسبب هذا الواقع، احترز علي الخطيب، في الجهر بقناعاته، واقتصرت محاولاته على أقلية من الناس الذين تبادل معهم القرب. كما أن محمد العربي الخطيب، ورغم إيمانه بضرورة نشر الفكرة السلفية، وعمله من أجل ذلك من خلال المجلس العلمي في العهد الأول للحماية، ومن خلال بعض الصحافة مثل جريدة " شمال إفريقيا"، وجريدة " الإصلاح"، فإنه لم يكن غير المواجهة مع العناصر المختلفة معه فكرا.

ولم يصبح للحركة السلفية في الشمال شبه موطن قدم، إلا مع الجماعة التي تأثرت بالشيخين المذكورين، والتي التفت حول عبد السلام بنونة، وجعلت من السلفية حركة إصلاحية، مهمتها صقل الذهنية والعقيدة، إلى جانب مساهمة روح العصر، ومتطلبات التطور المادي.

ولم تلبث جماعة تطوان السلفية، أن التقت بنظيرتها في فاس والرباط، وشكلت معهما نواة لتطوير العمل والدعوة، دون أن تنسج على منوالهما في الموقف المتطرف من الطريقة. ذلك أن سلفيي تطوان، كانوا معتدلين في هذا الباب، وكانوا يرون أن كل غلو هو أقرب إلى المضرة منه إلى النفع. لقد كان

التطرف والغلو أحد النقط التي ناقشها عبد السلام بنونة، ومحمد داود في تصور جمعية "حماية الحقيقة"، التي شكلت النواة الأولى لتجمع الشباب المؤمن بالفكرة السلفية، رغم أن امحمد بنونة شقيق عبد السلام، كان متحمسا لأطروحة الجمعية المذكورة¹.

إن الشباب الذين تحدثنا عنهم، مثل محمد اليمني الناصري، والمكي الناصري، ومحمد غازي، ومحمد علال الفاسي، والأسماء التي ذكرنا من تطوان وغيرهم، هم من كانوا وراء تجديد الدعوة السلفية، وهم من كانوا وراء إشعاعها بأسلوب وصفه محمد علال الفاسي بأنه أسلوب "أدى إلى نجاح السلفية لدرجة لم تحصل عليها حتى في بلاد محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني"². وإن حركة هؤلاء في النصف الثاني من عشرينيات القرن العشرين، هي التي أطلقت عليها بعض الكتابات الفرنسية، نعوتا من قبيل السلفية الجديدة، والحنبلية الجديدة، والوهابية الجديدة، بما يحيل عليه مصطلح "الجديدة" من مزج بين الدعوة الإحيائية، وبين الدعوة للانفتاح على مستجدات العصر. فالدعوة إلى الماضي، لا تعني في رأي بعض رموز هذا التيار، أي فعل نكوصي، بقدر ما هي حركة عامة، أو "ثورة مفيدة"، مثلها مثل مثيلاتها التي سبقتها، دعوات للرجوع للماضي البعيد، قصد التحرر من أشياء وضعتها الأجيال العديدة، والعصور المختلفة. وهو تحرر يسهل السير إلى الأمام بخطى واسعة، ويفتح آفاقا نحو الغاية الصحيحة.

إن هذه الرؤية، هي التي جعلت جيل السلفية الجديدة، يرى فيها حركة تجاوزت الدعوة ضد الخرافات في اتجاه الدعوة لحث الشعب على العلم، والدعوة إلى إصلاح شامل، وإلى مقاومة الجمود في كل فروع الحياة³.

ولعل هذا توجهه، بالإضافة إلى مساهمة الكثير من الحداثيين في بناء السلفية الجديدة، من مثل محمد بن الحسن الوزاني، وأحمد بلافريج وغيرهما... هو ما يجعل من الصعب، وضع التيار السلفي في الحركة الوطنية المغربية نقيضا للتيار الحداثي. فالتيار السلفي كان تيارا إحيائيا، ولكنه كان حداثيا بمقدار، والتيار الحداثي كان تيارا عصريا، إلا أنه كان سلفيا بمقدار.

1- حول هذا النقاش أو الحوار، انظر أحمد زياد "رسائل وطنية"

2- الحركات الاستقلالية، م س، ص: 154

3- المصدر نفسه ص: 155

3 - الامتزاج بين الدعوة السلفية والدعوة الوطنية.

منذ بداية ثلاثينيات القرن العشرين، تراجع الحديث المباشر عن السلفية، دون أن يتراجع الفكر السلفي، وقبلها في العشرينات، حضر الفكر الوطني إلى جانب السلفية، دون أن يعبر عن نفسه صراحة. ومن هذا الواقع، يمكن القول، بأن الوطنية كانت رافدا للسلفية الجديدة في العشرينيات، بدليل مساهمة العديد من الشباب غير السلفي صراحة، في بناء الحركة السلفية وتطويرها، وبأن السلفية في الثلاثينيات وما بعدها - طيلة عهد الحماية - شكلت رافدا للوطنية ومدافعا عنها، بدليل مواقع بعض دعائها في جسم الحركة الوطنية، وبدليل محاولتهم جعلها أيديولوجية لهذه الحركة.

تخلق الوضعية الاستعمارية في أوساط المغلوبين على أمرهم، نوعا من الإحساس بالدونية، ومن الإحساس بالحرمان من الهوية، ومن المواطنة، وهو ما تنتج عنه ردود فعل مختلفة، تتمثل خطوطها العريضة في رد فعل سلبي، متفوق على الذات وعلى التراث السطحي للأسلاف، بحثا عن توازن نفسي يخلق فوق الواقع، ولا يشغل به نفسه، ورد فعل يميزه الاضطراب والقلق والرغبة في استرجاع عدد من مقومات الذات، كمقدمة لاسترجاع الخصوصية التي - عادة - ما تكون مقدمة لبناء الفكرة الوطنية، والانتقال بها إلى حركة تسعى إلى التحرر والانعقاد. وإن حركة السلفية من هذا المنظور، هي حركة إصلاح مجتمعي، فكرت في إيقاظ المتفوقين على التقليد والخرافة، وعلى نوع من الدين السطحي، كمقدمة لاسترجاع الذات الواعية بما يحيط بها، والتفكير فيما وجب فعله لبناء مستقبل أفضل. فالإصلاح السلفي يتنافى مع استمرار هيمنة الفكر الطرقي، ولا يستقيم إلا بإضعافه¹. بينما الحركة الوطنية هي ارتقاء بالوعي عبر أطروحة سياسية، يكون المجتمع قد تهيأ لها من خلال إصلاح مجتمعي. فهل كانت حركة الإصلاح المجتمعي السلفية، قد أنهت مهمتها سنة 1930، وفتحت الباب أمام حركة سياسية، هي الحركة الوطنية؟ إن قراءة مم هذا القبيل تكون ممكنة، بدليل أن الهم السياسي الوطني، هو الذي أصبح أكثر حضورا منذ ذلك

1- انظر محمد معروف الدفالي، حرب السلفية الجديدة على الطرقية، حرب حدود أم حرب وجود؟ أمل، عدد: 42 - 2014، 73 - 80

التاريخ، بينما تحول هم الإصلاح الديني والثقافي، إلى مجرد رافد من روافده. وقد تقترب قراءة محمد علال الفاسي، للانتقال من السلفية إلى الوطنية من هذا الإطار. فقد رأى أن هدف السلفية في باعثها الحنبلي، الرامي إلى تطهير الدين من الخرافات التي ألصقت به، هي حركة تتناول نواحي المجهود الفردي لصالح المجتمع، بما يتطلبه ذلك من فتح للذهن، وتقبل للجديد، اعتماداً على مقياس المصلحة العامة، التي تستدعي حرية العقيدة، وحرية الفكر والتعبير، التي تستوجب التنظيم في إطار جمعيات وأحزاب ونقابات¹، كما رأى أن السلفية- بعد نوع من التأرجح - اقتنعت بضرورة القومية المبنية على أساس الروابط الإقليمية². فالسلفية- في رأيه - هي التي هيأت للشباب ميداناً لبذل نشاطه، وللتعود على العمل لخدمة الأمة والتضحية في سبيلها³، وهي التي عملت عملها في تسيير آله النفسية، وتوجيه تفكيره نحو التجدد المنشود في مظاهر الحياة⁴، ونحو كل ما كان يسير به نحو العمل السياسي المنظم⁵.

وقد كانت المدرسة الحرة من أولى علامات النهضة الفكرية، بعد الحرب العالمية الأولى، فتحوّلت إلى علامة من علامات نهضة سياسية، لما عرف شباب السلفية، كيف يحولونها إلى قلاع، وثكنات، وحصون للحفاظ على الهوية، ولإعداد الرجال، ولتمرير الفكر الوطني السياسي، الذي كان يتسرب من أكثر من مكان، وكيف يحولونها من رد فعل ثقافي، إلى مؤسسة خرجت العديد من القادة السياسيين، فاستحقت بذلك أن يرى فيها محمد داود " مغامرة في الوطنية"، ويرى فيها أحمد مكواري، "بداية للعمل الوطني"، كما رأى فيها محمد بن الحسن الوزاني، المكان الذي لعب دوراً في تغذية روح الوطنية والنهضة، وفي إذكاء الحماس في الناشئة. وبالإضافة إلى المدرسة الحرة، كان الانفتاح على المسرح نوعاً من توظيف أحد الفنون، في نوع من التعبئة غير المباشرة، ونوع من العمل على نشر القيم الإيجابية، ومنها قيم التضحية والفداء. ولعل صورة الفقيه السلفي،

1- الحركات الاستقلالية، م س ، ص: 156

2- المصدر نفسه، ص: 156- 157

3- نفسه، ص: 159

4- نفسه، ص: 158

5- نفسه، ص: 160

محمد القري، الذي صعد خشبة المسرح ممثلاً، وكتب المسرحيات مؤلفاً، من أبرز الصور التي توضح انفتاح الحركة السلفية على هذا الفن الوافد، وقدرتها على الاستفادة منه في الدعوة الوطنية.

ولعل المناخ الذي ساهمت في خلقه الحركة السلفية وحركة المدارس الحرة والحركة المسرحية، شكل دافعاً نحو تجسيد الإحساس، من شعور إلى واقع عملي فاعل، فأفضى ذلك إلى تأسيس الجمعيات الثقافية والسياسية السرية، وعلى إصدار الصحافة الخفية، وهو ما شكل إرهاصات ثابتة في اتجاه العمل الوطني السياسي الواضح، الذي أعلن عن نفسه صيف سنة 1930.

تصوف محمد بلعربي العلوي بشهادة محمد المختار السوسي

عبد العالي العمراني جمال

أود أن أكرر عبارة وردت في صبيحة هذا اليوم على لسان الأستاذ حسن أوريد، ختم بها مداخلته فقال: إن هذه الجلسة تستحق الإجلال والإكبار. كما أود أن أشكر مركز محمد بن سعيد أيت ايدر على هذه المبادرة التي جعلت التراث التاريخي لهذه الشخصيات موضوع البحث والتنقيب. لأن كثيراً من الحقب الزمنية، التي تتلو الحياة والوجود الفعلي لهذه الشخصيات، قد تكتب بأقلام الصحفيين والإعلاميين، لا بأقلام المؤرخين. ولأن جل ما أعرفه عن الشيخ محمد بلعربي العلوي كان من الكتابات الصحفية، وليس من كتب موضوعة في التراجم والسير. والحكم نفسه ينسحب كذلك على بعض الفترات التاريخية الحاسمة في تاريخ المغرب، مثل الفترة التي عاشها المغرب من سنة 1912، وإلى حصوله على الاستقلال، وهي أهم فترة عاش ومارس فيها محمد بن العربي العلوي. وقد يكتب التاريخ أيضاً بلونين فقط هما الأبيض والأسود.

ولابد من التذكير بهذه المناسبة، وفي هذه الجلسة بذاكرة رجال من أمثال الفقيه محمد البصري، ومحمد بن سعيد أيت ايدر، ومولاي عبد السلام الجبلي، الذين تتلمذوا على الشيخ محمد بن العربي العلوي مباشرة، وحضروا حلقات دروسه، أو أنهم أخذوا قطعاً لاتخمينا عن تلامذته في مراكش، سنوات الثلاثينيات والأربعينيات، وخاصة عن تلميذه محمد المختار السوسي، الذي ترجم لمحمد بن العربي العلوي ضمن تراجم شيوخه من الحضريين.

أما موضوع التصوف عند الشيخ محمد بن العربي العلوي، وكما ورد في شهادة تلميذه محمد المختار السوسي، فلا بد من التأكيد على أن كلمة التصوف، كنظيرتها السلفية، التي ترددت كثيراً في مداخلات السادة الأساتذة، الذين تناولوا الكلمة هذا اليوم، حيث سمعنا أن هناك سلفيات متعددة، كالسلفية المستنيرة، والمتشددة، والمتحركة وغيرهما، وهذا التعدد والتنوع، يجري على كلمة التصوف، فهو أيضاً أنواع وأشكال.

وسأعمل كفيلسوف ومنطقي، يعمل بأوائل ما نتعلمه في المنطق، وهو البحث فيما يسمى بالأسماء المشتركة، والأسماء المتواطئة، أو الأسماء المشككة. ففي بداية كتاب المقولات لأرسطو، والذي شرحه المسلمون، وخاصة ابن رشد وجل من سبقه من المتقدمين، تحديد معاني الكلمات، لتدقيق مدلولاتها والتمييز بينها، ولهذا أقول: إن من الأسماء المتواطئة، والمتفقة، أو المشتركة. فالعين مثلاً، هي عضو، وسيلة الماء، وعين الذهب. إذن فالاسم واحد والمعاني مختلفة، بخلاف الأسماء المتواطئة، فإن هي ألفاظها مختلفة، لكنها تعبر عن المعنى الواحد، كأن نقول الأسد والليث، فالألفاظ مختلفة والمعنى واحد.

وعليه فإن كلمة التصوف مثل السلفية، لفظها واحد ومدلولها واسع، ومعانها متعددة. ومن خلال الشهادتين الرئيسيتين، الواردتين في ترجمة محمد بن العربي العلوي بقلم تلميذه محمد المختار السوسي، وترجمة شيخه المتصف بالفيلسوف المنطقي، الفقيه الرافعي، وفي موضعين مخصوصين، يذكر موقف محمد بن العربي العلوي من التصوف، الذي يعتبره إما أصلاً في الثقافة الإسلامية المغاربية، أو أنه جعل كأداة فعالة في الطرق وخصوصاً الطريقة الشاذلية التي انبثقت منها الطريقة الدرقاوية.

وسأعود إلى التاريخ العام، لأبدي رأيي في تصوف محمد بن العربي العلوي الذي نعتبره مجاهداً بالمعنى الذي قال به المتصوفة، أي الجهاد الداخلي

والخارجي. وإذا رجعنا إلى تاريخ الصقع المغاربي الأندلسي، مند الدولتين المرابطية والموحدية، وإلى يومنا هذا، وجدنا ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى، هي الفترة التأسيسية، التي نشأ فيها الأعلام والمنازل التي ظهرت في التصوف المغاربي الأندلسي، في القرنين الخامس والسادس الهجريين. ومن هؤلاء الأعلام: أبو مدين الغوث، ومولاي عبد السلام بن مشيش، وأبو الحسن الشذلي، والشيخ زروق، ثم مولاي علي الجمل، ثم تلميذه مولاي العربي الدرقاوي وغيرهم ممن انتمى إلى الطريقة الدرقاوية، وهي التي تمت فيها المواجهة مع الغرب الأوروبي المسيحي، التي انتهت باسترداد الأندلس، وبروز المجاهدين، ودعوة الشيخ أبي الغوث إلى الجهاد.

المرحلة الثانية: هي فترة سيدي محمد بن سليمان الجزولي، والدولة السعدية. والمعروف أنها واجهت البرتغال، وفيها بدأت الثورة الجديدة بدعامة التكوين الصوفي.

المرحلة الثالثة: تمثل التيار الذي نهل منه الأمير عبد القادر الجزائري، الذي لجأ إلى دمشق. وهو أول من طبع كتاب الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، الكتاب الرئيسي للتصوف مند القرن السادس للهجري، وعمل على تدريسه في دمشق منذ ثلاثين سنة، وأخرج منه كتاب المواقف، وهو صورة مدققة، تؤكد أنه تلميذ مباشر، روحيا ومذهبيا للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي. ويبقى التسلسل إلى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي له صلة بالأمير عبد القادر، والذي جاهد ابنه عبد الباري مع محمد بن عبد الكريم الخطابي.

نضع شخصية محمد بن العربي العلوي ضمن المراحل الثلاث التي تضاربت الأقوال في تكوينها وفي موضوع دعوتها إلى السلفية. لقد أثرت في تكوين الشيخ محمد بن العربي العلوي ثلاثة عوامل ذكرها محمد المختار السوسي في ترجمته له هي:

- اطلاعه على مصادر محددة، نهل منها، وتشبع بها، وخاصة كتاب أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، للإمام تقي الدين بن تيمية، الذي سمي بالحنبلي، والذي قيل عنه، إن السلفية الوهابية اتخذته شعارا لها، وهو أمر مقبول، إذا لم يتم حصر شخصيته فيها، لأننا نجد في رسائل ابن تيمية أشياء لا نجدها عند الفلاسفة أنفسهم، ففيها يذكر التعارض بين ابن رشد وأرسطو، ونصوصا فلسفية

يونانية، لم ترد في أعمال ابن سينا وابن رشد. فالرجل مهتم بالفلسفة، مطلع عليها تمام الاطلاع. لكنه يذكر في كتابيه: أولياء الرحمان وأولياء الشيطان، والفتاوى، يذكر الفلاسفة لتكفيرهم، والملاحدة من الصوفية كالشيخ الأكبر ابن العربي، ولهذا يجب التحفظ والحذر في إصدار حكمه على الشخصيات.

- أخذه كذلك عن الشيخ أبي شعيب الدكالي، الذي أخذ بدوره عن الأستاذ الإمام محمد عبده، ولازمه وهو الذي أدخل سلفيته وسلفية جمال الدين الأفغاني إلى المغرب، وعنه أخذ وعلى يديه تعلم الشيخ محمد بن العربي العلوي.

- طريقته في تدبير القرآن، حيث كان يعتمد في دروسه على الآيات القرآنية، وكان يردد كثيرا قوله تعالى: فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين. أي أنه كان يتخذ القرآن أساس تدريسه، ودعم آرائه وأفكاره.

الفترة الثالثة: هي التي جرت فيها المناظرة بين الشيخ محمد بن العربي العلوي، والإمام الرافعي حول قضية وحدة الوجود عند الحاشمي، وهي المناظرة التي تؤكد أن الفلسفة والتصوف، لم ينقطعا كما يزعم البعض منذ القرن السادس الهجري، وما يزالان إلى يومنا هذا، وهناك دليل آخر يؤكد هذه الحقيقة، ويتعلق الأمر ببرنامج التدريس، الذي وضعه أحد ملوك المغرب والذي ينص على الرجوع إلى أمهات كتب النحو والفقه والحديث وغيرها، ويذكر في نهاية المرسوم، أن من أراد أن يشتغل بالفلسفة والمنطق، فليشتغل بهما في داره. وهذا دليل آخر على وجود الفلسفة والتصوف، واستمرارها في الصقع المغربي، منذ القرن الثاني عشر الهجري، وإلى يومنا هذا.

ملاحظ

الكريم الخطابي وكان بينهم في البداية شريف

● ظلت مستمرة الى أن قضى نحبه رحمه الله وأنا في

قد لا أبالغ أن قلت لك بأن «الناصر
في باريس أكثر مما تسافر بين الـ



● البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي



● الشيخ محمد بن العربي العلوي

السجن. وكنت في السجن
ايضا لما مات الفقيه
بلعربي العلوي. واذت
تعرف ولاشك ان بلعربي
العلوي رحمه الله كان قد
قدم استقالته من وزارة
التساج لما اعتقلت برفقة
سي عبد الرحمان. ذلك انه
كسان يدرك - وهو وزير
للتساج - بان وراء ذلك
ارادة لتصفية جيش
التحرير. ذهب عند محمد
الخامس رحمه الله وقال
له: «ان الدولة التي تعتقل
الناس الذين حرروها
ليست دولة» وطالب بان
يطلق سراحنا او يقدم
استقالته ووضع مفاتيح
البيت ومفاتيح السيارة
التي كانت مخصصة له.
وفعلنا اخرج زوجته،
وركب الحافلة وسافر الى
فاس.

ولما خرجنا من السجن،
واقبلت حكومة عبد الله

لتر
الس
على
والد
بات
المخ
وان
بالد
وخا
الفر
على
أحد
بدوز
والد
ينفئة
الاس
ان تا
الاتم
رأبي
وة
في الـ
قضو
واهم
المفر
منه

مدية
بة
ما
في
سر
اف
اء
نما
دام
ان
عبد
بي
يط
نه
له
نفا
في
اه
ان
ان
سم
بي
م
را

1- رسالة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى الشيخ محمد بن العربي العلوي

عبد الكريم الخطابي
شارع قاسم أمين - حدائق القبة

القاهرة في 1960/10/4

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله
الحمد لله وحده وببيده الحول و القوة

حضرة الأخ العالم الجليل الشريف المحترم السيد محمد العربي العلوي
حفظكم الله ورعاكم و قواكم على محاربة الظلم و الفساد والسلام عليكم و
رحمة الله و بعد؛
فإنه من دواعي الغبطة و السرور أن نكتب إليكم لأول مرة توثيقا لعرى الأخوة
الصادقة والمثينة والمحبة الصحيحة النزيهة، متضرعا إلى المولى سبحانه و تعالى أن
يلهمنا الصواب والحكمة و السداد، حتى نحقق آمالنا و أهدافنا في تحرير بلادنا
من الاستعمار البغيض وتطهيرها من خبث الغاصبين ورجس المعتدين
أيها الأخ الكريم، ما من عاقل ذي ضمير حي تجيش في صدره نخوة الاسلام
والعزة بالإيمان بالله و رسوله، إلا ويغار على أبناء أمتنا الذين ساروا في متاهات

الفوضى و الانحلال، و على ما وصلت إليه بلادنا من التقهقر و عدم الاستقرار، وما من منصف إلا ويرى أن حالتنا أصبحت تستحق الرثاء، بسبب الظلم الذي استشرى بصورة تدعو إلى اليأس. والفساد الذي غزى كل مجتمعاتنا وأوساطنا، أدى إلى طغيان الأوغاد والأنذال الذين نجحوا إلى حد بعيد في زعزعة العقائد. وتدهور الأخلاق نتجت عنها التفرقة والمحسوبية والتنكر للمسؤوليات و الواجبات.

ونحن وإن كنا لم نتعرف بكم شخصيا نظرا للعوائق التي اصطنعها المستعمرون، إلا أننا قرأنا عليكم كثيرا و عرفنا عنكم الشيء الكفيل لمعرفتكم معرفة تتفق ومواقفكم فيما تسدونه من النصائح والارشادات والتوجيهات لأبناء الأمة المغربية الأبية، هو شيء جميل بالنسبة إليكم كعالم يقدر مسئوليته وكشريف من العطرة الطاهرة يغار على دين جده رسول الرحمة وسيد المرسلين وإمام المتقين .

لقد أدركنا بما يرد علينا من أخباركم السارة ومواقفكم المشرفة أنكم تعملون و جادون لمعالجة ما أفسده الإهمال من المصائب التي انصبت علينا وعلى بلادنا، نتيجة التواكل وعدم الاهتمام، وفهمنا أنكم تدافعون و تجاهدون ضد الأنانية والمنافع الشخصية السافلة مما عرضكم للاتهامات الباطلة والادعاءات المغرضة من طرف أولئك الذين عرفناهم يحملون نية سيئة نحو البلاد والعباد، متجاوبين مع نيات المستعمرين الدخلاء الذين يحاربوننا لا لجرمة اقترفناها و لا لذنوب ارتكبناها،، إلا ،، دعوتنا للتحرر من الاستعباد والاستغلال ،، و من المؤسف أن نجد إخوانا لنا تجمعنا وإياهم لغة ودين ووطن ومصالح يقومون بنفس ما يقوم به أداء الدين واللغة والوطن،، لا لشيء. إلا من أجل منصب الحكم الزائف الذي لا يفيد ولا ينفع مع وثبة الشعب ونهضة الأمة.

أيها الأخ المحترم، كلنا يعلم ما تعرض له المغرب والمغاربة من نكبات و أهوال وكوارث سببتها"مأساة اتفاقية اكس ليبان" الملعونة التي قاسينا من جرائها ما شوه تاريخنا ومسح وجودنا، وجعلنا موضع السخرية والازدراء لمن حولنا من الأمم التي كانت تحسب لنا حسابا وتعتبرنا أمة لها تاريخ مجيد وماض مشكور في كل الميادين على مر العهود و العصور.

و كم نددنا آنذاك بنتائج هذه الاتفاقية المشؤومة، ودعونا إلى تلافي الأمر بأسرع ما يمكن حتى لا يقع ما لا تحمد عقباه ولكن- و الأسف ملء جوانبنا- ذهبت

كل محاولتنا أدراج الرياح ،، تنكرا لمصلحة البلاد العليا ،، ومجاملة للعدو المحتل الغاصب المخذول والمنهزم لولا هذه العكاكيز و[الغماريط] ،،

و بعد مرور خمس سنوات كلها تنكيل وتجويع وتشيت وتشريد ومماطلة وتسويق وتخدير وتضليل وتدجيل ومراوغة وتلكئ وتزوير وحرمان وكبت وعذاب وتعذيب رأينا مرة أخرى ذيلا آخر من ذيول تلك المؤامرة الشنيعة يعلن عنها في بلادنا على مرأى ومسمع من الأمة التي لا تعلم القليل ولا الكثير عنها ولا عما يجري ويحاك ويدبر ضدها و ضد البلاد ..

مع أن الأمة هي صاحبة الحق والكلمة الأولى والأخيرة في كل ما يهم البلاد وأبناء الشعب...

إن الأمة هي التي شاركت مشاركة فعالة ايجابية بأبنائها وأموالها وأعراضها وأرواحها في سبيل تحقيق ما تصبو إليه من عزة لها و كرامة لبلادها وحرية لأبنائها ومستقبل زاهر مشرق سعيد للجميع...

فهذه مؤامرة اكس لبيان رسمت وخطت وحيكت خارج البلاد وفي غيبة عن الأمة وأبنائها بمشاركة "حفنة" من عشاق المناصب وعباد الكراسي .. أثبتت الأيام أنها مشئومة وجريمة ارتكبت في حق البلاد و العباد، وهذه مؤامرة أخرى دبرت في الخفاء وراء الستار وتحت راية الاستهتار بحقوق الشعب وصوغت في ألفاظ منمقة وكلمات مزوقة فأعلنوها بدون حياء و لا خجل باسم " اتفاقية الجلاء" ..وما هو بجلاء ..وليس هناك جلاء ...ولم يكن أبدا جلاء...إنه نوع آخر جديد من التدجيل و التضليل لكسب الوقت محليا ..إلى حين ..إذ منذ متى اصطلح على ثكنات جيش الاحتلال "بالمدراس" والضباط "بالأساتذة و المدرسين" ترى من قال لهذه الجماعة إن لها الحق في كبت حرية المواطنين في التعبير عن ارادتهم ...؟

أتوهم هذه الجماعة نفسها بأن ليس هناك "أمة " يجب اعتبارها وأخذ رأيها في كل ما يهم البلاد ؟

أعتقد هذه الجماعة أن الشعب المغربي لم يعد أمة بل قطيعا من السوائم لا تعرف إلا ما تهتدي إليه البهائم من التبن و البرسيم

أظن هذه الجماعة أن المغاربة استساغوا العبودية والذل والهوان لحفنة تتلهث على مناصب الحكم وتتلهف على ملء الجيوب بما تنهبه من أموال الشعب وخيرات البلاد...؟

إن كانت هذه الجماعة تعتقد هذا فهي في خطأ كبير وغفلة قاتلة توشك أن تذهب بها إلى سحيق..سحيق الاندحار والاحتقار والازدراء ...
على هذه الجماعة أن تعلم أن لنا غاية منشودة وأهدافا واضحة وغايات سليمة
بنيات طيبة ...وتلك هي تحرير بلادنا من كل مظاهر الاستعمار والاحتلال، وعلى
هذا الأساس يجب على أفراد الجماعة ألا يعملوا من أجل اعاقتنا بتبرير خاطئ
ومرفوض ...

على الجماعة أن تعلم أن تمسكها بالقشور والأوهام التي يملها عليها
الاستعماريون لا يؤدي إلا إلى ازدياد شقة الخلاف بينها وبين المواطنين أبنا الأمة
الأبية ..وذلك ولاشك عامل أساس يفقدنا معاني التضامن و الاتحاد والوئام للعمل
سوية من أجل تحقيق مطالبنا العادلة..
على الجماعة ان تفهم مضامين الحقائق التي تواجهنا كأمة تسعى من أجل انتزاع
حقها من الغاصبين الذين يتربصون بنا الدوائر..
على الجماعة أن تتنازل لنعمل معا لبناء مستقبل أفضل، وحياة أسعد ...كما
يتطلبه منا وجودنا.

عليها أن تعلم أن أخطاءها هي التي جعلتنا نجتاز هذه المرحلة الدقيقة الصعبة
محفوفين بالمخاطر تدفعنا إلى الانكماش والقفود... حتى نتوج مستقبلنا بإكليل
من العار سيظل وصمة في تاريخنا.

عليها - إن تنكرت لمسئولياتها - أن تعترف بخطئها وتعمل على تداركه قبل
فوات الأوان ... فالإنسان مهما أوتي من فكر ومقدرة وتمييز وعقل ومعرفة
وإطلاع فلا بد له من الخطأ...وبالخطأ فحسب استطاع كثير من المخلصين أن
يحققوا أهداف أممهم بعد أن اعترفوا بخطئهم ورجعوا إلى جادة الصواب...
فحموا بلادهم من الأطماع والأهواء وأصبحوا بذلك قادة شعوب ورؤساء أمم عن
جدارة واستحقاق...

وهذه ليست نظرية مطلقة أو نزعة مجردة ..بل نتيجة أعمال وأفعال...قام بها
المخلصون لبلادهم وإخوانهم وأبنائهم فكانوا بذلك مثار اعجاب وتقدير
...ومحط آمال...وموئل السلام والسعادة ...

وكم وددنا لو فهم المسئولون في بلادنا مسؤولياتهم ورجعوا عن هذه الأوهام
التي تسير بهم إلى [التماد] التماذي في سياسة عرجاء خرقاء حمقاء لا يجنون من
ورائها إلا الخسران المبين...وبالأخص بعدما اصطدموا بالحقائق وواجهتهم

صرخات الشعب صاحب الحق وكلمة الفصل .. إذ الشعب وحده القادر على فرض وجوده لدرء الخطر من أي شكل كان ونوع أتي ...أما الجماعة الواحدة أو الفرد المتفرد فلا يعقل بتاتا أن يتمكنوا من "قوة" تخولهم محاربة الشعب مهما كان نوع تلك القوة ولو كانت قوة البطش والكبت والتنكيل.. إن كل ذلك يذوب ويتلاشى أمام "قوة"الشعب التي هي أشد فاعلية من أي سلاح تلك هي قوة الارادة التي تتفاخر بها الشعوب والتي جعلت من الأمم التي اتصفت بها تحيا وتنمو وتساعد .

هذا... ويسعدني أن انتهز هذه الفرصة السعيدة لنؤكد تأييدنا لكم فيما تقومون به من محاربة الظلم والفساد والطغيان ... ومهاربة الاستعمار وأذنبه وأبواق... آملا أن تثمر جهودكم ثمرات ناجحة قريبا غير بعيد...

المهم...هو أن تلهبوا العواطف الكامنة في أبناء الأمة المغربية حتى يجندوا أنفسهم بكل ما يملكون لطرد العدو الظالم الغاصب من بلادنا...هذا الظالم الذي يحتضر اليوم تحت وطأة تيار الحرية الزاحف في كل الشعوب التي منيت به ... وبالتالي لتطهير بلادنا من كل ما يشم منه رائحة الاستعمار والاحتلال بما في ذلك الإدارة والشرطة والأمن وضباط ما يسمى بالجيش الملكي الذي يسيره ضباط فرنسيون تحت ستار الفنية والتدريب...

ونحن [نعتقد] أن الوقت قد حان لتضيفوا مجدا آخر إلى أمجادكم السابقة التي سجلتموها عن جدارة في مقاومة العدوان والظلم..فاعملوا والنعمل جميعا عسى أن نتمكن من انتشال الأمة من هذه الهاوية التي تردت فيها... بدون سابق إنذار ...

ولا يفوتنا أن نذكر أن أكذوبة الجلاء التي فاجأنا بها المسؤولون أخيرا ما هي إلا تضليل من نوع جديد يجب أن تقاوم وتعارض وتناقش...من طرف أصحاب من يهمهم الأمر...من الأمة بحذافرها.. حتى لا يبقى هناك مجال للدس والمغالطة أو المعارضة...لأن الجلاء حق من حقوق الشعب كله...لا فرق بين صغير وكبير...ولا بين وضيع وسيد..إذ مصلحة البلاد فوق العباد...

نحن نطالب ببيان الحقيقة وإيضاحها على رؤوس الملائ...حتى لا نخدع مرة أخرى...فالمومن لا يلدغ من جحر مرتين...

إننا نعرف تمام المعرفة خداع فرنسا ومكرها ونذالتها وخستها ووضاعتها وميوعتها...لذا فإننا على حق إذا ما طالبناهم بكشف النقاب عن المؤامرة...ولا

نقول "اتفاقية" ... لأن الجميع يعلم أنها ليست اتفاقية... بل مؤامرة ولكنها من النوع المكشوف...

نحن لا نقبل كأبناء أمة واحدة أن تدبر ضد بلادنا مؤامرات وتحاك في الخفاء... وكأننا دخلاء أو غرباء يجب على من يسمي نفسه مسؤولاً أن يهجر هذه الفكرة المتحجرة... والنية الخبيثة... فلنا الحق في المحاسبة والمناقشة... مادامت القضية تهمنا جميعاً على السواء

هذا من جهة... ومن جهة أخرى يجب علينا نحن المغاربة مساعدة اخواننا الجزائريين الذين ضربوا المثل الأعلى في التضحية والفداء..مساعدة ايجابية فعالة.. ونشاركهم في الاجهاز على المعتدين حتى يجعلوا حدا لهذا الاعتداء السافر المزري الذي نقاسي منه نحن أكثر من غيرنا...

وما الحوادث المتكررة يوميا على الحدود إن لم نقل داخل الحدود إلا دليل على أنه من الواجب المحتم علينا أن نشمر عن سواعدنا... لمجابهة هذه العصابة المكونة من لصوص فرنسا المنهزمة نزحوا على بلادنا ليعيثوا فيها الفساد... بإيعاز من لا ضمير له من أبناء شمال افريقيا الذين سودوا صحيفة حياتهم وكانوا بذلك موضع الاحتقار...

أما عشرات الآلاف من أبناء الأمة المغربية الذين تعج بهم السجون والمعتقلات الجهنمية في طول البلاد وعرضها يعذبون ويجوعون لا لمعصية ارتكبوها ولا لجريمة ضبطوا بها إلا أنهم يعارضون بقاء جيش الاحتلال في البلاد فذلك شيء تتقزز منه النفوس... وكم حاولنا عبثاً أن تحل مشكلتهم فكان ما نراه اليوم من ازدياد البطش والتنكيل.. لأسباب مختلفة ومصطنعة لا اساس لها من الصحة.

وعلى كل فالمغرب في حاجة ماسة إلى من ينقذه... في حاجة إلى مرشدين... إلى موجهين... وليس أجدر بكم من هذا الواجب المقدس... فسيروا على بركة الله... والله معكم ولن يتركم أعمالكم والسلام .

أخوكم محمد عبد الكريم الخطابي

[illegible][illegible][illegible]

صورة لنسخة مرقونة من رسالة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطاطي إلى شيخ الإسلام



في 30 ماي 1946 عاد الزعيم محمد حسن الوزاني من منفاه السحيق الذي قضى به تسع سنوات وبهذه المناسبة نقف وقفة إجلال لهذا الرجل العظيم الذي كرس حياته للجهاد في سبيل وطنه بفكره وقلمه متنقلا بين دول العالم عارضا القضية المغربية على المنتظمات الدولية والحكومات . وفي الصورة مع فضيلة شيخ الاسلام سيدي محمد بالعربي العلوي رحمه الله

شيخ الإسلام مع محمد بلحسن الوزاني

مقال بجريدة العلم: (قصاصة)

الأستاذ المجاهد محمد إبراهيم الكتاني يتذكر: محمد بن العربي العلوي كما عرفته

عقد الأخ نجيب خداري جلسات مع الأستاذ المجاهد محمد إبراهيم الكتاني استمع خلالها إلى ذكرياته في موضوعات شتى عن الحركة الوطنية المغربية ورجالها وأحداثها. وقد استخرج الأخ خداري من أوراقه جزءا من هذا اللقاء الحميم مخصصا في مجموعته لذكريات أستاذا عن شيخه رائد السلفية محمد بن العربي العلوي، نقدم بعضا منه في هذا العدد:

محمد ابن العربي العلوي، عالم من علماء القرويين، تهيأت له ظروف خاصة كون فيها نفسه تكوينا متميزا مكنه من أن يسهم في صنع الأحداث والتأثير فيها. وقد عاشته أستاذا وداعية ومرشدا، وعرفت عن نضاله، وكثير من أحواله، ما جعل الكثيرين يلجأون إلي للسؤال عن كثير من أخباره وشؤونه.

أول صلتي به:

في أحد عيدي عام 1340 هجري وكنت أناhez البلوغ، ذهبت إلى دار أولاد خالي العلامة الخطيب المرحوم سيدي محمد الطاهر بن عبد الكبير الفاسي لتهنئتهم بالعيد. فاستبقوني للعشاء عندهم. وحضر عبد الحي، وسيدي المهدي الوزاني(المفتي)، وهي المرة الوحيدة التي اجتمعت به فيها، ومحمد ابن العربي

العلوي قاضي فاس الجديد، صحبة زميله عبد السلام السريغيني رحمهما الله، وكان ابن العربي يحمل بيده كتاب "الاعتصام" للإمام أبي اسحاق الشاطبي الذي وجده وهو في الطريق إلى العشاء قد وصل لأول مرة إلى أحد الكتبيين بعد أن طبعه بالقاهرة السيد محمد رشيد رضا -صاحب مجلة "المنار" وقال ابن العربي: "إن الشاطبي ذكر أن الحلاج قتل لطلبه الملك³. وأثناء الحديث، قال ابن العربي لشيخه الوزاني ممازحا: (إن سبب دخولي في الإسلام أنني قرأت كتيباً صغيراً لشيخ الإسلام ابن تيمية عنوانه "الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان" وأقسم يا سيدي أنك لو قرأت هذا الكتيب لأصبحت أنت أيضاً مسلماً).

فلم يزد الشيخ الوزاني على أن تبسم من كلام تلميذه ابن العربي. وكان الوزاني قد ألف رسالة في الانتصار للتوسل برسول الله (ص) رداً على فتوى صدرت من الشيخ محمد عبده المصري في منع التوسل. بعد انتهاء العشاء، رافقت القاضي ابن العربي في [...] فلفت نظري ما كان عليه من تواضع واطراح [...] لا يلبس إلا "الجلابة" بدون كساء ولا سلهم (برنس). وأثناء الطريق سألتني عن دروسي وأشياخي، الأمر الذي ترك في نفسي انطباعات خاصة باحترامه وتقديره.

* * *

نشأ محمد ابن العربي العلوي في تافيلالت، بالجنوب المغربي حيث حفظ القرآن وجوده، ودرس مبادئ العلوم هناك، وحفظ كثيراً من "متون" الدراسة، كما حفظ كثيراً من الشعر الجاهلي. واولع بالفروسية والسباحة، مما جعل والده يصحبه معه إلى فاس ويسكن معه في بيت المدرسة حتى لا يترك له مجالاً للاشتغال بغير الدراسة.

تطوره الفكري:

وأثناء طلبه العلم بفاس، عاد من المشرق الشيخ ابو شعيب الدكالي الذي طلب العلم بالأزهر وتشبع بالعقائد السلفية إلى جانب معرفته بالحديث والأدب والفقه وغيرها من العلوم، فحضر دروسه محمد ابن العربي العلوي، ووجد عنده ما لم يجده عند الآخرين.

ومن أوائل آثار دروس الشيخ الدكالي في تلميذه ابن العربي، أن ابن العربي وبعض زملائه من الطلبة، ذهبوا إلى سدرة كان نساء فاس يعبدنها، كما كان عرب

الجاهلية يعبدون ، ذات أنواط، فاقتلعوا السدرة، وتعجب الناس من أنه لم يصبه مكروه.

وإلى جانب دروس الشيخ أبي شعيب الدكالي، كانت الصلات وثيقة بين فاس والقاهرة، فكانت تصل إلى فاس كثير من المطبوعات المصرية، وكان ابن العربي مولعا بالقراءة والاطلاع، فقرأ كثيرا من هذه الكتب التي جعلته يعيد النظر في ما تلقاه من أشياخه في تافيلالت أو في فاس.

وقد أخبرني ، رحمه الله، أن أحد تجار فاس وصلته كثير من الكتب من مصر من جماعة من دعاة السلفية هناك، وطلبوا منه أن يوزعها مجانا على أهل العلم، فأطلع التاجر عليها الفقيه ابن العربي، فنصحه بألا يوزعها مجانا لأن الناس اعتادوا أن الكتاب المهدي لا يقرأه أحد، ونصحه بأن يبيعها بثمن بخس. وكان من بينها بعض مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، والقاضي الشوكاني اليمني، ومحمد ابن عبد الوهاب النجدي، وكتاب جلاء العينين في محاكمة الأحمدين: أحمد بن تيمية وأحمد بن الحجر الهيثمي، وكتاب غاية الأمان في الرد على النبهاني، وكتاب التعليم والإرشاد، لبدر الدين النعساني.

وذكر لي -رحمه الله- أنه زار صديقه عباس الكردودي -رحمه الله- فوجد عنده كتاب " النظرات " لمصطفى لطفي المنفلوطي فقرأه، ومنه تعرف لأول مرة على الشيخ محمد عبده الذي أصبح من المعجبين به.

طريقه في الدعوة:

كان الفقيه داعية بطبعه. وقد اتخذ طريقه في دعوة أشياخه وزملائه إلى أفكاره الجديدة استدعاءهم إلى منزله وعرض بعض الكتب الجديدة عليهم والتحدث إليهم عنها وتشويقهم إلى قراءتها وإعارتهم ما يريدون الاستعارة منها. وقد نجح في تحويل بعض شيوخه وزملائه إلى دعوته الإصلاحية. كما أنه كان مدرسا في القرويين ومدرسا فيس الثانوية الفرنسية التي سماها الفرنسيون "ثانوية مولاي ادريس". وقد حضرت دروسه في القرويين في مختصر خليل، وفي تحفة ابن عاصم، وفي جمع الجوامع، وفي الكامل للمبرد. كانت العادة أن يختم الشيخ مختصر خليل في القرويين في أربعين سنة، فقرر الشيخ ابن العربي أن يختمه في سنة واحدة، وكان يحرق الفقه المالكي أتم

تحرير ويضيف إليه فقه الحديث وبعض مذاهب الفقهاء خارج المذهب المالكي اعتمادا بالأخص على كتاب "نيل الأوطار" للشوكاني.

وكان يوجه الأنظار بصفة خاصة إلى عيوب المجتمع المغربي ومظاهر التخلف الفكري ويقول: "إن رؤوسنا شبيهة بمزبلة كبيرة، ونحن في حاجة إلى الكثير من المساحي والشاحنات لتنظيفها وتطهيرها مما بها من نفايات.. " وكان شديد الحرص على تربية طلبته على الاستقلال الفكري واستخدام عقولهم ومحاربة الجمود والتقليد والتعصب، وكان ينصحهم بقراءة كثير من الكتب التي يعتبرها نافعة في هذا الباب.

وكانت دروسه في المدرسة الثانوية ترمي تعريف الطلبة باللغة العربية وآدابها والتعريف بالاسلام وتحبيبهما إلى الطلبة وتنبيههم إلى الدسائس التي يبثها المعلمون الفرنسيون ضد الإسلام واللغة العربية وجامعة القرويين. ومن أهم ما كان يحض عليه الطلبة ديوان الحماسة لأبي تمام لما يبثه في نفس قارئه من شعور بالعزة والكرامة والرفعة، إلى جانب ما فيه من الأدب العربي الرفيع.

كما كان يشجع الطلبة على قراءة الجرائد والمجلات العربية التي كانت تصل إلى فاس من مصر وتونس، وعلى الاهتمام بما يجري في العالم. وكانت حرب التحرير الريفية قائمة في هذا الوقت. فكان يهتم بها ويتحدث عن انتصاراتها ويعلق عليها من الآمال ما كان يعلقه كل المؤمنين. وكان يدعو إلى إصلاح التعليم بالقرويين وتنظيمه على غرار ما كان عليه الحال في الأزهر بالقاهرة والزيتونة بتونس.

وكان معروفا بنزاهته في القضاء وبعده عن الارتشاء. وقد جاءه، وهو قاض، أحد المتظاهرين بالصلاحي، وكانت له دعوة في المحكمة، فأراد أن يعطي رشوة للفقير، فما كان من القاضي إلا أن أحضر جميع العدول إلى المحكمة، وقال لهم: "أنظروا إلى هذا الدجال صاحب اللحية الممشوطة والسبحة الغليظة، أنظروا ما ذا في يده، إنه أراد أن يعطيني رشوة"

وفي اليوم الذي عين فيه قاضيا، أهده أحد الوجهاء عشاء، وقال له: "يقول لك المرسل هذا إكرام للعلم الشريف" فقال القاضي: "سبحان الله منذ كم من سنة وأنا في المدرسة أطلب العلم الشريف فما أكرمني أحد، فلما أصبحت قاضيا جاءني إكرام العلم.." ورد العشاء على مرسله ولم يقبله.

كيف تولى القضاء؟

أخبرني -رحمه الله- أن ترجمانا فرنسيا في بلدية فاس استدعاه في يوم من الأيام وسأله: "إذا كنت أملك أرضا، فألى أي مدى يصل ملكي من هوائها؟" قال الفقيه: (وكنت لم أقرأ هذه المسألة في ما درست، ففكرت مليا، ثم أجبتة بأنني إذا ملكت الأرض فجميع هوائها لي). فقال له الترجمان: "قد عينتك قاضيا بفاس الجديد". قال الفقيه: "فلما عدت إلى بيتي راجعت المسألة فوجدتها منصوطة كما ذكرت".

ما الكتاب الذي بين يديك؟

التقيت به يوما في الطريق، فبادرني بالسؤال "ما هذا الكتاب الذي بيدك؟". وهو يرى يدي فارغة. فاعتذرت له بأنني ذاهب إلى صديق أسترجع منه كتابا. فقال لي "ولكن إذا وجدته يتوضأ أو يصلي، أتبقى بدون شغل؟ أليس من الأفضل أن تقرأ بضعة أسطر أو صفحة قبل أن يخرج إليك." ومنذ ذلك اليوم، لم تفارق يدي الكتاب.

محاولة إصلاح إحدى الطوائف:

لاحظ الفقيه أن الطائفة التي كان ينتسب إليها كانت تمارس كما كانت تمارسه بقية الطوائف. فرفع هو وبعض زملائه عريضة إلى رئاسة الطائفة يلفتون نظرها إلى أن الرقص مستحدث في الطائفة وليس من شعائرها الأصلية. وقد نجحت المحاولة قبل أن يتخلى الفقيه عن الطائفية نهائيا.

التعليم الحر:

كان إصلاح التعليم بالمغرب من أهم اهتمامات الحركة الإصلاحية في المغرب قبل الحماية، فلما وقعت الحماية، كان من أهم اهتمامات الشعب المغربي لمواجهة المستقبل الغامض الاتجاه إلى تأسيس مدارس شعبية حرة تحل محل الكتابات القرآنية القديمة، من جهة، وتزاحم المدارس الفرنسية ذات الاتجاه الاستعماري، من جهة ثانية. وهكذا تأسست في فاس عدة مدارس حرة في مختلف أحياء فاس، ويغلب على الظن أن بعضها كان للفقيه ابن العربي وبعض

زملائه اليد الكبرى في تأسيسها، وكان الفقيه يرفع هذه المدارس فيزورها بين الحين والآخر، ويتفقد أحوالها والقائمين عليها ويشجعهم.

وقد اتخذت مدرسة الزاوية الناصرية التي كنا نشرف عليها ويديرها شيخ الوطنية الفقيه محمد غازي-رحمه الله- عادة إقامة امتحان للطلبة في آخر السنة الدراسية. وبعد انتهاء الامتحان، يقام احتفال للتبوية بالناجحين وإعلان النتائج، وكان الفقيه ابن العربي يحضر هذه الامتحانات مع بعض العلماء ويخطب في حفلة الاختتام، وكان الخطيب الوحيد الذي يجيد الارتجال بين زملائه علماء القرويين، وذلك مما تعلمه من شيخه أبي شعيب الدكالي الذي كان يلقي درسه بالعربية الفصحى الرفيعة.

وقد استمرت هذه المعركة بين الاستعمار، من جهة، والشعب المغربي من جهة أخرى، طوال عهد الحماية، وخصوصاً عندما تبني هذا التعليم بطل التحرير محمد الخامس -رضي الله عنه-.

الدعوة إلى تنظيم التعليم في القرويين:

عندما استقرت الأوضاع للحماية بفاس، أسس الفرنسيون مجلساً لعلماء القرويين. وكانت قائمة المدرسين بالقرويين طويلة، فاخترلوا إلى نحو الثلث أو الربع، وهذا ما سموه بالتنظيم، ولكن الناس كانوا يشعرون بمسيس الحاجة إلى تنظيم حقيقي وجذري. وقد ألقى الفقيه ابن العربي محاضرة في هذا الموضوع بقاعة المحاضرات بالثانوية الفرنسية بفاس التي سموها "كوليج مولاي ادريس"، وكانت تلقى في أغلب الأحيان محاضرات كل أسبوع.

في زاوية الشيخ ماء العينين:

ومن النشاطات الغامضة في هذا الباب أنه تأسس في زاوية الشيخ ماء العينين بفاس ملحق تابع لكوليج مولاي ادريس خاص بأبناء القرويين الذين يريدون الالتحاق به حيث يتلقون مواضيع لم تكن تدرس بالقرويين مثل مقدمة ابن خلدون والجغرافية ومادة اللغة الفرنسية، وكان الفقيه ابن العربي يدرس في هذا الملحق مقدمة ابن خلدون ومن الطلبة الذين كانوا يحضرون دروس هذا الملحق محمد المختار السوسي، وهناك تعرف بشيخه ابن العربي الذي تحدث عنه بإعجاب كبير مرتين في كتابه "الإلغيات"، ولكن الملحق لم يلبث أن اختفى في

ظروف غامضة كما لف الغموض ظهوره أول مرة، وقد بقي موضوع تنظيم التعليم بالقرويين يشغل بال الفقيه وطلبته إلى أن نجح محمد الخامس رحمه الله في إخراجه إلى حيز الوجود كما سيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد.

بدع الأفراح والمآتم:

كانت احتفالات الأفراح والمآتم بفاس تأخذ طابعا من الإسراف الشديد الذي يؤدي إلى مأس عائلية كبرى. فقامت في المجلس البلدي بفاس حركة لبيان ما في هذه العوائد من أضرار اجتماعية خطيرة، وحددت ما ينبغي الاقتصار عليه في الاحتفالات. وكان المجلس البلدي يستدعي كل يوم طائفة من الشعب، فيتولى الفقيه ابن العربي الخطبة فيهم وبيان مفساد هذا الإسراف، ويأخذ على الحاضرين العهد بأن يتخلوا عن هذه المظاهر.

وقد كتبنا نحن طلبة الفقيه ابن العربي عريضة رفعناها إلى المجلس البلدي في تأييد هذه الحركة. وقامت في الأوساط الفاسية معارضة لهذه الحركة تزعمها الحجامون الذين رأوا فيها إضرارا بمصالحهم الاقتصادية، فتطوع جماعة من شباب فاس للقيام بدور الحجامين في الحفلات الأمر الذي أرغمهم على التخلي عن معارضتهم، ونجحت الفكرة.

وقد كان يتزعم هؤلاء الشباب أحد تلامذة الفقيه في "كوليج مولاي ادريس" سيدي امحمد الزغاري-رحمه الله- أحد الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال.

3- مقال في جريدة الاتحاد الوطني إبان حملة الاستفتاء على الدستور:

إن هذا الدستور ينص في ديباجته على أن المغرب دولة إسلامية، وهذا لا يزيد على أن يكون تقريراً لواقع.

وإذا كنا نحمد لواضعي الدستور عدم إغفالهم لتقرير هذا الوضع، فإننا ندعوهم باسم الإسلام نفسه، ما دام النزاع قد حصل بيننا في شأن هذا الدستور، إلى الاحتكام إلى الله ورسوله، عملاً بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر" على أن لا نفهم من أولي الأمر هنا (الحكام) فقط. فقد يكونون هم الحكام، وقد يكونون هم العلماء، ومهما يكن، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

المهم أنه قد حصل النزاع بيننا فيمن هو صاحب الحق في التشريع فلنرجع إلى الشريعة الإسلامية لنرى رأيها في ذلك.

إن التشريع في الإسلام- كما هو معروف- لا يخرج عن القرآن أولاً، وحديث الرسول ثانياً، وإجماع المسلمين ثالثاً، فيما لم يرد فيه نص في كتاب ولا سنة.

أما الحاكم -ملكاً أو غيره- فإنه لا يزيد في الإسلام على أن يكون مجرد منفذ لما جاء في الكتاب والسنة، ولما جاء به إجماع المسلمين وذوي الرأي منهم، مما لا يتعارض مع روح الكتاب والسنة، وهذا معنى قولهم عن الحاكم: منفذ بالشرع والأحكام

أي أنه مجرد أداة تنفيذ لأحكام الشرع الواردة في الكتاب والسنة والإجماع.

وكل حاكم -ملكا كان أو غير ذلك- أعطى لنفسه حق التشريع، فقد خالف مخالفة صريحة أصول الديانة الإسلامية، ولن ينفع له أن ينص في ديباجة تشريعه على الاعتراف بكون البلاد التي يحكمها دولة إسلامية. هذا هو الإسلام، وهو صريح واضح لا غبار عليه. فالإسلام ليس مجرد أقوال، وإنما هو أقوال وأعمال.

وشيخ الإسلام جريا على عادته يدعم كلامه بالآيات القرآنية كقوله تعالى: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما".

"إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المصلحون".

وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. إنما الطاعة في المعروف".

أما فيما يتعلق بوراثة الحكم التي نص عليها الدستور الممنوح، فشيخ الإسلام يعرض رأي الإسلام في ذلك ممهدا له بالتذكير بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يوص بالخلافة من بعده، وإنما اجتمعت كلمة المسلمين على اختيار أبي بكر الصديق.

وأبوبكر عندما حضرته الوفاة استخلف عمر بن الخطاب، بعد أن استشار المسلمين في ذلك وأقرروه عليه، ولم يرشحه لأي اعتبار كيفما كان، ما عدا أنه كان يرى فيه أنه هو الأصلح للقيام بشؤون المسلمين.

وعمر أيضا تركها وهو في حالة الاحتضار شورى بين ستة من وجوه الصحابة، من بينهم ابنه عبد الله، كمستشار فقط، لا كمرشح، بل إنه نص نصا صريحا على عدم ترشيحه للخلافة كما هو معروف في التاريخ.

وعلى كل حال، فالذي ينسجم مع تعاليم الإسلام وروحه، ومع تاريخه في عهود إشراقته الأولى قبل أن تصبح الخلافة "ملكا عضوا" هو أن يترك هناك مجال للخيار للمسلمين.

فالحاكم في الإسلام يجب أن تتوفر فيه شروط منصوص عليها في كتب الإسلام، وليس من الممكن الحكم بتوفر هذه الشروط أو عدم توفرها قبل أن يعرف المسلمون المرشح للحكم معرفة كاملة، ليوافقوا عليه أو يرفضوه.

وأخيرا يبدي شيخ الإسلام رأيه في قرار مقاطعة الدستور الممنوح والإضراب عنه فيقول:

ما دام الحاكم في الإسلام مجرد منفذ ليس له حق التشريع، وما دامت مصادر التشريع في الإسلام هي الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين وذوي الرأي منهم، فإن أي تشريع يصدره الحاكم بمفرده، يعتبر أساسا عملا منافيا لروح الإسلام، وما دام كذلك فهو منكر يجب على المسلمين تغييره باليد أو اللسان أو القلب، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان". ونحن أمام منكر أقل ما يطلب منا أن نغيره بقلوبنا، وذلك بأن ننكره، ونعرض عنه، ولا نلتفت إليه، ونقطع الصلة بيننا وبينه، ولا نشترك في تدعيمه، لا "بنعم" ولا ب"لا". لأننا إذا فعلنا سنكون شركاء في المنكر الذي أمرنا بتغييره.

شيخ الإسلام مع ولي العهد المولى الحسن



شيخ الإسلام ينتقل إلى دار البقاء بعد
حياة مديدة كلها علم وعمل وكفاح
وتضحية في كل المواقع



منصة إحدى جلسات ندوة السلفية المستنيرة
تكريما لشيخ الإسلام





”...عاش شيخ الإسلام عهودا تعاقب فيها ستة ملوك بدءا من الحسن الأول مروراً بعبد العزيز وعبد الحفيظ ويوسف ومحمد بن يوسف وانتهاء بالحسن الثاني...وهي عهود عاش فيها المغرب أوضاعا وتقلبات تماماً كما عاش الشيخ أوضاعا وتقلبات...

في 1944، كان شيخ الإسلام الوحيد الذي قدم استقالته من وزارة العدل في حكومة المخزن، في احتجاج مزدوج على رفض المقيم العام وثيقة الاستقلال، أولاً، وعلى تخادل وإذعان باقي وزراء حكومة المخزن أمام ذلك الرفض، ثانياً...

في عهد الاستقلال، استمر شيخ الإسلام في احتضان

حركة المقاومة وجيش التحرير

مثلما كان دائماً حتى وهو في وزارة التاج...

وفي 14 فبراير 1960، تاريخ اعتقال ثلاثين من قادة المقاومة وجيش التحرير كنت ضمنهم إلى جانب عبد الرحمن اليوسفي ومحمد البصري وسعيد بونعيلات ومنصور والهاشمي المتوكل وآخرين...في إطار ما سمي حينها ”مؤامرة اغتيال ولي العهد“. وقد حصل ذلك في إحدى أقوى لحظات احتداد الصراع بين المقاومة وجيش التحرير وولي العهد وحتى الملك نفسه، والتي كان شيخ الإسلام قد اتخذ فيها أحد أكثر مواقفه قوة بحيث سيتفاجأ به حتى الملك وسيكون له وقع كبير عليه وعلى المقربين منه، وهو استقالته من الوزارة احتجاجاً على مؤامرة اعتقال قادة المقاومة وتعذيبهم...

كان شيخ الإسلام الفقيه والعالم والمربي والقاضي ورجل الدولة والمناضل السياسي... وكان في كل هذه المواقع... بما في ذلك حياته الخاصة محصناً...ولذلك يقدم لنا أبلغ مثال على حقيقة أنه عندما نحل كمناضلين تناقضاتنا الخاصة مع أنفسنا أولاً، كما فعل الشيخ، لن تفلح أية قوة في أن تكسرننا أو تستوعبنا أو تستعملنا، وتستطيع في كل حين أن نخرج من قم السبع أحياء نرزق... يعني أن نبقي، رغم الوزارة وبعد الوزارة، ما كنا إياه قبل الوزارة، أي مناضلين...”

محمد بن سعيد آيت إيدر